

سبيل الحكمة فِي الوعظ والخطابة

لفضيلة الأستاذ الكبير والمرشد الحكيم

الشيخ علي محفوظ

من أكابر علماء الأزهر، ومدرس بقسم الوعظ والإرشاد

تحقيق

عراقي حكامد

(مكتب طريق الهجرتين)



مقدمة التحقيق

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ تَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا؛ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الْمُلْكُ وله الْحَمْدُ، وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ رَبُّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؛ فَشَرَحَ بِهِ الصُّدُورَ، وَأَنَارَ بِهِ الْعُقُولَ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ الوعظَ والإرشادَ ودلالةَ العباد على رَبِّهِمْ، والأخذَ بأيديهم في طريقه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بَابٌ عَظِيمٌ، لَا غِنَى لِلخَلْقِ عَنْهُ؛ لكَثْرَةِ الانشغالِ بالدُّنْيَا، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْآخِرَةِ، الَّذِي يُسَبِّبُ قَسْوَةَ الْقُلُوبِ، وَفُتُورَ الْإِيمَانِ فِي الصُّدُورِ، وَالتَّفْرِيطِ فِي حَقِّ اللَّهِ، وَالْجَهْلِ بِشَرَائِعِ الدِّينِ.

فَمَهْمَةُ الْوَاعِظِ هِيَ التَّذْكِيرُ بِاللَّهِ، وَتَجْدِيدُ الْعَهْدِ مَعَهُ، وَإِصْلَاحُ الْقُلُوبِ بِذِكْرِهِ، وَتَرْكِيةُ النَّفُوسِ بِطَاعَتِهِ، وَتَحْرِيرُهَا مِنْ رِقِّ الشَّيْطَانِ وَعُبُودِيَةِ الدُّنْيَا.

وقد تَوَلَّى اللهُ **جَلَّ وَعَلَا** الموعظة بنفسه؛ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿يُعْظَمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ [النور: 17]، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: 63]، وَعَلَّمَهُ سَبِيلَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

وَأَمَرَ **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ؛ وَمِنْ ذَلِكَ: الْأَمْرُ بِوَعْظِ النَّاشِزَاتِ؛ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: 34].

وَصَدَقَ مَنْ قَالَ:

إِنْ صَحَّ أَنَّ الْوَعْظَ أَصْبَحَ فَضْلَةً فَالْمَوْتُ أَرْحَمُ لِلنَّفُوسِ وَأَنْفَعُ
فَلَوْلَا رِيَّاحُ الْوَعْظِ مَا خَاضَ زُورُقٌ وَلَا عَبَّرَتْ بِالْمُبْجَرِينَ الْبَوَاحِرُ
وقد سئل سَمَاحَةُ الشَّيْخِ ابْنِ بَازٍ **رَحِمَهُ اللهُ** سَوَالاً جَاءَ فِيهِ: لَقَدْ اخْتَفَى الْوَعْظُ وَالْإِرْشَادُ عَنْ بَعْضِ الْمَسَاجِدِ، وَقَدْ آلَمْنَا ذَلِكُمْ كَثِيرًا؛ فَهَلْ مِنْ تَعْلِيلٍ لِهَذَا؟ وَجَّهْنَا؛ جَزَاكُمُ اللهُ خَيْرًا.

فَأَجَابَ **رَحِمَهُ اللهُ**: «لَا رَيْبَ أَنَّ الْوَعْظَ وَالْإِرْشَادَ مِنْ أَهَمِّ الْمُهْمَّاتِ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ، بَلْ وَغَيْرُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ بِسَبَبِ قِلَّةِ الدُّعَاةِ، وَاشْتِغَالِ النَّاسِ فِي أُمُورٍ أُخْرَى مِنَ التَّدْرِيسِ وَالشُّتُونِ الْإِدَارِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ - قَدْ يَتَأَخَّرُ الدَّاعِي عَنِ الْمَسْجِدِ وَقَتًا طَوِيلًا؛ لَكثْرَةِ الْمَسَاجِدِ، وَقِلَّةِ الدُّعَاةِ، فَهَذَا هُوَ السَّبَبُ.

وَإِنِّي أَنْصَحُ جَمِيعَ الْمُدَرِّسِينَ الْمُتَأَهِّلِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ خَرِيجِي كَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ، وَكَلِيَّةِ أَصُولِ الدِّينِ - نَنْصَحُهُمْ جَمِيعًا أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ، وَأَنْ يُشَارِكُوا فِي



الدَّعوة، وأن يُشاركوا في الوعظ والتذكير في المساجد حتَّى يسُدُّوا الخلل والتَّقْص الذي يحصل مِنَ الدَّعاة.

فالدَّعاة- بالنَّسبة إلى كثرة المساجد- قليلون، وإن كُنَّا نَتَطَلَّبُ دعاةً حتَّى يَتَعَيَّنوا عندنا، ونُرِيد ذلك، ونحرص على ذلك، لكن ليس كُلُّ ما يُريد الإنسانُ يحصل له؛ لأنَّ إخواننا المُتخرجين كثير مِنْهم يَرغبُ أن يكون مُدرِّسًا، أو في عَمَل ثانٍ؛ لأنَّه أسهلُّ عليه مِنَ الدَّعوة.

فالمساجد كثيرةٌ والدَّعاة قليلون؛ فلهذا قد يتأخَّر مَجيء الدَّاعية إلى المسجد، كما ذكر السَّائل، وإن كانوا بحمدِ الله يَمُرُّون على المساجد، ويقومون بالدَّعوة، وفي غالبِ المساجد، لكن قد يتأخَّر بعضهم عن بعضِ المساجد، قد يكون بعضُ المساجد في أطرافِ البلَد، فلا يأتِيها الدَّاعيةُ إلَّا في أوقاتٍ مُتفاوتة، ولكن بمثل ما تَقَدَّمَ أنصح إخواني المُدرِّسين وأهل العِلْم مِنَ القُضاة وغيرهم- أنصحهم جميعًا أن يتَّقُوا الله، وأن يُشاركوا في الدَّعوة إلى الله وَوَعْظِ النَّاسِ وتذكيرهم، والإجابة على أسئلتهم؛ لأنَّ هذا واجبُ الجميع، وحقٌّ على الجميع؛ نسأل الله أن يُوفِّق الجميع...»⁽¹⁾.

هذا، وقد بَدَل الدَّعاة والعلماءُ جُهودًا كبيرة في إمدادِ الدَّعاة بأفكار ومفاهيم دعويَّة ومنهجية، منذ مُنتصف القرن الرَّابِع عَشَرَ الهجري، ومنهم فضيلةُ الشَّيخ العالمِ المصري الأزهري: علي محفوظ- عضو هيئة كبار العلماء في الأزهر، والمتوفى سنة 1361 هـ، وذلك في هذا الكتاب الذي نُقَدِّم له، وفي

(1) «فتاوى نور على الدرب» (18/ 442-445)، جمع الدكتور محمد بن سعد الشويعر.

غيره من كُتبه - حتى يسير الواعظ والمُرشد والداعي في هذا السبيل على بصيرة من أمره، مُنطلقًا من هذه المنطلقات والقواعد العلميّة؛ لِثَمَرِ دعوته، وتوثي أكلها بإذن ربّها.

ونظرًا لحاجة المكتبة الإسلاميّة الماسّة لأمثال هذا الكتاب في هذا الفنّ؛

لِمِلء الفراغ الحاصل فيه، حتى يصُدّر عن مثله طلبه العلم والدعاة في دعوتهم؛ مُنطلقين في ذلك على أُسس علميّة راسخة - قُمنّا في مكتب «طريق الهجرتين للتحقيق والبحث العلمي» - بِتَحقيقه وَفَق أُسس علميّة، لِيُخَرّج في صورة مُفيدة، نَرجو أن تُسهم في هذا المجال.

وقد اتبعنا في ذلك المنهج الآتي:

1- مُقابلة الكتاب على نُسخ الكتاب المطبوعة قديمًا، مع استدراك مَوَاضِع كثيرة من التّصحيف والتّحريف، وذلك من مِصادر المُؤلف **رَحْمَةُ اللَّهِ** التي استقى منها مادّة كتابه، ومن غيرها من الكُتب التي أوردت هذه الأقوال، وكذلك عن سبيل النّظر في السّياق والسّباق واللّحاق .

2- مُراجعة الكتاب مُراجعة لغويّة دقيقة، وتقسيم النّص إلى فقرات، ووضع علامات التّرقيم المُناسبة له.

3- الاهتمام بِتَشكيل ما يُشكّل على القارئ في الكتاب، وبما يُبرز المعنى ويوضّحه، وبما يُجَمِّل النّص، وييسّر فهمه.

4- إثبات الآيات القرآنية بالخطّ العُثماني، وعزّؤها إلى مَوَاضِعها في المُصحف الشّريف، وذلك عَقِب نِهاية كُلّ آية.



5- تَخْرِيجُ الأحاديث تَخْرِيجًا مُوثَّقًا مِنْ مَصَادِرِ التَّخْرِيجِ؛ فَمَا كَانَ فِي «الصَّحِيحِينَ» أَوْ أَحَدَهُمَا اكْتَفَيْنَا بِذِكْرِ رَقْمِهِ فَقَطْ، وَمَا كَانَ فِي غَيْرِهِمَا مِنَ السُّنَنِ ذَكَرْنَا رَقْمَهُ أَيْضًا، وَذَلِكَ مِنْ تَرْقِيمَاتِ مُحَمَّدٍ فُؤَادِ عَبْدِ الْبَاقِي، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَسَانِيدِ وَالْمُصَنَّفَاتِ ذَكَرْنَا رَقْمَ الْجُزْءِ وَالصَّفْحَةِ، مَعَ ذِكْرِ حُكْمِ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَيْهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا إِنْ وُجِدَ.

6- تَخْرِيجُ الْآثَارِ مِنْ كُتُبِ التَّفَاسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَإِيرَادُ الْحُكْمِ عَلَيْهَا إِنْ وُجِدَ.

7- التَّعْلِيقُ عَلَى بَعْضِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ بَيَانٍ لِلْقَارِئِ، وَذَلِكَ بِإِضَافَةِ فَائِدَةٍ، أَوْ شَرْحِ كَلِمَةٍ غَرِيبَةٍ، أَوْ تَحْرِيرِ رَأْيٍ، أَوْ إِزَالَةِ غُمُوضٍ أَوْ لَبْسٍ.

8- تَمْيِيزُ الْحَوَاشِي الَّتِي عُلِّقَتْ بِهَا الشَّيْخُ، أَوْ الْمُصَحِّحِ قَبْلَ الطَّبَاعَةِ عَنْ حَوَاشِينَا، وَذَلِكَ بِإِضَافَةِ الرَّمْزِ [م] عَقِبَ الْحَاشِيَةِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ عَقِبَهُ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنْ تَحْقِيقَاتِنَا؛ خِدْمَةٌ لِلْكِتَابِ؛ لِإِبْرَازِ مَا يَحْتَوِيهِ.

9- اسْتِلَالُ تَرْجُمَةِ الْمُؤَلَّفِ رَحْمَةُ اللَّهِ مِنْ مُقَدِّمَةِ كِتَابِ «هُدَايَةِ الْمُرْشِدِينَ إِلَى طُرُقِ الْوَعْظِ وَالْخُطَابَةِ» لِلشَّيْخِ رَحْمَةُ اللَّهِ، الطَّبَعَةُ الثَّاسِعَةُ، دَارُ الْإِعْتَصَامِ.

رَحِمَ اللَّهُ فَضِيلَةَ الشَّيْخِ عَلِيِّ مَحْفُوظَ رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَجَزَاهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ عَلَى مَا بَذَلَ مِنْ نُصْحٍ وَتَوْجِيهِ وَتَعْلِيمٍ لِإِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ.

وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْفَعَ دَرَجَتَهُ كَمَا أَعْلَى مِنْ قِيَمَةِ فَنِّ الْوَعْظِ وَالْإِشْرَادِ وَالْخُطَابَةِ بِتَدْوِينِهِ أَصُولَهُ وَمَسَائِلَهُ فِي هَذِهِ الْمُؤَلَّفَاتِ الْقِيَمَةِ؛ لِيَرْتَقِيَ بِأَهْلِهِ.

وَاللَّهُ نَسْأَلُ الْإِخْلَاصَ وَالْقَبُولَ وَالتَّوْفِيقَ وَالسَّدَادَ وَالرَّشَادَ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ

مُؤَكِّفَهُ، وَمَنْ عَمِلَ عَلَى تَحْقِيقِهِ وَنَشْرِهِ، وَمَنْ قَرَأَهُ، وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ؛ إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ، وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَكَتَبَ

أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ

عِرَاقِي حَسَامِد

المدير العلمي لمكتب طريق الهجرتين

لِلتَّحْقِيقِ وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ

Erakyhamed55@hotmail.com



ترجمة فضيلة الشيخ علي محفوظ رَحِمَهُ اللهُ (1)

في محلّة رُوح مركز طنطا «غربيّة» (2)، كانت تُقيم أسرة «محفوظ»، وهي أسرة طيّبة، يتّصل نسبها بالحسن بن عليٍّ رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمَا، في تلك القرية ولِدَ فيها ونشأ، وحفظ القرآن الكريم، واستوعب حفظ بعض المتون.

وفي عام 1306 هـ التحق بـ«الجامع الأحمدي» بطنطا، واشتغل بتجويد القرآن الكريم على بعض الفقهاء، ثم بدأ يتلقّى العلم على كبار شيوخه؛ فكان من أساتذته: الشيخ عبد الرحمن الدماطي، والشيخ محمد الشبيني الكبير، والشيخ علي المنوفي، والشيخ فُظب بكر.

وكان في أثناء طلبه للعلم مثلاً حسناً للطلّاب المُجِدِّ، واستمرَّ بـ«الجامع الأحمدي» نحوًا من عشر سنواتٍ ظهر فيها نبوغه وتفوّقه على أقرّانه.

ثم رأى شيخه الأكبر الشيخ الدماطي أنّ ذلك التَّبَوُّعَ يجب أن يُفِيدَ منه الأزهر الشريف، فحبَّبَ إليه طلب العلم فيه؛ فتوجَّه في عام 1317 هـ إلى مصر (3)، ونزل بالأزهر المعمور، ثم مالت نفسه إلى مذهب أبي حنيفة بعد أن

(1) مُستلة من مقدمة كتاب «هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة» للشيخ رَحِمَهُ اللهُ، الطبعة التاسعة، دار الاعتصام.

(2) «الغربيّة»: إحدى محافظات مصر.

(3) والمقصود: مدينة «القاهرة»، فأهل الرِّيف يُطلَقون عليها: مصر.

كَانَ شَافِعِيَّ الْمَذْهَبِ؛ فَتَتَلَمَذَ عَلَى صَفْوَةِ عُلَمَائِهِ مِنْ أَمْثَالِ: الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْحَلْبِيِّ، وَالشَّيْخِ بَكْرِ الصَّدْفِيِّ، وَالشَّيْخِ أَحْمَدَ أَبُو خَطُوةَ، وَالشَّيْخِ مُحَمَّدَ بَجِيْتِ، وَالْأُسْتَاذَ الْإِمَامَ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ.

وَفِي عَامِ (1324هـ - 1907م) حَصَلَ عَلَى شَهَادَةِ «الْعَالَمِيَّةِ»، ثُمَّ اشْتَغَلَ بِالتَّدْرِيسِ.

وَلَمَّا أُدْخِلَ النَّظَامُ فِي الْأَزْهَرِ عَامَ 1911م سَارَ فِيهِ حَتَّى بَلَغَ الْقِسْمَ الْعَالِيَّ. وَفِي عَامِ 1918م أُنْشِئَ قِسْمُ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ فِي الْأَزْهَرِ؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَعَهَّدَهُ بِالتَّأْسِيسِ وَالتَّوْجِيهِ، وَفِي هَذَا الْقِسْمِ وَجَدَ ضَالَّتَهُ؛ فَجَاهَدَ فِيهِ بِكُلِّ قُوَاهُ، وَوَقَّفَ عَلَيْهِ فِكْرَهُ وَوَقْتَهُ، وَسُرْعَانَ مَا أَنْجَبَ عَلَى يَدَيْهِ رَجَالًا دُعَاةَ خَيْرٍ، وَرُسُلَ إِصْلَاحٍ، أَشْرَبُوا حُبَّ الْفَضِيلَةِ، وَنَمَتْ فِيهِمْ نَازِعَةُ الْخَيْرِ.

وَفِي عَامِ (1356هـ - 1937م) أُوْفِدَ عَلَى رَأْسِ أَوَّلِ بَعْثَةِ أَزْهَرِيَّةٍ إِلَى الْأَقْطَارِ الْحِجَازِيَّةِ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ.

وَفِي مَآيُو 1939م قَدَّرَتْ هَيْئَةُ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ مَزَايَاهُ وَعِلْمَهُ وَفَضْلَهُ؛ فَقَرَّرَتْ ضَمَّهُ إِلَى عُضُوبِئِهَا، وَصَدَرَ بِذَلِكَ الْأَمْرُ الْمَلَكِي رَقْمَ (16)، لِسَنَةِ 1939م.

وَفِي فَبْرَايِرِ 1941م مُنِحَ كِسْوَةُ التَّشْرِيفَةِ الْعَالَمِيَّةِ مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى. ثُمَّ لَقِيَ مَوْلَاهُ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ، الثَّالِثِ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ 1361هـ، الْمُوَافِقِ 11 نَوْفَمْبَرِ 1942م.

نَشَاطُهُ:

نَظَرَ الْفَقِيدَ بِفِكْرِهِ الثَّاقِبِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ، فَوَجَدَهُ أَشْبَهَ بِصِنَاعَةِ



خَاصَّةً بَيْنَ طَائِفَةٍ خَاصَّةٍ فِي مَكَانٍ خَاصٍّ لَا يَعْدُو الْعَالَمَ وَالْمُتَعَلِّمَ، قَدْ دَابَّ الْأَزْهَرُ عَلَى ذَلِكَ جَيْلًا بَعْدَ جَيْلٍ، وَسَوَادُ الْأُمَّةِ عَلَى هَذَا الثُّورِ مُحْجُوبٌ بِاحْتِجَابِ الْعُلَمَاءِ عَنْهُمْ، اللَّهُمَّ إِلَّا بِصِيصٍ مِنَ الثُّورِ يَظْهَرُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ الَّتِي يَنْبُتُ فِيهَا الْعِلْمُ بِوُجُودِ عَالِمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، أَوْ طَالِبٍ مِنَ الطُّلَّابِ فِي لَيَالِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ عَامٍ؛ فَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَوَاقِفَ أَنْ يُجَدِّدَ عَهْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَأَنْ يَقُومَ بِنَشْرِ الدَّعْوَةِ الصَّحِيحَةِ بَيْنَ طَبَقَاتِ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ الْكَرِيمِ.

وضع أساس فن الوعظ والخطابة:

ولقد أَحَبَّ فَنَّ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ حُبًّا لَا يَعْدِلُهُ حُبٌّ، وَأَخْلَصَ لَهُ إِخْلَاصًا مَا بَعْدَهُ إِخْلَاصٌ، وَامْتَزَجَ هَذَا الْحُبُّ وَهَذَا الْإِخْلَاصُ بِإِيمَانٍ قَوِيٍّ لَا حَدَّ لَهُ، ثُمَّ سَكَنَ هَذَا الْمَزِيجُ الْمُبَارَكُ فِي قَلْبِ كَرِيمٍ، فِي نَفْسٍ طَيِّبَةٍ رَاضِيَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ.

وبهذا الْقَلْبُ عَقَدَ اللَّوَاءَ وَتَأَهَّبَ لِلْغَزْوِ، فَأَخَذَ يَبْنِي فِكْرَهُ بَيْنَ طَبَقَاتِ الْأَزْهَرِ مِنْ عُلَمَاءِ وَطُلَّابٍ؛ فَكَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الْجِهَادِ: إِنْشَاءُ قِسْمِ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ فِي كَلِيَةِ أَصُولِ الدِّينِ.

الوعظ في المساجد والمجامع العلمية:

ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ؛ فَكَانَ يَغْشَى الْمَسَاجِدَ كُلَّ أُسْبُوعٍ، وَالْمَجَامِعَ الْعَامَّةَ؛ نَاشِرًا الْفَضِيلَةَ، دَاعِيًا إِلَى التَّمَسُّكِ بِجِبِلِّ اللَّهِ الْمَتِينِ؛ فَظَهَرَ نَجْمُهُ، وَسَطَعَ نُورُهُ، وَرَمَقَتْهُ الْعُيُونُ، وَأَسْكَنْتُهُ الْقُلُوبُ فِي سُوَيْدَائِهَا؛ لِمَا عُرِفَ فِيهِ مِنْ عِلْمٍ، وَمَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةِ الْبَيَانِ، وَدَقَّةِ الْأَسْلُوبِ، وَسَلَامَةِ التَّعْبِيرِ.

وكان أهم ما يلاحظ عليه: ذوقه الرفيع في الوعظ، ومراعاته لشعور

الحاضرين وعواطفهم؛ يَسْتَمِيلُهُم بِالْفُكَاهَةِ النَّادِرَةِ بَرَقَّةً تَمْلِكُ الْمَشَاعِرَ، وَيُلْقِي إِلَيْهِم بِالْحُجَجِ وَالْحِكَمِ فِي دَعَاةٍ تَفْتَحُ لَهَا الطَّرِيقَ إِلَى الْقُلُوبِ قَبْلَ الْأَسْمَاعِ.

الْوَعْظُ فِي الْقُرَى:

رَأَى - طَيَّبَ اللَّهُ ثَرَاهُ - أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْقُرَى الرَّيْفِيَّةِ قَدْ حُرِمَ مِنَ الْعِلْمِ، فَكَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهَا مُرْشِدًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، مُضَحِّيًا فِي ذَلِكَ بِمَالِهِ وَرَاحَتِهِ وَوَقْتِهِ، فَكَانَ يَقْضِي الْعِطْلَةَ الصَّيْفِيَّةَ مُتَنَقِّلًا بِالْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ فِي شَتَّى الْبِلَادِ، وَقَدْ كَانَ يُسَجِّلُ خُطْبَهُ فِي سَجَلٍ خَاصٍّ حَتَّى بَلَغَ مَجْمُوعُهَا (1000) خُطْبَةً.

مُحَارَبَةُ الْبِدْعِ وَالْخُرَافَاتِ:

رَأَى رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبِدْعِ وَالْخُرَافَاتِ قَدْ اسْتَحْكَمَ فِي نُفُوسِ الشَّعْبِ؛ حَتَّى أُنْعَدَهُمْ عَنْ طَرِيقِ الدِّينِ الْمُسْتَقِيمِ؛ فَأَخَذَ يُكَافِحُ وَيُجَاهِدُ، وَيَذَكِّرُ الْقَوْمَ بِمَحَاسِنِ الدِّينِ، وَقَبَائِحِ الْبِدْعِ، وَلَمْ يُثْنِ عَنْ سَبِيلِهِ مَا أَقَامَهُ دُعَاةُ هَذِهِ الْبِدْعِ مِنْ عِرَاقِيلَ وَعَقَبَاتٍ، وَظَلَّ ثَابِتًا عَلَى عَزْمِهِ حَتَّى اقْتَلَعَ الْأَوْهَامَ مِنَ الْقُلُوبِ، وَعَادَ بِالنَّاسِ إِلَى حَظِيرَةِ الدِّينِ، وَقَدْ أَلْفَ فِي هَذَا كِتَابَهُ الْعَظِيمَ «الْإِبْدَاعُ فِي مَضَارِّ الْإِبْتِدَاعِ».

الْجَمْعِيَّاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْعَامَّةُ:

أَيَقْنَنَّ أَنَّ الْجَمْعِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ خَيْرُ مُعَيِّنٍ عَلَى نَشْرِ الْفَضَائِلِ بَيْنَ الْأُمَّةِ؛ فَسَاهَمَ فِي تَأْسِيسِ جَمْعِيَّةِ «مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ»، وَكَانَ مِنْ أَعْضَائِهَا الْبَارِزِينَ.



وسَاهَمَ في تأسيس جمعية «الهِدَايَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ»، وقد انْتُخِبَ وكيلاً لها في
أَوَّلِ جُلُوسَةٍ عُقِدَتْ لتَأْسِيسِهَا في عام (1346هـ).

وكَذَلِكَ سَاهَمَ في تأسيس جمعية «تَحْفِيزُ الْقُرْآنِ بِالْعَبَّاسِيَّةِ»، وكان مِنْ
أَعْضَائِهَا الْمُخْلِصِينَ.

وقَبْلَ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأُولَى كانت جمعية «الرَّد عَلَى الْمُبَشِّرِينَ بِالْخَرْنَفِشِ»
تُناهِضُ الْمُبَشِّرِينَ؛ فكان رَحْمَةُ اللَّهِ خَطِيبَهَا، وَحَامِلَ لَوَائِهَا.

وفازَتْ جَمِيعَةُ «نُشْرِ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ» بِالكَثِيرِ مِنْ نَشَاطِهِ.
ولَمَّا تَكَوَّنَتْ جَمَاعَةُ «أَنْصَارِ الْحَجِّ» سَاهَمَ في جِهَادِهَا بِكُلِّ قُوَاهِ.

الْجَمْعِيَّاتُ الْخَاصَّةُ:

لَمْ يَكْتَفِ الْفَقِيدُ بِكُلِّ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْجَلِيلَةِ، بَلْ نَظَرَ فِي صُفُوفِ الْأُمَّةِ
فَوَجَدَ طَائِفَةً مِنْ عُظَمَائِهَا الْمُخْلِصِينَ قَدْ عَكَّفُوا عَلَى مَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ؛
فَتَلَطَّفَ فِي الدُّخُولِ إِلَيْهِمْ، وَاسْتَعْمَلَ ذِكَاؤَهُ وَفِطْنَتَهُ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ، وَهَمَسَ فِي
أَذَانِهِمْ بِأَحْكَامِ الدِّينِ الْحَنِيفِ؛ فَوَصَلَتْ دَعْوَتُهُ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَوَجَدَ التُّرْبَةَ صَالِحَةً
لِلْغُرْسِ، وَالْجَوْ مُلَائِمًا لِلْإِنْبَاتِ؛ فَكَوَّنَ جَمِيعَةً قَوَّامَةً الْعُظَمَاءِ، وَعُنْصُرَهَا:

«الطَّبِيقَةُ الرَّاقِيَّةُ»، مثل: المَرْحُومُ ⁽¹⁾ الدُّكْتُورُ سَالِمُ هِنْدَاوِي بَاشَا، والدُّكْتُورُ
سُلَيْمَانُ عَزْمِي بَاشَا، والمَرْحُومُ الدُّكْتُورُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِسْمَاعِيلِ بَاشَا، وَغَيْرُهُمْ مِنْ

(1) هذا بِالطَّبْعِ عَلَى سَبِيلِ الدُّعَاءِ، وَإِلَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَطَعَ لِأَحَدٍ بِرَحْمَةِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ؛ لِأَنَّ
ذَلِكَ مِنَ الْغَيْبِ.

طبقتهم، واشتغل معهم بتفسير القرآن الكريم في ليلة مُعَيَّنَةٍ مِنْ كُلِّ أسبوع، واتَّخَذَ لِذَلِكَ عِيَادَةَ الدُّكْتُور سالم باشا بـ«عابدين»⁽¹⁾، حَتَّى أَتَمَّهُ فِي بَضْع سِنِينَ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى السُّنَّةِ الشَّرِيفَةِ؛ فَقَرَأَ مَعَهُمْ «كِتَابَ الْبُخَارِيِّ» حَتَّى أَتَمَّهُ فِي بَضْع سِنِينَ، وَقَدْ كَانَ مِنْ آثَارِ هَذَا الْغُرْسِ أَنْ طَلَعَ الْمَرْحُومُ الدُّكْتُور عبد العزيز باشا إسماعيل عَلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ بِكِتَابِهِ الْعَظِيمِ «الْإِسْلَامُ وَالطَّبَّ الْحَدِيث».

كَذَلِكَ كَوَّنَ رَحْمَةُ اللَّهِ جَمِيعَةً أُخْرَى قِوَامُهَا الدُّكْتُور عبد السَّلَام العِيَادِي، وَنُجْبَةٌ مِنْ خَيْرَةِ الْمُتَعَلِّمِينَ، مَا بَيْنَ مُهَنْدِسٍ وَتَاجِرٍ وَمُوظَّفٍ، وَجَعَلَ مَقَرَّهَا عِيَادَةَ الدُّكْتُور العِيَادِي بـ«الدَّرْبِ الْأَحْمَرِ»⁽²⁾، وَقَدْ ابْتَدَأَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَتَّى أَوْشَكَ عَلَى إِتْمَامِهِ، وَلَكِنْ الْمَنِيَّةُ عَاجَلَتْهُ قَبْلَ ذَلِكَ بِقَلِيلٍ.

وَأَنْشَأَ جَمِيعَةً ثَالِثَةً قِوَامُهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَرْبَابِ الْمَعَاشَاتِ؛ فَغَرَسَ فِيهِمُ الرُّوحَ الدِّينِيَّةَ الْحَقَّةَ، وَكَانَ مَقَرَّهَا مَنْزِلُ صَاحِبِ الْعِزَّةِ أَحْمَدَ بَكْ فَهْمِي الْمُهَنْدِسِ، فِي «الْمُغْرِبَلِينَ»⁽³⁾، ثُمَّ بـ«الْعَبَّاسِيَّةِ»⁽⁴⁾.

وَامْتَدَّ نَشَاطُهُ إِلَى الطَّبِيبَاتِ وَالْمُرَضَّاتِ دَاخِلَ الْمُسْتَشْفَيَاتِ؛ فَتَعَهَّدَهُمْ فِي «مُسْتَشْفَى فَوَادِ الْأَوَّلِ لِلْوِلَادَةِ» بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالتَّنْصِاحِ الْعَالِيَةِ؛ مِمَّا كَانَ لَهُ أَثَرٌ مُحْسُوسٌ فِي قِيَامِهِمْ بِوَاجِبِهِمْ عَلَى خَيْرِ الْوُجُوهِ.

(1) «عابدين»: أَحَدُ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ، بِمِصْرَ.

(2) «الدَّرْبُ الْأَحْمَرُ»: أَحَدُ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ، بِمِصْرَ.

(3) «الْمُغْرِبَلِينَ»: أَحَدُ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ، بِمِصْرَ.

(4) «الْعَبَّاسِيَّةُ»: أَحَدُ أَحْيَاءِ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ، بِمِصْرَ.



إلقاء دروس دينية في الإذاعة اللاسلكية:

وفي حوالي عام 1939م نَبَتَتْ فِكْرَةُ إلقاء دروس دينية على أمواج الأثير؛ فكان أوَّل مَنْ وَقَعَ عليه هَذَا الاختيار لهذا العمل الجليل، فكان يُلقِي درسا في كلِّ شهرٍ تقريبا حتَّى لَقِيَ رَبَّهُ.

دروس شهر رمضان في الأزهر الشريف:

وكان من عاداته **رَحْمَةُ اللَّهِ** أَنْ يُلقِي درسا في الجامع الأزهر بعد صلاة العَصْرِ من كلِّ يومٍ من أَيَّامِ رَمَضَانَ المبارك، وقد ظلَّ محافظًا على هَذِهِ العادة الجليَّة، وكان فيها مُخْلِصًا مُتَفَانِيًا، ولا أدلَّ على ذَلِكَ من حِرْصِهِ عليها وهو في مَرَضِ الموت.

التأليف:

ألَّفَ الفقيهُ الكُتُبَ الآتية:

- 1- «الأخلاق»، وكان يُدرِّس في المعهد الابتدائي بالأزهر.
- 2- «سبيل الحكمة في الوعظ والخطابة».
- 3- «هداية المرشدين إلى طُرُق الوعظ والخطابة»، وهو مُقرَّر للدراسة في كلية أصول الدين.
- 4- «الإبداع في مضارَّ الابتداع»، وهو مُقرَّر للدراسة في كلية أصول الدين.
- 5- «الخطابة»، لم يُطَبَّع، وقد ظَهَرَتْ منه مُذَكِّرة مختصرة في (100)

صفحة.

خاتمة:

وهكذا، كان الفقيدُ شُعْلَةً مِنْ نُورٍ وَعِلْمٍ، تَفَرَّقَتْ أَشْعَتُهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاجِي الْأُمَّةِ، فَكَانَتْ السَّرَاجُ الَّذِي يَهْتَدِي بِهِ الْمُهْتَدُونَ.

كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى أَنَّ الْعِلْمَ ثَرَوَةٌ، وَزَكَاتُهَا الْوَعْظُ وَالْإِرْشَادُ؛ لِيَكُونَ عِلْمًا مُبَارَكًا طَيِّبًا يَزِيدُهُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

وَقَدْ كَانَ وَاعِظًا بِسَمْتِهِ وَهَيْئَتِهِ وَوَقَارِهِ وَوَفْقَتِهِ وَمِشْيَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَاعِظًا بِقَوْلِهِ وَمَنْطِقِهِ؛ فَكَانَ فِي ذَلِكَ مُصَدِّقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تُذَكِّرُكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَاهُ، وَيَزِيدُ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَيُرَغِّبُكُمْ فِي الْآخِرَةِ عَمَلُهُ»، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (1).

رَحِمَ اللَّهُ الْفَقِيدَ الْجَلِيلَ، وَأَحَلَّهُ مَقَامَهُ بَيْنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا.



(1) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (2/ 39)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (ص 213) برقم (631)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (2377).

سبيل الحكمة ففي الوعظ والخطابة

لفضيلة الأستاذ الكبير والمرشد الحكيم

الشيخ علي محفوظ

من أكابر علماء الأزهر
ومدرس بقسم الوعظ والإرشاد



obeikandl.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي وفق السُّعَدَاءَ لِلتَّحَلِّي بِمَحَاسِنِ الشَّمَائِلِ، واختارهم أُمْنَاءَ لِإِحْيَاءِ الْفَضَائِلِ، وإماتة الرِّذَائِلِ، والصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ؛ إِمَامِ الْمُرْشِدِينَ، وَصَفْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَخُلَاصَةِ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِالشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ، وَالْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: 125)، فَبَلَّغَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَعَلَى آلِهِ السَّادَةِ الْأَكْرَمِينَ، وَأَصْحَابِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ مِنَ الْأُئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ، وَالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذا مُخْتَصَرٌ لَطِيفٌ فِي فَنِّ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ وَالْخُطَابَةِ طَبَقَ مَنَاهِجِ التَّعْلِيمِ فِي قِسْمِ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ بِالْجَامِعِ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ - جُمِعَتْ فِيهِ نَتَائِجُ أَفْكَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَلَطَائِفُ آرَاءِ الْخُطَبَاءِ وَالْمُرْشِدِينَ فِي مَهْمَةِ الْوَعْظِ وَالْخُطَابَةِ؛ لِيَكُونَ نُبْرَاسًا يَهْتَدِي بِهِ مَنْ يَتَصَدَّى لِهَذِهِ الْغَايَةِ الشَّرِيفَةِ، وَطَرِيقًا قَوِيمًا يَسِيرُ عَلَيْهِ لِنَفْعِ الْمُسْلِمِينَ.

وَجَعَلْتُهُ مُشْتَمِلًا عَلَى بَابَيْنِ وَخَاتِمَةٍ.

والله-تعالى- أسأل أن يُوفّقني للصّواب، ويُلهمني فيه الرّشد والإخلاص؛
إنّه على كلّ شيءٍ قدير، وسَميعٌ مُجيبٌ، وهو حَسبي ونعم الوكيلُ.



الباب الأول: في الوعظ

وفيه عدة فصول



obeikandi.com

الفصل الأول: في مبادئ الوعظ والإرشاد

الْوَعْظُ والمَوْعِظَةُ والعِظَةُ، كما في «القاموس»: تَذْكِيرُ الشَّخْصِ مَا يُلَيِّنُ قلبه مِنَ الثَّوَابِ والعِقَابِ، يُقال: وَعَظْتُهُ فَاتَّعَظَ، إِذَا أَثَّرَتْ فِيهِ المَوْعِظَةُ وَأَفَادَتْ (1).

والإرشاد والرُّشْدُ بِضَمٍّ فَسُكُونٌ، والرَّشْدُ بِفَتْحَاتٍ: الهِدَايَةُ والاستقامةُ على طريق الحقِّ مع تَصَلُّبٍ فِيهِ، يُقال: استرشد الشَّخْصُ إِذَا طَلَبَ الرشدَ، أو اهتدى (2).

ويُطلق الوعظ والإرشاد في العُرف على الخطابة الدِّينية سواء كانت تعليمية لِبَيَانِ المَسَائِلِ الشَّرعية؛ اعتقاديّة؟، أو عَمَلِيّة، أو أخلاقيّة، أو تَأدِيبِيّة؛ لِإيقاظِ النَّاسِ مِنْ غَفْلَتِهِمْ بِالنُّصْحِ والتَّذْكِيرِ بالعَوَاقِبِ.

وموضوعه: إصلاحُ النفوس البَشَريّة التي إِذَا صَلَحت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ.

وغايته: صَلَاحُ المَعاشِ والمَعَادِ، والقَوْرُ بِسَعَادَةِ الدَّارينِ.

(1) انظر «لسان العرب» (7/ 466)، و«تاج العروس» (20/ 289)، و«الصَّحاح» (3/ 1181)، مادة (وعظ).

(2) انظر «لسان العرب» (3/ 176)، و«تاج العروس» (8/ 95)، مادة (رشد).

وفضله عظيم، فإنه مُتَعَلِّقٌ بِطَبِّ الأرواح، وتهذيب النفوس؛ لِتَصِلَ إلى السَّعادة.

قال بعض الحكماء: «لَمَوْعِظَةُ مُوقِظَةِ للقلوب من سِنَةِ الغَفْلَةِ، وَمُنْقِذَةُ للبصائر من سَكْرَةِ الحيرة، وَنُحْيِيَةِ لها مِنْ مَوْتِ الجَهالة، وَمُسْتَخْرِجَةُ لها مِنْ ضِيقِ الضَّلالة»⁽¹⁾.

وحكمه: الوجوب الكفائي عند التعدد. والعيني على مَنْ انفرد به فإن حاجة الناس إليه شديدة، وذلك لأنه لما كان الإنسان مَوْضِعًا للسَّهو والنَّسيان، وَمَحَلًّا للذُّهول والغَفْلَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُذَكَّرٌ دَائِمٌ، ووَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إلى قَصْدِ السَّبِيلِ وَجَادَةِ المَحَجَّةِ كلما جَارَتْ به الخيالاتُ الفاسدةُ والوساوسُ الرديئة.

ولتحصيل ذلك وَرَدَ الأمرُ به كتابًا وسُنَّةً؛ قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ». رواه الترمذي، وقال: «حديثٌ حَسَنٌ»⁽²⁾. إلى غير ذلك مِنَ الآياتِ والأخبار.

(1) ذكره أبو إسحاق الحصري القيرواني في «زهر الآداب وثمر الألباب» (1/ 142) عن بعض الحكماء.

(2) أخرجه الترمذي، (2169)، وأحمد في «مسنده» (5/ 388) برقم (23349)، وقال الألباني



وَيَمْتَأَزُّ فَنُ الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ عَنْ بَقِيَّةِ فُنُونِ الْخُطَابَةِ بِأُمُورٍ مِنْهَا:

أولاً: أَنَّهُ وَظِيفَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمَنْ عَلَى سَنَنِهِمِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ وَالْعُظَمَاءِ الْمُجَاهِدِينَ، وَالْهُدَاةِ الرَّاشِدِينَ؛ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا بُعِثُوا لِهَدَايَةِ الْعَالَمِ، وَسَنَ طَرِيقَةِ السَّعَادَةِ لِلنَّاسِ فِي الدَّارَيْنِ بِتَعْلِيمِهِمْ عِنْدَ الْجَهَالَةِ، وَإِقْظَاهِهِمْ وَقَتَ الْغَفْلَةِ، وَإِقْظَاهِهِمْ عِنْدَ حُدُودِ الْأَدَبِ عِنْدَ التَّمَرُّدِ؛ لِيَنْهَضُوا بِهِمْ مِنْ حَضِيضِ الْجَهْلِ وَالرَّذِيلَةِ إِلَى ذُرُورَةِ الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ.

ثانياً: مِنْ حَيْثُ مَوْضُوعِهِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ الْأُمُورِ وَأَخْطَرُهَا، أَعْنِي: الْأُمُورَ الرُّوحِيَّةَ.

ثالثاً: مِنْ حَيْثُ الْفَائِدَةُ - أَيْ: سَعَادَةُ الْحَيَاةِ بِالتَّحَلِّيِ بِالْفَضِيلَةِ. وَالتَّخَلِّيِ عَنِ الرَّذِيلَةِ، ثُمَّ الْفُوزُ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ.

وفوائده: مَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمْرَاضَ وَالْعِلْلَ تَعْرِضُ لِلْأَجْسَامِ فَتَذْهَبُ بِجَمَاهَا، وَكَثِيرًا مَا تُودِي بِحَيَاتِهَا إِذَا لَمْ تُسْعَفْ بِالْعِلَاجِ النَّاجِعِ قَبْلَ اسْتِفْحَالِهَا، وَاشْتِدَادِ خَطَرِهَا.

وَالْقُلُوبُ كَالْأَجْسَامِ يَعْضُ لَهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْعِلْلِ مَا يُطْفِئُ نُورَهَا، وَقَدْ يُفْقِدُهَا حَيَاتِهَا، وَذَلِكَ بِوُرُودِهَا مَوَارِدَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ، وَانْهَمَاكِهَا فِي الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ، وَالتَّهَانِ بِالْأَوَامِرِ وَالتَّوَاهِي، وَعَدَمِ الْمَبَالَاةِ بِأَنْوَاعِ الْفُسُوقِ وَالْفُجُورِ وَسَيِّئَاتِ الْبِدْعِ، وَنَبْذِ الْأَدَابِ الدِّينِيَّةِ، وَالْأَخْلَاقِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَارْتِكَابِ كُلِّ مَا لَا

يرضاه الشرع والعقل من الشرور والقبايح.

فهذه - لا شك - أمراض النفوس وعيّلها، ولا علاج لها إلا مَراهم الشريعة الغراء المركبة تركيباً علمياً كيماوياً دقيقاً من أجزاء الخطب والمواعظ والإرشادات والنصائح.

فبهذه المواعظ والنصائح دون سواها تصح النفوس، وتسلم القلوب من المخاطر، وترجع عن غيها إلى رشادها، وتعبد عن الطريق العوجاء إلى الصراط السوي.

وبالوعظ والإرشاد تهدب النفوس، وتتنبه العقول من غفلتها، وتستيقظ من رقديتها، وتستنير بنور الطاعة بعد أن أظلمتها المعاصي.

وعلى الجملة: فالوعظ والإرشاد هو الدواء الوحيد لصلاح العالم، والعلاج الوحيد لشفاء القلوب من أمراضها، ولا سلامة للعالم من مخاطر الشقاء إلا به، ولا ريب أنه متى ترك علاج القلوب من هذه الأمراض - استفحل أمرها، ومتى أهمل تطهير النفوس من أدران القباييس والردائل - انتشر الفساد، وهلك العباد، وعمّ الشقاء، وزاد البلاء، وساء حال المجتمع الإنساني - لهذا جاء الدين الحنيف بالحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشديد التكير على من أهملهما، ومضاراً إغفالهما تكاد تلمس باليد.

والبرهان الحسي قائم على أن الأمة التي انتشر فيها الوعظ والخطباء تحيا بمقدار كثرتهم وتأثيرهم، وأن المعنى الذي يتناولونه في نصيحهم وإرشادهم يكون أكثر انتشاراً، وأشدّ رسوخاً في نفوس تلك الأمة، وأن الأمة إذا فرطت



أو أَفَرَطْتُ فِي شَيْءٍ يُسْتَعَانُ دَائِمًا عَلَى اعْتِدَالِهَا بِوُعَاظِهَا وَخُطَبَائِهَا.

فَالْوَاعِظُ الْمَاهِرُ وَالْخَطِيبُ الْحَكِيمُ يَسْتَطِيعُ بِمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ نُورِ الْحِكْمَةِ، وَقَاطِعِ الْحُجَّةِ، وَسَاطِعِ الْبُرْهَانِ، وَقُوَّةِ الْبَيَانِ، وَمَتَانَةِ عِلْمِهِ بِتَأْلِيفِ وَتَرْكِيبِ الْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ- أَنْ يُصَحِّحَ الْقُلُوبَ مِنْ أَمْرَاضِهَا، وَيَهْدِّبَ النُّفُوسَ مِنْ أَدْرَانِ النِّقَاطِ وَالرَّدَائِلِ؛ حَتَّى تَرْجِعَ عَنْ غَيِّهَا، وَتَعُودَ إِلَى حَدِّ الْإِعْتِدَالِ، وَتَتَحَلَّى بِالْفَضَائِلِ وَالْكَمَالِ.



الفصل الثاني: في آداب الواعظ والمرشد

قد عرفت أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ تعالى مهمةُ الأنبياء والمرسلين، والسَّادَةُ العلماء نُوَابٌ عن الأنبياء في هذه المهمة؛ فهم أُمَنَاءُ اللَّهِ على شرعِهِ، والقَائِمُونَ على حُدُودِ اللَّهِ، والحافظُونَ لِدِينِهِ الْقَوِيمِ، والعارفُونَ بما يَحِبُّ لَهُ تعالى من كَمَالٍ وتنزيهِ؛ فكانوا لذلك أئمةَ النَّاسِ، وقادةَ الْخَلْقِ، يسرونَ بهم نحوَ السَّعَادَةِ بما يُرْشِدُونَهُمْ إليه مِنَ التَّحَلِّيِ بِالْفَضِيلَةِ، والتَّخَلِّيِ عَنِ الرَّذِيلَةِ؛ اعتقدَ النَّاسُ فيهم ذلكَ، وأَمَلُوهم لَهُ، فَأَحَلُّوهم من أَنفُسِهِمْ مَحَلًّا لم يَبْلُغْهُ سِوَاهُمْ مِنَ الْبَشَرِ، حتى اكتسبوا في قلوبهم مكانةً يُغْبِطُونَ عليها، وَرَجَحُوا مَنْزِلَةً تَصُبُّ إِلَيْهَا نُفُوسُ ذَوِي الْهَمَّةِ وَالْفَضْلِ.

وَنَاهِيكَ بِقَوْمٍ إِذَا فَعَلُوا لَحَظَّتْهُمُ الْعُيُونُ، وَإِذَا قَالُوا أَصَعَتْ لَهُمُ الْآذَانُ، وَوَعَتْ الْقُلُوبُ، فَهَمَّ مَطْمَحُ الْأَنْظَارِ، وَمَحَلُّ الثَّقَةِ، وَالْبِرْهَانُ الْقَاطِعُ وَالنُّورُ السَّاطِعُ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]!

حقًّا، ليس أَحَدٌ أَعْظَمُ شَأْنًا وَأَسْعَدُ حَالًا مِمَّنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الْفَضَائِلِ الْثَلَاثِ: فَكَانَ مُوَحِّدًا لِمَوْلَاهُ، عَارِفًا بِرَبِّهِ، مُعْتَقِدًا لِدِينِ الْإِسْلَامِ، عَامِلًا بِالْخَيْرِ، دَاعِيًا إِلَيْهِ، وَمَا هُمْ إِلَّا طَبَقَةُ الْعُلَمَاءِ، الْعَامِلِينَ، الدُّعَاةَ إِلَى اللَّهِ تعالى من ذَوِي



القلوب الحية، والإيمان الصادق، والإخلاص الصحيح.

ولا ريب أن الله **عَزَّوَجَلَّ** رَبَّطَ سعادة الإنسان في الدُّنْيَا والآخِرَةِ بالوقوف عند حدوده، وامتنال الأوامر، واجتناب النواهي، وأنه على مقدار وقوف العبد عند حدِّ الأدب يكون حُظُّه من تلك السَّعادة.

وغنيَّ عن البيان أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والتَّهْيِي عن المنكرِ وظيفةُ العلماء، ومنهم - وحدهم - يتعلَّمُها سائرُ الناسِ.

فإذا سعادةُ الأُمَّةِ في قبضةِ السَّادةِ العلماءِ، ومن هنا كانت وظيفتُهم خطيرةً، ومسئوليَّتُهم عظيمةً، وتزدادُ وظيفتُهم خُطورةً، ومسئوليَّتُهم عِظَمًا إذا هم تصدَّروا للوعظِ والإرشادِ.

لهذا وَجَبَ أَنْ تَتَوَفَّرَ فِي الْمُرْشِدِ الدِّينِيِّ الصِّفَاتُ الْآتِيَةُ:

الصِّفَةُ الْأُولَى: الْعِلْمُ بِالْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ مَعَ الصِّدْقِ فِي نَشْرِهَا؛ فإن مرتبة التبليغ عن الله تعالى لم تَكُنْ إِلَّا لِمَنِ اتَّصَفَ بِالصِّدْقِ مَعَ الْعِلْمِ، وَالْمُرْشِدُ وَارِثٌ لِهَذِهِ الصِّفَةِ، فَأَمَّا الْجَاهِلُ الْكَذَّابُ فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ، وَضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ؛ إِذِ الْجَاهِلُ لَا تَمَيِّزَ لَهُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا مَعْرِفَةَ تَرْشُدِهِ إِلَى إِصْلَاحِ الْقُلُوبِ وَتَهْذِيبِ النَفُوسِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ ضَلَّ، أَوْ تَمَسَّكَ بِغَيْرِ أَصْلٍ زَلَّ، وَأَمَّا الْكَاذِبُ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِمَا يَقُولُ، فَلَا يُكَذِّبُ فِعْلُهُ قَوْلَهُ، بل لا يأمرُ بالشيء - مَا لَمْ يَكُنْ هُوَ أَوَّلَ عَامِلٍ بِهِ - فَأَمَّا إِذَا كَانَ يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُهُ، وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَهُوَ وَقَّعَ فِيهِ، فَهُوَ - بِحَالِهِ هَذَا - عَقَبَةٌ فِي طَرِيقِ الْإِصْلَاحِ،

وهيهات هيهات أن يُنتفع به!

قال مالك بن دينار: «إِنَّ الْعَالَمَ إِذَا لَمْ يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ زَلَّتْ مَوْعِظَتُهُ عَنِ الْقُلُوبِ، كَمَا يَزِلُّ الْقَطْرُ عَنِ الصَّفَا» (1).

وكان موضع حيرة البُسطاء، ومحَلَّ سخرية في نظر العقلاء، وكلُّ مَنْ تناول شيئاً، وقال للناس: لا تتناولوه، فإنه سُمُّ مُهْلِكٌ. سَخِرَ النَّاسُ بِهِ، وَاثَمَوْهُ، وَزَادَ حَرَصُهُمْ عَلَى مَا نُهَوْا عَنْهُ، فَيَقُولُونَ: لَوْلَا أَنَّهُ أَطِيبُ الْأَشْيَاءِ وَالذُّهَاهَا لَمَا كَانَ يَسْتَأْثَرُ بِهِ، كَذَلِكَ الْوَاعِظُ إِذَا أَمَرَ بِمَا لَا يَعْمَلُهُ!

ولذلك كان بعضُ الوُعَاظِ لَا يَذْكُرُ لَهُمْ فِي فُضَائِلِ الْعِتَقِ حَتَّى أَمَكَّنَهُ اللَّهُ مِنْ شَرَاءِ رَقِيقٍ فَأَعْتَقَهُ، فَذَكَرَ لَهُمْ فَضْلَ مَنْ أَعْتَقَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ حَتَّى يَكُونَ لَهُ تَأْثِيرٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

وَمَنْ لَمْ يُكَابِدِ اللَّيْلَ وَسَهْرَهُ وَقِيَامَهُ، فَكَيْفَ يُسْمَعُ مِنْهُ فَضْلٌ مَنْ أَقَامَهُ وَأَحْيَاهُ؟!

وأيضاً، فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطَّابِعِ مِنَ الْمَطْبُوعِ، فكما أنه مُحَالٌ أَنْ يَنْطَبِعَ نَحْوُ الطَّيْنِ عَلَى الطَّابِعِ بِمَا لَيْسَ مُنْتَقِشاً بِهِ، كذلك مُحَالٌ أَنْ يَحْصَلَ فِي نَفْسِ الْمَوْعُوظِ مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ مِنَ الْوَاعِظِ.

فإِذَا لَمْ يَكُنِ الْوَاعِظُ إِلَّا ذَا قَوْلٍ مُجَرَّدٍ مِنَ الْفِعْلِ لَمْ يَتَلَقَّ عَنْهُ الْمَوْعُوظُ

(1) أخرجه أبو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (6 / 288)، وَالْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «اِقْتِضَاءِ الْعِلْمِ الْعَمَلِ» (ص 61)، عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، أَنَّهُ قَالَ: «قَرَأْتُ فِي التَّوْرَةِ...»، وَذَكَرَهُ.



إلا القول دون الفعل، وأيضاً فمثل المرشد من المسترشدين مثل العود من الظل، فكما أنه محال أن يعوجَّ العود ويستقيم الظل، كذلك محال أن يعوجَّ المرشد، ويستقيم المسترشدون.

قال حجة الإسلام الغزالي: «أما الوعظ فلست أرى نفسي أهلاً له؛ لأنَّ الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة؟! وفاقد الثور كيف يستنير به غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوجَّ»⁽¹⁾، ولذا قيل في المعنى:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ⁽²⁾
وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٤٤) [البقرة: 44]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ [الصف: 2، 3]؛ ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل.

قال أبو الدرداء **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «ويلٌ لِلْجَاهِلِ مَرَّةً، وويلٌ لِلْعَالِمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ إِذْ

(1) قال تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (6 / 216)، «قال ابن السمعاني: قرأتُ في كتابِ كُتِبَهِ الْغَزَالِي إِلَى أَبِي حَامِدٍ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ سَلَامَةَ بِالْمَوْصِلِ؛ فَقَالَ فِي خِلَالِ فُصُولِهِ...»، وذكره بنحوه.

(2) هذا البيت للمتوكل بن عبد الله بن نهشل بن مسافع، من شعراء الإسلام. وهو من أهل الكوفة، كان في عصر معاوية **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وابنه يزيد، ومدحهما، ونُسب هذا البيت إلى الأخطل، ويروى لأبي الأسود الدؤلي. انظر «إيضاح شواهد الإيضاح» (1 / 348).

يَزُلُّ بَزَلَّتِهِ عَالَمٌ كَثِيرٌ وَيَقْتَدُونَ بِهِ» (1).

ولذا قيل: زَلَّةُ الْعَالَمِ زَلَّةٌ لِلْعَالَمِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلِيهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا (2).

ولذلك قال الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلَانِ: عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ، وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ؛ فَالْجَاهِلُ يَغُرُّ النَّاسَ بِتَنَسُّكِهِ، وَالْعَالِمُ يُغَرُّهُمْ بِتَهْتُّكِهِ» (3).

وَمِنْ هُنَا كَانَ عِقَابُ الْوُعَاظِ الَّذِي تَخَالَفَ أَفْعَالُهُمْ أَقْوَالَهُمْ أَنْ تُقَرَّضَ أَلْسِنَتُهُمْ وَشَفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ، كَمَا قُرِضَتْ عَادَتُ كَمَا كَانَتْ، نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ.

(1) حديث: «وَيْلٌ لِلْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ، وَوَيْلٌ لِلْجَاهِلِ مِنَ الْعَالِمِ». رواه الديلمي عن أنس بن مالك في «مسند الفردوس» (4 / 395)، وقال الحافظ العراقي: «سند ضعيف». اهـ. من «فيض القدير» (6 / 476).

وقال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص 227): «وَيْلٌ لِلْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ حَيْثُ لَا يُعَلِّمُهُ»، أخرج صاحب «مسند الفردوس» من حديث أنس بسند ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (4756).

(2) ومصدق ذلك ما أخرجه مسلم (6975) عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «جاء ناسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ الصُّوفُ، فَرَأَى سُوءَ حَالِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُمْ حَاجَةٌ، فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَأَبْطَأُوا عَنْهُ حَتَّى رُئِيَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِصُرَّةٍ مِنْ وَرَقٍ، ثُمَّ جَاءَ آخَرٌ، ثُمَّ تَتَابَعُوا حَتَّى غُرِفَ السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

(3) ذكره أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» (1 / 58).



الصفة الثالثة: الحلم، فلو كان غليظ الطبع انصرفت الناس من حوله، وحرّموا الانتفاع بعلمه، وذلك هو الشقاء، وهو سببه وعِلته⁽¹⁾.

الصفة الرابعة: الشجاعة، حتى لا تأخذه في الله لومة لائم؛ فعن أبي ذرّ الغفاري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أوصاني خليلي بخصالٍ مِنَ الخَيْرِ: أوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأن أقول الحق ولو كان مُراً»⁽²⁾.

فإن كان جباناً ضعيف القلب عجزَ عن الأخذ بناصية الحق، وتغيير المنكر، وتقرّب إلى الناس بأنواع المداهنة، وتودّد إليهم بضروب الملق⁽³⁾، وما هكذا تكون الأطباء، ولا اللائق بقيادة الأمم.

الطبيب الماهر هو الذي إذا عرّف نوع المرض في أيّ شخص كان - بادَرَ إلى علاجه بما يستأصله؛ حرصاً على سلامة المريض، وهو لا يُبالي بكراهية المريض للدواء وتألمه من العلاج، فأمّا إذا عمِلَ لذلك حساباً، وتساهل مع المريض حتى استفحل أمر المريض، واستعصى على الدواء فأودى بحياة المريض؛ فإنه غاش، لا ناصح، وسفيه لا حكيم.

(1) لذلك قال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِيَنبِيَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطْماً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفَعُكَ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 159].

(2) أخرجه أحمد في «مسنده» (5/ 159) برقم (21453)، وابن حبان في «صحيحه» (2/ 76) برقم (361)، وصححه الألباني في «الصحيحه» (2166).

(3) **المداهنة: المداينة والملاينة والمصانعة.**

والملق: لين الكلام مع الناس، والتذلّل لهم، والتصنّع بإظهار الودّ لهم.

الصِّفَةُ الْخَامِسَةُ: الْعِفَّةُ وَالْيَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ عَفِيفٍ تَطَلَّعَ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَهَانَ عَلَيْهِ مَا يُلَاقِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الدَّلَّةِ وَالْإِهَانَةِ فِي سَبِيلِ الْحَصُولِ عَلَى الْحُطَامِ الْفَانِي؛ لِهَوَانِهِ عِنْدَهُمْ، وَثِقَلِهِ عَلَى نُفُوسِهِمْ، وَهَذَا - بِلَا شَكٍّ - هُوَ السُّقُوطُ الَّذِي لَا خَلَاصَ مِنْهُ، وَالْفَقْرُ الَّذِي لَا غِنَى مَعَهُ، وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: **أَوْصِنِي!** قَالَ: **«عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعِ؛ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ»** ⁽¹⁾.

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: الْقَنَاعَةُ فِي الدُّنْيَا، وَالرِّضَا مِنْهَا بِالْيَسِيرِ، فَإِنْ كَانَ حَرِيصًا عَلَى الدُّنْيَا، مُنْهَمَكًا فِي طَلِبِهَا كَانَ حَالُهُ هَذَا دَاعِيَهُ التَّرَغِيبُ فِي حُبِّهَا، وَحُبُّهَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ مُفْسِدًا لَا مُصْلِحًا، وَضَارًّا لَا نَافِعًا، وَالْعَيَانُ أَصْدَقُ شَاهِدٍ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ عَلَى قَدَرِ زَهَادَةِ الْعُلَمَاءِ فِي الدُّنْيَا تَكُونُ مَكَانَتُهُمْ فِي نَفُوسِ الْأُمَّةِ، وَالتَّفَافُهُمْ حَوْلَهُمْ، وَالِاسْتِمَاعُ لِتَصَاحِيحِهِمْ، وَالانْقِيَادُ لِإِرْشَادِهِمْ، وَعَلَى قَدَرِ تَعَلُّقِ الْعُلَمَاءِ بِالدُّنْيَا تَكُونُ زَهَادَةُ النَّاسِ فِيهِمْ، وَعَدَمُ الثَّقَةِ بِهِمْ وَاتِّهَامُهُمْ، وَالتَّفَرُّعُ مِنْهُمْ، فَلَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ قَوْلًا، وَلَا يَقْبَلُونَ مِنْهُمْ نَصِيحَةً.

الصِّفَةُ السَّابِعَةُ: قُوَّةُ الْبَيَانِ، وَفَصَاحَةُ اللَّسَانِ:

وإِلَّا كَانَ التَّفَعُّعُ بِهِ بَعِيدًا، بَلْ كَانَ مِثَالُ الْحَزَنِيِّ وَالْعَارِ عَلَى الْإِرْشَادِ وَأَهْلِهِ. وَقَدْ سَأَلَ اللَّهُ مُوسَى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** حِينَ بَعَثَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِإِبْلَاحِ رِسَالَتِهِ

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (4 / 362)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وأخرجه - أيضًا - ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (4 / 2249)، وأبو نعيم الأصبهاني في «معرفة الصحابة» (1 / 705)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (3881).



الإبانة عن حُجَّتِهِ، والإفصاح عن أدلَّتِهِ، فقال- حين ذَكَرَ العُقْدَةَ التي كانت في لِسَانِهِ، والحبْسة التي كانت في بيانه: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨) [طه: 27، 28]، وقال: ﴿وَأَخِي هَزْرُوتٌ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: 34]، وقال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَزْرُونَ﴾ (١٣) [الشعراء: 13]؛ رغبةً منه في غاية الإفصاح بالحُجَّةِ، والمُبَالِغَةِ في وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق إِلَيْهِ أُمَيْلَ، والعقول عَنْهُ أَفْهَمَ، والنفوسُ إِلَيْهِ أَسْرَعَ.

وعلى الجملة: فِقْوَةُ الْبَيَانِ وَفَصَاحَةُ اللَّسَانِ مِنْ جَلَائِلِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُرْشِدِ، بهما يَمْلِكُ الْقُلُوبَ، وَيُؤَثِّرُ عَلَى الْأَرْوَاحِ.

الصِّفَةُ الثَّامِنَةُ: مَعْرِفَةُ أَحْوَالِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَجْهَلُ أَحْوَالَهُمْ أَخْطَأَ كَثِيرًا فِي عِلَاجِ الْأَرْوَاحِ، وَكَانَ كَطَبِيبٍ يُدَاوِي جَمِيعَ الْأَمْرَاضِ بِدَوَاءٍ وَاحِدٍ. وَخَطَرُ ذَلِكَ عَلَى الْأَبْدَانِ جَسِيمٌ، فَكَذَا عَلَى الْقُلُوبِ.

الصِّفَةُ التَّاسِعَةُ: التَّقْوَى، وَالْأَمَانَةُ، وَالتَّحَرُّرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ مَسَاخِطِهِ؛ فَإِنَّهَا صِفَةُ الْمُورَثِ الَّذِي هُوَ خَلْفٌ عَنْهُ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فَاسِقًا فِي دِينِهِ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ كَبِيرَةٍ وَرُتْبَةٍ خَطِيرَةٍ، فَمَتَى لَمْ يَكُنْ لَهُ تَقْوَى تَحْجِزُهُ عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ، وَأَمَانَةٍ تَزَعُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ الْمَحَارِمِ كَانَ الضَّرَرُ بِهِ أَكْثَرَ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ.

وأيضًا، فإنه لا يُقْبَلُ قَوْلُ الْفَاسِقِ؛ فَتَتَلَاشَى عَلَى يَدَيْهِ وَظِيفَةُ الْإِشْرَادِ، وَنَاهِيكَ بِأَنَّهَا وَلَايَةٌ شَرْعِيَّةٌ وَوِظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ، وَالْفَاسِقُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَلِيَ شَيْئًا مِنْ

أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، وَمِثْلُهُ لَا يَتَحَامَى عَنِ الْفُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ.

الصِّفَةُ الْعَاشِرَةُ: كِبَرُ الْهِمَّةِ، وَشَرَفُ النَّفْسِ؛ لِيَتَحَقَّقَ فِيهِ مَقَامُ الْوَرَاثَةِ؛ فَإِنَّهُ مُصْلِحٌ دَاخِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَجْذِبُهُ طَبْعُهُ، وَتَحْمِلُهُ جِبَلَتُهُ أَثْنَاءَ عَمَلِهِ إِلَى مَا يَمِيلُ إِلَيْهِ.

وَمَقَامُ الدَّعْوَةِ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَى ذِكْرِ التَّهَاقُلِ الرَّائِعَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْمُرَغَّبَةِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْمُرْشِدُ أَقْوَى نَفْسًا وَأَعْلَى هِمَّةً كَانَ فِي ذَلِكَ أَمْضَى، وَعَلَيْهِ أَقْدَرُ، وَمَهْمَا نَقَصَ فِي ذَلِكَ نَقَصَ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِي نَفُوسِ السَّامِعِينَ.

الصِّفَةُ الْحَادِيثَةُ عَشْرَةٌ: الْبُعْدُ عَنِ الْعَقَائِدِ الزَّائِغَةِ، وَالْأَهْوَاءِ الْفَاسِدَةِ؛ كَإِنْكَارِ كِرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُشَوِّشُ عَلَيْهِ كَثِيرًا فِي سَيْرِهِ، وَيُنْقِرُ النَّاسَ مِنْهُ، بَلْ عَلَيْهِ - عِنْدَ الْحَاجَةِ - أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا صَحَّ مِنَ الْكِرَامَاتِ شَرْعًا، وَجَازَ عَقْلًا.

وعلى الجملة: يَجِبُ عَلَى مَنْ يَتَصَدَّى لِإِصْلَاحِ النَّاسِ أَنْ يَكُونَ حَسَنَ الطَّرِيقَةِ، مَرْضِيَّ السَّيَرَةِ، عُنْوَانِ الْفَضِيلَةِ، وَمِثَالِ الْكَمَالِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ.

حَقًّا لَوْ تَوَفَّرَتْ فِي الْوَاعِظِ وَالْمُرْشِدِ صِفَاتُ الْكَمَالِ كَانَ - مِنْ غَيْرِ شَكٍّ - وَارِثًا نَبَوِيًّا، وَكَوْكَبًا يُسْتَضَاءُ بِهِ ⁽¹⁾.

(1) يُشِيرُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (3641)، وَابْنُ مَاجَةَ (223)، وَالتِّرْمِذِيُّ (2682) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنَ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ



حقًا لو تحقَّق المُرشِدُ بهذه الصفات سَهَّلَ عليه أن يُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى أَنْوَارِ الْعِلْمِ، وَيُنْقِذَهُمْ مِنْ ذُلِّ الْمَعَاصِي إِلَى عِزِّ الطَّاعَةِ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُدَاوِيَ أَمْرَاضَ الْقُلُوبِ، وَيُهْدِبَ النَّفُوسَ بِمَا أُوتِيَ مِنْ مَهَارَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَأَمْكَنَهُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَبَيْنَ النَّقَائِصِ وَالرَّذَائِلِ بِسُورٍ مَنِيْعٍ مِنْ زَوَاجِرِهِ وَنَصَائِحِهِ وَتَرْغِيْبِهِ وَتَرْهِيْبِهِ.

يَقِينًا لَوْ كَانَ الْمُرْشِدُ عَلَى مَا وَصَفْنَا لَاسْتَوَلَى عَلَى الْقُلُوبِ، وَتَغَلَّبَ عَلَى الْأَرْوَاحِ، يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ، وَفِي ذَلِكَ كِفَايَةٌ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.



أَجْنَحَتْهَا رِضَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيَتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا؛ وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَه» (182).

آدابه المستحبة

وَيَحْسُنُ بِالْوَاعِظِ وَالْمُرْشِدِ أَنْ يَتَحَلَّى بِأُمُورٍ مِنْهَا:

❁ **الْوَرَعُ بِاتِّقَاءِ الشُّبُهَاتِ، وَالْبَعْدُ عَنْ مَوَاضِعِ الرِّيْبَةِ، وَمَسَالِكِ الشُّهْمَةِ،** فَإِنَّ ذَلِكَ أَزْرَأُ لَدِينِهِ مِمَّا يُشِينُهُ، وَأَسْلَمُ لِعِرْضِهِ مِنَ الطَّعْنِ فِيهِ، وَهَذَا أَعْوَنُ عَلَى الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَالْإِنْقِيَادِ لَهُ؛ لِأَنَّ حَالَ الْمُرْشِدِ يُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ أَكْثَرَ مِنْ كَلَامِهِ، وَهَكَذَا كَانَتْ طَرِيقَةُ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وَجَلِيَّةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْهُدَاةِ الْمُرْشِدِينَ، وَإِلَّا فَلَا خَيْرَ لِمَشِينٍ فِي دِينِهِ ⁽¹⁾، وَمَطْعُونٍ عَلَيْهِ فِي عِرْضِهِ؛ فَقَدْ رَأَى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ثَمَرَةَ مُلْقَاةٍ، فَقَالَ: «لَوْلَا أَخْشَى أَنَّهَا صَدَقَةٌ لَا كَلْتُهَا» ⁽²⁾، وَقَدِمَ عَلَى عُمَرَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً حَسَنَةَ الْوِزْنِ تَزِنُ لِي هَذَا الطَّيِّبَ، حَتَّى أَقْسِمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ عَاتِكَةُ: أَنَا جَيِّدَةُ الْوِزْنِ، فَأَنَا أَزِنُ لَكَ، قَالَ: لَا، فَقَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنِّي أَخْشَى أَنْ تَأْخِذِيهِ، فَتَجْعَلِيهِ هَكَذَا- وَأَدْخَلَ أَصَابِعَهُ فِي صُدْغَيْهِ- وَتَمَسَّحِي بِهِ فِي عُنُقِكَ، فَاصِيبُ فَضْلًا مِنْ

(1) الشَّيْنُ: الْعَيْبُ، أَي: لَمْعِبُ فِي دِينِهِ، مَقْدُوحٌ فِي وَرْعِهِ وَتَقْوَاهِ.

(2) أَخْرَجَهُ «الْبَخَارِيُّ» (2055)، وَ«مُسْلِمٌ» (1783) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.



المسلمين» (1).

وَعَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ: أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ شَاةٌ، فَأَكَلَتْ شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ عَلَفٍ
بَعْضُ الْأَمْرَاءِ، فَلَمْ يَشْرَبْ مِنْ لَبَنِهَا بَعْدَ ذَلِكَ (2).

وقيل لإبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: أَلَا تَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ؟ فقال: «لو كان
لي دَلْوٌ لَشَرِبْتُ» (3)؛ إشارةً إلى الدَّلْوِ مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ، فَهُوَ مِنَ الْمُشْتَبِهِ.

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَأَنْ أَرُدَّ دِرْهَمًا مِنْ شُبْهَةِ خَيْرٍ مِنْ أَنْ أَتَصَدَّقَ
بِمِائَةِ أَلْفٍ، وَمِائَةِ أَلْفٍ، وَمِائَةِ أَلْفٍ» (4).

وفي الأثر: «مَنْ وَقَفَ مَوْقِفَ تُهْمَةٍ فَلَا يَأْمَنْ مِنْ إِسَاءَةِ الظَّنِّ بِهِ» (5).

ولهذا لَمَّا مَرَّ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ صَفِيَّةٌ رَأَى رَجُلَانِ
فَأَسْرَعَا، فَقَالَ لَهَا: «عَلَى رِسْلِكُمَا؛ إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتِ حُيٍّ»؛ خَوْفًا عَلَيْهِمَا أَنْ يَظُنَّا
بِهِ شَيْئًا، فَيَهْلِكَا، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ - وَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا - . فقال: «إِنَّ
الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ، وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قَلْبِكُمَا

(1) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص 98)، وفي «الورع» (ص 46)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (2) / 703.

(2) ذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (408 / 7) عن علي بن الفضيل بن عياض رحمهما الله.

(3) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (ص 100).

(4) ذكره الذهبي في «الكبائر» (ص 119).

(5) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي (2 / 279)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1404 هـ.

شراً» (1).

ومنه يُعلمُ: أنه ينبغي للرجل إذا حَدَّثَ زَوْجَتَهُ أو مَحْرَمَهُ على الطريق أن يقول: هي زوجتي، أو محرمي؛ حتَّى لا يُتَّهَمَ.

وأَنَّهُ ينبغي للإنسان أن يَتَحَرَّرَ عن كُلِّ ما يُوهِمُ نِسْبَتَهُ إلى ما لا يليقُ، وهذا مُتَأَكِّدٌ في حقِّ العلماء، فلا يجوز أن يفعلوا ما يُوجبُ سوءَ الظَّنِّ بهم - وإن كان لهم فيه مَخْلَصٌ -؛ لأنَّ ذلك سببٌ لعدم الانتفاع بعلمهم.

قال الإمام **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «إِيَّاكَ وما يسبق إلى العقول إنكارُهُ، وإن كان عندكَ اغْتِدَارُهُ» (2).

ومنها: السَّكِينَةُ والوَقَارُ في كُلِّ أحواله، حتَّى في مِشْيَتِهِ وكلامِهِ، فذلك يُكْسِبُهُ الهَيْبَةَ والإجلالَ لدى الناس، وهو أدعى إلى الانتفاع به.

ومنها: مَحَبَّةُ الإِصْلَاحِ والتَّقَايِ في خِدْمَةِ الدينِ الحنيفِ بِنَشْرِ فضائلِهِ بين الأُمَّةِ، ومحاربةِ البِدْعِ والمُنْكَرَاتِ؛ حتَّى يَنْهَضَ بها إلى أَوْجِ القَلاَحِ، وَدَرَجِ السَّعَادَةِ؛ فَإِنَّ ذلك خُلُقُ الأنبياءِ والمرسلين، وَصِفَةُ قَادَةِ الأُمَمِ المجاهدينِ المُخْلِصِينَ.

أَمَّا الحُمُولُ المُتَوَاكِلُ فَإِنَّهُ تَكْمِلَةُ عَدَدٍ، وعِدِيمُ المنفعةِ.

(1) أخرجه «البخاري (3281)، ومسلم (2175) من حديث صفية بنت حيي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**.

(2) ذكره السَّرْحِيُّ في «المبسوط» (3/ 105) عن عليٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وأخرجه أبو علي القالي في «الأمالِي» (1/ 14) عن بعض الأعراب.



ومنها: التَّمَسُّكُ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والبعدُ عن البدعِ ظاهراً وباطناً، وفي السرِّ والعلانية؛ لِيَكُونَ عَلَى الْقَدَمِ الْمُحَمَّدِيَّ، وَتَسْهُلُ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى - بخلاف التَّهَافُوتِ فِي أَمْرِ السُّنَّةِ، أَوْ الْمِيلِ إِلَى الْبِدْعَةِ؛ فَإِنَّهُ يَرْفَعُ الثَّقَّةَ بِهِ، وَيَجْلِبُ عَلَيْهِ سَخَطُ النَّاسِ - كيفَ وَهُوَ يَنْصُرُ السُّنَّةَ، وَيُجَارِبُ الْبِدْعَةَ؟

ومنها: أَنْ لَا يَطْلُبُ عَلَى الْإِرْشَادِ أَجْراً، وَلَا يَقْصِدُ بِهِ جِزَاءً وَلَا شُكُوراً مِنْ أَحَدٍ، بَلْ يَعْمَلُ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، وَطَلَباً لِرِضَايَتِهِ، وَحُسْنَ مَثُوبَتِهِ، وَلِلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ الْعَظِيمَةِ؛ اقْتِدَاءً بِإِمَامِ الْمُرْشِدِينَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَلَا يَرَى لِنَفْسِهِ مِنَّةً عَلَى مَنْ يُرْشِدُهُمْ - وَإِنْ كَانَتْ الْمِنَّةُ لَا زِمَةَ عَلَيْهِمْ لُزُومَ الْأَطْوَاقِ لِلْأَعْنَاقِ؛ فَإِنَّهُ السَّبَبُ الْأَكْبَرُ لِهَدَايَتِهِمْ إِلَى الْحَقِّ - فَلَا يَطْلُبُ الْأَجْرَ إِلَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ **عَزَّجَلَّ:** ﴿وَيَقُومُوا لَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَأِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: 29].

فَإِنَّ الْمَالَ وَمَا فِي الدُّنْيَا خَادِمُ الْبَدَنِ، وَالْبَدَنُ مَطِيَّةُ النَّفْسِ، وَالْمَخْدُومُ الْعِلْمُ؛ إِذْ بِهِ شَرَفُ النَّفْسِ؛ فَمَنْ طَلَبَ بِالْعِلْمِ الْمَالَ كَانَ كَمَنْ مَسَحَ أَسْفَلَ مَدَاسِهِ ⁽¹⁾ بِوَجْهِهِ؛ لِيُنَظَّفَهُ، فَجَعَلَ الْمَخْدُومَ خَادِماً، وَالْخَادِمَ مَخْدُوماً، وَذَلِكَ هُوَ الْإِنْتِكَاسُ عَلَى أُمِّ الرَّأْسِ.

نعم، له كِفَايَتُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ الْحَاجَةِ شَأْنٌ كُلُّ مَنْ حَبَسَ

(1) المَدَاسُ: مَا يُلبَسُ فِي الرَّجُلِ؛ لِيُدَاسَ بِهِ الْأَرْضُ، أَي: تُوَطَّى بِهِ.



نَفْسُهُ عَلَى مَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ مِنْ مَصَالِحِهِمْ.

وَعَلَى الْجُمْلَةِ: يَنْبَغِي لِلْمُرْشِدِ أَنْ يَتَحَلَّى بِالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ الدِّينِيَّةِ حَتَّى يَكُونَ وَارِثًا نَبَوِيًّا، وَعَالِمًا رَبَّانِيًّا⁽¹⁾.



(1) أخرج الترمذي (2322)، وابن ماجه (4112)، واللفظ له، عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أنه قال: سمعتُ رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وهو يقول: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ؛ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ، وَمَا وَآلَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (3320). وأخرج أبو نُعَيْمٍ في «جَلِيَّةِ الْأَوْلِيَاءِ» (79 / 1)، والخطيب البغدادي في «الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّه» (1 / 182) عن عليِّ بن أبي طالب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه قال: «... النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَّجٌ رَعَا أَتْبَاعَ كُلِّ نَاعِقٍ؛ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ...».



آداب المرشد حال التأدية

وهي كثيرة أهمها:

أَنْ يَقْتَصِرَ بِالْمُسْتَرَشِدِينَ عَلَى قَدْرِ فُهُومِهِمْ، فَلَا يُلْقِي إِلَيْهِمْ مَا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، وَلَا تَسَعُهُ مَدَارِكُهُمْ؛ لِصُعُوبَتِهِ وَدِقَّتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُنْقَرُّهُمْ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي حِرْمَانِهِمْ مِنَ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْهُ، أَوْ يَخْلِطُ عَلَيْهِمْ عُقُولُهُمْ، وَيُوقِعُهُمْ فِي مَكَانِ الْحَيْرَةِ، وَذَلِكَ إِفْسَادٌ، لَا إِصْلَاحٌ؛ اقْتِدَاءً فِي ذَلِكَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالسَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ بَعْدِهِ.

فَعَنِ ابْنِ عَمَرَ مَرْفُوعًا: «أَمَرْنَا مَعَاشَرَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ» (1).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مَوْقُوفًا عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ: «مَا أَحَدٌ يُحَدِّثُ قَوْمًا مَا بَحْدِيثٍ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ فَتْنَةً عَلَى بَعْضِهِمْ» (2).

وَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ -: «إِنَّ هَهُنَا لَعُلُومًا جَمَّةً لَوْ وَجَدْتُ لَهَا حَمَلَةً؟» (3).

(1) رواه الديلمي في «مسنده» (1 / 398)، وذكره العجلوني «كشف الخفاء» (592)، وقال: «رواه

الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً.

وأخرج البخاري عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (127) أنه قال: «حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ؛ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟!».

(2) أخرجه مسلم في «مقدمة صحيحه» (1 / 11).

(3) انظر «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي (1 / 57).

وَصَدَقَ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ⁽¹⁾ - فَقُلُوبُ الْأَبْرَارِ قُبُورُ الْأَسْرَارِ.

ولذا قيل: كُلُّ لِكُلِّ عَبْدٍ بِمَعْيَارِ عَقْلِهِ، وَزِنٌ لَهُ بِمِيزَانِ فَهْمِهِ؛ حَتَّى تَسْلَمَ مِنْهُ، وَيَنْتَفِعَ بِكَ، وَإِلَّا وَقَعَ الْإِنْكَارُ لِتَفَاوُتِ الْمَعْيَارِ⁽²⁾.

مِنْ أَهْمِهَا أَيْضًا: أَنْ يَكْتَفِيَ بِذِكْرِ الْجَبِّيِّ اللَّائِقِ بِهِمْ، وَلَا يَذْكُرَنَّ وِرَاءَ هَذَا تَدْقِيقًا، وَهُوَ يَدَّخِرُهُ عَنْهُمْ؛ فَإِنْ ذَلِكَ يُفْتَرُّ رَغْبَتُهُمْ فِي الْجَبِّيِّ، وَيُشَوِّشُ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ، وَيُوْهِمُهُمُ الْبُخْلَ بِهِ عَنْهُمْ؛ إِذْ يَظُنُّ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُ أَهْلٌ لِكُلِّ عِلْمٍ دَقِيقٍ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَهُوَ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي كِمَالِ عَقْلِهِ، وَأَشَدُّهُمْ حِمَاةً وَأَضْعَفُهُمْ عَقْلًا هُوَ أَفْرَحُهُمْ بِكِمَالِ عَقْلِهِ.

(1) جَرَى الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي دُعَائِهِ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَذَا عَلَى مَا اشْتَهَرَ، وَإِلَّا فَقَدْ قَالَتِ اللِّجْنَةُ الدَّائِمَةُ: «تَخْصِصُ عَلِيٍّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالِدُّعَاءِ لَهُ بِ(كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ) - هُوَ مِنْ صَنِيعِ الرَّافِضَةِ الْغَالِيَةِ فِيهِ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ: الْبُعْدُ عَنْ مُشَابَهَتِهِمْ فِي ذَلِكَ، وَعَدَمُ تَخْصِصِ عَلِيٍّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَذَا الدُّعَاءِ دُونَ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَغَيْرُهُمْ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الصَّحَابَةُ أَجْمَعِينَ.

وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ هَذَا الدُّعَاءِ لِجَمِيعِ الصَّحَابَةِ فَلَا بَأْسَ بِهِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْجَارِيِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ التَّرَضِي عَنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَئِكَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ ذَلِكَ هُمْ فِي السُّفُلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ ذَلِكَ هُمْ فِي السُّفُلِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بَعْدَ ذَلِكَ هُمْ فِي السُّفُلِ﴾ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[التوبة: 100]﴾، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ - الشيخ عبد الله بن غديان - الشيخ صالح الفوزان - الشيخ بكر أبو زيد. «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (26 / 43).

(2) انظر «إحياء علوم الدين» (1 / 57).



وبهذا يُعلم أن مَنْ تَقَيَّدَ مِنَ الْعَوَامِ بِقَيْدِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ - بِحَسَبِ حَالِهِ - وَرَسَخَ فِي نَفْسِهِ اعْتِقَادُ الْعَقَائِدِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّلَفِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ، وَلَا تَأْوِيلٍ، وَحَسُنَتْ مَعَ ذَلِكَ سِيرَتُهُ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ عَقْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَوِّشَ عَلَيْهِ اعْتِقَادُهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُوجِبٌ لِحَرَمَانِهِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُحْلَى وَحِرْفَتُهُ الَّتِي هُوَ فِيهَا، وَطَرِيقَتُهُ الَّتِي هُوَ سَالِكُهَا، فَإِنَّهُ لَوْ ذُكِرَ لَهُ تَأْوِيلَاتُ الظَّوَاهِرِ انْحَلَّ عَنْهُ قَيْدُ الْعَوَامِ، وَلَمْ يَتَيَسَّرْ قَيْدُهُ بِقَيْدِ الْخَوَاصِّ، فَيَرْتَفِعَ عَنْهُ السَّدُّ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّرُورِ وَالْقَبَائِحِ، وَيَنْقَلِبُ شَيْطَانًا مَرِيدًا، يُهْلِكُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ.

بَلْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخَاضَ مَعَ الْعَوَامِ فِي حَقَائِقِ الْعُلُومِ الدَّقِيقَةِ، كَمَا يَقَعُ مِنْ عَوَامِّ الْمُتَصَوِّفَةِ؛ إِذْ يَسْمَعُونَ مِنْ مَشَايخِهِمْ بَعْضَ كَلِمَاتٍ دَقِيقَةٍ فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ، فَيَتَشَدَّقُونَ بِهَا، فَيُضِلُّونَ، وَيُضِلُّونَ، بَلْ يُخْتَصِرُ مَعَهُمْ عَلَى تَعْلِيمِ الْعِبَادَاتِ، وَتَعْلِيمِ الْأَمَانَةِ فِي الصَّنَاعَاتِ الَّتِي هُمْ بِصَدِّهَا، وَيُمَلِّأُ قُلُوبَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ بِالْحِجَّةِ وَالنَّارِ، وَبَلَايَا الدُّنْيَا، وَأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، وَصَرَّحَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَالْآثَارُ الصَّحِيحَةُ.

وَلَا يُحَرِّكُ عَلَيْهِمْ شُبْهَةً، فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَعَلَّقَتْ الشُّبْهَةُ بِقُلُوبِهِمْ، وَيَعْسُرُ عَلَيْهِمْ حَلُّهَا، فَيَقْعُونَ فِي الشَّقَاءِ وَالْهَلَاكِ بِسوءِ تَصَرُّفِهِ.

وبالجملة: لَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْتَحَ لِلْعَوَامِّ بَابُ الْبَحْثِ وَالْجِدَالِ؛ فَإِنَّهُ ضِيَاعٌ لَهُمْ، وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي شَيْءٍ.

ومنها: أَلَّا يَبَاسَ مِنَ الْإِصْلَاحِ، بَلْ يُثَابِرُ عَلَى عَمَلِهِ، فَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ تَأْثِيرُهُ الْيَوْمَ فَقَدْ يَظْهَرُ غَدًا؛ فَإِنَّ الْبَاطِلَ زَهُوقٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ يَوْمٍ يَتَغَلَّبُ فِيهِ الْحَقُّ عَلَى

الباطل؛ قال الإمام عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا قِيَامَ للباطل إِلَّا في غَفْلَةِ الْحَقِّ» (1)، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُثْنِ عَزْمَهُ عن الدَّعْوَةِ إلى الله تعالى عِنَادُ أَهْلِ الْغَيِّ والضَّلَالِ، ومُقابِلَتُهُمْ له بالإنكار، وإيقاعُ الأذى به وبأصحابه المُجاهدين، وفي نهاية الأمر كان الظَّفَرُ لَهُمْ، وَحَقَّقَ اللَّهُ لَهُمْ وَعْدَهُ؛ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) [محمد: 7]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٦٩) [العنكبوت: 69].

وجملة الأمر: أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِالْمُرْشِدِ أَنْ يَسْأَمَ إِذَا لَمْ يُؤَثَّرْ عَمَلُهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، بل عليه أَنْ يُكْرِّرَ الْعِظَةَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، كما يفعلُ الطَّبِيبُ النَّاصِحُ مع المَرِيضِ؛ يَصِفُ له الدَّوَاءَ على قَدَرِ الدَّاءِ، فإذا لَمْ يُفِذْ وَصَفَ له غَيْرُهُ، وهكذا، حتى يتمُّ البُرءُ، وَيَصِلَ به إلى ساحلِ السَّلَامَةِ.

فالقلوبُ القاسيةُ - بتكريرِ النَّصِيحَةِ والتَّذْكِيرِ بالعواقِبِ - تَلِينُ بعد صلابَتِها؛ قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥) [الذاريات: 55]، وباللهِ تعالى التَّوْفِيقُ.



(1) لم أقف على مَنْ أورد هذا الأثر عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلك ذكروا عنه أنه قال: «حِينَ سَكَتَ أَهْلُ الْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ تَوَهَّمْ أَهْلُ الْبَاطِلِ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ»، والمعنى صحيح.



الفصل الثالث: في مصادر فن الوعظ والإرشاد

مصادره على قسمين: أولية، وثانوية:

فالأولية: هي العلوم الدينية التي أساسها التوحيد، وينبوعها الصافي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

فعلم العقائد: مبناه آيات التوحيد، بل لا تزال آيات التوحيد قائمة إلى يوم القيامة، صالحة لخطاب جميع العالم على اختلاف العقول، والمشارب، والمِلل، والنحل، وهي - بحقيقتها وقوتها - داحضة لكل شبهة، رغم إلحاد الملحدين وزين المارقين.

وما على المرشد إذا تعرض للعقائد إلا أن يرجع إلى كتاب الله تعالى، ويستخرج للمسترشدين دُرر العقائد من بحر الفياض، ويكسوها بالشوب اللائق بها في مقام الخطاب، حتى يورد الآية أو الآيات دليلاً على قوله، فلهذا تأثير عظيم في نفوسهم، والعيان شاهد على ذلك.

وعلم التكاليف العملية: التي سرّها حفظ نظام العالم، وإصلاح حال المعاش والمعاد، والابتلاء والاختبار، فإن كان من العبد الامتثال فالمثوبة، وإن كان الإباء فالعقوبة، مرجعه آيات الأحكام والسنة الغراء.

وعلم الأخلاق: الذي غايته إصلاح النفوس، وإعداد الإنسان لأن يكون إنساناً حقيقياً، يصلح للخلافة عن الله في أرضه، هو معظم آيات الكتاب والسنة.

وقسم السمعيات كذلك مرجعها الكتاب والسنة.

إذا علمت هذا علمت أن بحرك الزاخر، ومنه لك الصافي الذي لا ينضب ماؤه، وأستاذك الذي لا ريب فيه هو الكتاب والسنة، ثم من بعدهما كل كتاب في العقائد، أو الأحكام، أو الأخلاق - لا يبعد بك عن طريق الكتاب والسنة.

وإن هذا المعنى لتجده كثيراً في كتب الفحول من العلماء العاملين، والهداة المرشدين الذين قنعوا في الدنيا، ورضوا بالقليل منها، وعلقوا قلوبهم بالله تعالى، وحصلوا العلم؛ ليكون لهم وسيلة إلى الله **عز وجل** بإصلاح العباد؛ كحجة الإسلام الإمام الغزالي، وأبي طالب المكي، والقفال الشاشي، والراغب الأصفهاني، وأضربهم من العلماء المتشرعين المتحققين رحمهم الله تعالى، وجزاهم أحسن الجزاء؛ فهؤلاء قد انفردوا بدعوة الخلق إلى الله تعالى، وألفوا المؤلفات الصالحة التي انتفع بها العالم كله، حتى أعداء الدين في أخلاقهم، ونظام حياتهم، وكل هذا نتيجة التحقيق والمحاذاة للكتاب والسنة والآداب النبوية شبراً بشبر، وذراعاً بذراع.

فهذه هي مصادير الوعظ الأولية التي منها يستمد؛ لهذا أرشدك إلى مزيد العناية بعلوم الكتاب والسنة، مستعيناً في ذلك بحفظ القرآن الكريم، وحفظ كثير من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة الوجيزة القريبة المعنى؛ لتكون أسرع



إلى التأثير عِنْدَ سَمَاعِهَا.

وناهيك بكتاب «رياض الصالحين» للإمام التَّوَوِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكتاب «التَّوَرَّيب والتَّوَرَّيب» للحافظ المُنْذَرِي؛ فَإِنِهما نِعَمَ العُدَّة والبِضَاعَةُ الثَّمِينَةُ للواعِظِ والمُرْشِدِ.

كَذلك أُرْشِدُكَ إِلَى الرُّجُوعِ كَثِيرًا إِلَى كُتُبِ الْمُتَحَقِّقِينَ؛ لَتَسْتَقِي مِنْهَا مَا يُنْعِشُ رُوحَكَ، وَيَمْلَأُ قَلْبَكَ ثِقَةً بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَتَجَانِي مَعَ أَغْرَاضِ الدِّينِ الحَنِيفِ الوَاضِحَةِ.

وَدَعُهُمْ فِي شَطَحَاتِهِمْ وَمَعْمِيَّاتِهِمْ، فَلَا حَاجَةَ لِلنَّاسِ بِهَا، بَلْ هِيَ رَمُوزٌ وَضَعُوهَا لِأَنفُسِهِمْ وَأَمْثَالِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 90].

القسم الثاني: المصادر الثانوية:

هي: العُلُومُ الوَضْعِيَّةُ؛ سواءً أَكَانَتْ آلَةً لِلْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ - وَمِنْهَا التَّارِيخُ والفَلَسَفَةُ - أَمْ لَا، كَالْعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهَا نِظَامُ الْحَيَاةِ مِنَ الرِّيَاضِيَّةِ، والطَّبِيعِيَّةِ، بَلِ الصَّنَائِعُ والفُنُونُ لِقُرْبِهَا مِنْ فَهْمِ السَّامِعِينَ، تُفِيدُ الخَطِيبَ تَشْبِيهَاتٍ وَمُقَابَلَاتٍ وَأَمْثَالًا يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى التَّعَالِيمِ الدِّينِيَّةِ، والمَغَازِي الأَدْبِيَّةِ، يُرْشِدُكَ إِلَى هَذَا إِمْعَانُ التَّظَرِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

وَمِمَّا تَقَدَّمَ تَعْلَمُ: أَنَّ مَهْمَةَ الوَاعِظِ مِنْ أَكْبَرِ المِهْمَاتِ، وَوُضُفِيَّتُهُ مِنْ

أعظم الوظائف، وموقف المرشد في الحياة موقف القواد والعظماء والمجاهدين المخلصين.

وكما أنه لا بُدَّ للقائد من إحكام العُدَّة، وبعْد النَّظَر، وأصالة الرَّأي - كذلك لا بُدَّ للواعظ الديني أن يكون مُتَّصِلًا مِنَ العلوم الشرعيَّة والأخلاق الدينيَّة وعلوم الاجتماع، كما أنه لا بُدَّ أن يكون مُحِيطًا تَمَامَ الإحاطة بما يريد أن يبيِّنه للناس، مُلِمًّا بجميع أطرافه، مُسْتَحْضِرًا لما جاء فيه من الآيات القرآنية وصحيح الأحاديث النبوية وآثار السلف الصالح من الصحابة التابعين، والعلماء العاملين؛ ليستطيع أن يُوفِّي الموضوعَ حقَّه، فتعظَّم فائدته، ويأمن من الخَلْطِ والزَّلَلِ، وَبَعْدَ تَمَامِ الاستحضارِ يُلقِيه على السَّامِعِينَ مع التَّأَنِّي والسَّكِينَةِ، وإجابة السَّائِلِ عن كل ما يحتاج إليه، وتفهميه - على قَدَرِ اسْتِعْدَادِهِ - بِاللُّطْفِ والبَشَاشَةِ والحِلْمِ.

وكلُّ هذا لا يُغْنِي عَنْهُ مِنَ الوَعْظِ والإرشادِ شَيْئًا، إلا إذا كان ماهرًا في طُرُقِ الإرشادِ، عَالِمًا بِكَيْفِيَّةِ التَّأْثِيرِ على التُّفُوسِ، واستمالة القُلُوبِ - وهي المهمة التي نحن بصددِهَا، وَسَيَأْتِيكَ مِنْ وسائلِ التَّأْثِيرِ مَا فِيهِ الكَفَايَةُ.





الفصل الرابع: في أنواعه

وهي ثلاثة: **تَعْلِيمٌ، وَتَأْدِيبٌ، وَتَهْذِيبٌ.**

فالتَّعْلِيمُ يكونُ ببيانِ العقائدِ والتوحيدِ، مُراعَى فيه ما يُناسبُ كُلَّ طبقةٍ، وبيانِ الأحكامِ الشرعيَّةِ الخمسةِ من (الوَاجِبِ، والحَرَامِ، والمَسْنُونِ، والمَكْرُوهِ، والمُبَاحِ)، مَقْرُونًا كل واحد منها بحكمةِ التَّشْرِيعِ؛ فإن ذلك يَسْتَرَعِي الأَسْمَاعَ، ويأخذُ بِمَجَامِعِ القُلُوبِ.

والتَّأْدِيبُ يكونُ بالترغيبِ والترهيبِ، بأنواعِ البشارةِ، والنَّذارةِ، والغايةِ مِنْهُ حَمْلُ العاصي على التَّوْبَةِ والإنابةِ إلى الله تعالى، والطَّاعِ على الاستمرارِ في الطَّاعَةِ والاستقامةِ.

والتَّهْذِيبُ يكونُ بتحديدِ الأخلاقِ الكريمةِ، وبيانِ مَزَايَاها في المجتمعِ الإنساني، والحثُّ على التَّخَلُّقِ بها، وتحديدِ الأخلاقِ الذميمةِ، وشرحِ مَضَارِّها، والتَّنْفِيرِ مِنَ الاتِّصَافِ بها، مُسْتَشْهِدًا في كل نوعٍ من هذه الأنواعِ بما جاء فيه مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ، وآثارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابِعِينَ وَمَنْ بعدهم مِنَ الأئمةِ، وأَحْوالِهِمْ في ذلك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** أَجْمَعِينَ.

فإنَّ لهذا شأنًا عظيمًا لا يُسْتَهَانُ به في الوصولِ إلى الغايةِ المقصودةِ، متى

صَدَرَ مِنْ قَلْبٍ سَلِيمٍ نَقِيٍّ طَاهِرٍ مِنَ الْأَدْنَسِ، فَإِنَّ الْمَوْعِظَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ، وَإِنْ خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تَتَجَاوِزِ الْآذَانَ، وَقَدْ سُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «مَا بَالُنَا نَعُظُ النَّاسَ فَيُبْكِيهِمْ، وَأَنْتَ تَعُظُ النَّاسَ فَتَبْكِي، فَقَالَ: لَيْسَتْ النَّائِحَةُ كَالثَّكَلِي» (1)، وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.



(1) وأخرجه أبو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (5 / 110)، وَالدِّينَوْرِيُّ فِي «الْمَجَالِسَةِ وَجَوَاهِرِ الْعِلْمِ» (3 / 110) عَنْ عَمْرِ بْنِ دَرٍّ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتَا! مَا لَكَ إِذَا تَكَلَّمْتَ أَبْكَيْتَ النَّاسَ، وَإِذَا تَكَلَّمَ غَيْرُكَ لَمْ يُبْكِهِمْ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ! لَيْسَتْ النَّائِحَةُ الثَّكَلِي مِثْلَ النَّائِحَةِ الْمُسْتَأْجَرَةِ.



الفصل الخامس: في إنشائه

يَنْبَغِي فِيهِ مَرَاعَاةُ الْمُرْشِدِ لاسْتِعْدَادِ السَّامِعِينَ، فَيَتَنَزَّلُ فِي الْعِبَارَةِ مَعَ الْعَامَّةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ، مُتَجَنِّبًا الْأَلْفَافَ اللَّغَوِيَّةَ الْبَعِيدَةَ عَنْ مَدَارِكِهِمْ، وَيَتَوَسَّطُ مَعَ الْأَوْسَاطِ، وَيَتَأَنَّقُ مَعَ الْخَاصَّةِ، فَيَكُونُ مَعَ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ حَكِيمًا يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا.

وَفِي كُلِّ حَالٍ يَتَجَانَفِي فِي كَلَامِهِ عَنْ كُلِّ زُخْرَفٍ بَاطِلٍ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَهُ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى الرُّوْنَقِ الظَّاهِرِ وَالْبَهْرَجَةِ الْكَاذِبَةِ، بَلْ عَلَى اخْتِيَارِ الْمَعَانِي التَّفَيِّسَةِ وَصَوِّغَهَا فِي قَالِبٍ لَطِيفٍ، وَإِلْبَاسِهَا ثَوْبًا شَفَافًا حَسَنًا، مُسْتَعِينًا فِي إِبْلَاغِهَا عَلَى أَذْهَانِ السَّامِعِينَ، وَإِنْفَازِهَا فِي قُلُوبِهِمْ - بِإِيرَادِ الشَّوَاهِدِ عَلَيْهَا مِنْ: الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، وَآثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَالْحِكْمِ الثَّرِيَّةِ وَالشَّعْرِيَّةِ، وَالْمَلَحِ التَّارِيخِيَّةِ، وَالْفُكَاهَاتِ الْأَدَبِيَّةِ، وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ السَّهْلَةِ، وَالْمُشَاهَدَاتِ الْحِسِّيَّةِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ.

وَبِذَلِكَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَرْعِيَ الْأَسْمَاعَ، وَيَمْتَلِكَ الْقُلُوبَ؛ حَتَّى يَقُودَهَا إِلَى مُبَاشَرَةِ الْعَمَلِ، وَيَرُدَّ النُّفُوسَ الشَّرِيرَةَ عَنِ الْغِيِّ إِلَى الرُّشْدِ، وَبِذَلِكَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسْحَرَ الْأَلْبَابَ، حَتَّى يَنْسَى السَّامِعُ مَنْ يَقُولُ، وَيُفَكِّرُ فِيمَا يَقُولُ، وَيُصْلِحُ نَفْسَهُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالسَّيرَةِ الْمَرْضِيَّةِ.

بهذا يسهل عليه أن يقتلع من النفوس جذور الشرور والفساد، ويغرس فيها حب الخير والصلاح وروح الألفة والاتحاد، وبهذا يصلح حال الناس، وتنال السعادة في العاجل والآجل، وبالله تعالى التوفيق.





الفصل السادس: في رعاية مقتضى الحال

وَيَنْبَغِي لِلوَاعِظِ أَنْ يُلَاحِظَ مَا يَقْتَضِيهِ أَحْوَالُ الْأَشْخَاصِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ وَالْعُمُومِيَّةِ، وَيُرَاعِي الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ؛ مِنْ إِقَاءِ دَرْسٍ، أَوْ خُطَابَةٍ، أَوْ إِجَازٍ، أَوْ إِطْنَابٍ فِيمَا يَقُولُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا، وَلِكُلِّ نَفْسٍ إِعْرَاضًا وَإِقْبَالَ.

وَقَدْ يَكُونُ الدَّرْسُ أَنْفَعَ لِلْقَوْمِ؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْأَخْذِ وَالرَّدِّ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَا عَسَاهُ أَنْ يَكُونَ غَامِضًا عَلَى السَّائِلِ، فَلَا يُعَدَّلُ عَنْهُ إِلَى الْخُطَابَةِ، وَقَدْ تَفَضَّلَ الْخُطْبَةُ الْوَاحِدَةُ أَلْفَ دَرْسٍ فِي بَعْضِ الْمَجْتَمَعَاتِ وَالْأَوْسَاطِ، فَلَا يُعَدَّلُ عَنْهَا إِلَى الدَّرْسِ.

كَذَلِكَ الْإِجَازُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْخَوَاصِّ وَأُولِي الْأَلْبَابِ الرَّاجِحَةِ وَالْقُلُوبِ الْحَاضِرَةِ، وَأَمَّا الْإِطْنَابُ فَهُوَ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَيَكُونُ مَعَ الْغَيْبِ وَالذِّكْرِ.

وَلِيَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي ذَلِكَ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ، وَمُرْشَدًا يَهْتَدِي بِهِدِيهِ؛ أَلَّا تَرَى أَنَّهُ إِذَا خَاطَبَ الْعَرَبَ أَخْرَجَ الْكَلَامَ مَخْرَجَ الْوَحْيِ وَالْإِشَارَةِ؛ لِشِدَّةِ ذِكَايِهِمْ، وَقُوَّةِ فِطْنَتِهِمْ، وَرَجَاحَةِ عُقُولِهِمْ، وَإِذَا خَاطَبَ غَيْرَهُمْ كَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَتَّى عَنْهُمْ جَعَلَ الْكَلَامَ مُطَوَّلًا مَبْسُوطًا، مُعَادًا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ لِبُعْدِ فَهْمِهِمْ،

وتأخّر معرفتهم، واحتياجهم إلى الإكثار والإطالة⁽¹⁾.

فَمِمَّا خَاطَبَ بِهِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي مَقَامِ الْاِسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرْتَهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73]، وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91]، وغير خافٍ عَلَيْكَ مَا جَاءَ فِيهِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وعلى الجملة: فَإِنَّ لِلْإِيجَازِ مَوْضِعًا، كَمَا أَنَّ لِلْإِطْنَابِ مَوْضِعًا، فَاسْتَعْمَالَ أَحَدِهِمَا مَوْضِعَ الْآخَرِ خَطَأٌ وَاضِحٌ، وَعَيٌّ فَاضِحٌ، كَمَا رُوي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «مَتَى كَانَ الْإِيجَازُ أُبْلَغَ كَانَ الْإِكْثَارُ عِيًّا»⁽²⁾.

وقال الخليل⁽³⁾: «يُخْتَصَرُ الْكَلَامُ؛ لِيُحْفَظَ، وَيُبَسَّطَ لِيُفْهَمَ»⁽⁴⁾.

وكانت العربُ تُطِيلُ لِيُسْمَعَ مِنْهَا، وَتُوجِزُ لِيُحْفَظَ عَنْهَا.

(1) انظر «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» للقلقشندي (2/ 363).

(2) أخرجه أبو علي القالي في «الأمالي» (1/ 222).

(3) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم القراهيدي البصري؛ صاحب العربية والعروض. قال السيرافي: «كان الغاية في استخراج مسائل النحو، وتصحيح القياس فيه، وهو أول من استخرج العروض، وحصر أشعار العرب بها، وعمل أول كتاب «العين» المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة، وكان من الزُّهاد في الدنيا، والمنقطعين إلى العلم». «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي (1/ 557).

(4) انظر «الفروق اللغوية»، لأبي هلال العسكري (ص 40).



فالإطنابُ إذا لم يَكُنْ منه بُدٌّ فهو إيجازٌ، وهو في الوعظِ - خاصةً -
محمودٌ، كما أنَّ الإيجازَ في الإفهامِ ممدوحٌ.

والمرشدُ الحازمُ النَّابِهُ هو الذي يَتَفَرَّسُ في حالِ القومِ، وَيَتَحَيَّنُ الفُرْصَ
الملائمةَ لِلْقِيَامِ بِمَهْمَّتِهِ، وبالله تَعَالَى التَّوْفِيقُ.





obeikandl.com

الباب الثاني : في الخطابة

وفيه عدة فصول

obeikandl.com



الفصل الأول: في تعريف الخطابة، وفوائدها

الخطابة في اللغة: كالخطاب، وهي الكلام النفساني الموجّه به نحو الغير للإفهام⁽¹⁾.

وفي اصطلاح الحكماء: هي صناعة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ مقولة من المقولات⁽²⁾.

معنى كونها صناعة: أنّها مجموع قوانين متعلّقة بكيفية العمل، فترشد الإنسان على طريق الإقناع، وتتولّى ترغيب الجمهور، وحملهم على ما يراود منهم.

ومعنى تكلّفها الإقناع الممكن: أنّها تتحرّى في كلّ مسألة ما يفيد الإقناع، وإن لم تتمكّن دائماً من إدراك غايتها لمانع قام، فشأنها كشأن باقي الصناعات التي تُعدّ النفس لعمل خاصّ، بمقتضى قوانين محدودة، وإن لم تبلغ تلك الصناعات غايتها؛ كالطّب الذي غايته الشفاء، وإن لم يوصل بالفعل لأسباب.

(1) انظر «الإبهاج في شرح المنهاج» (منهاج الوصول إلى علم الأصول) للقاضي البيضاوي (1/44)، و«كشف اصطلاحات الفنون» للتهانوي (ص 5).

(2) انظر «تلخيص الخطابة»، لابن رشد الحفيد (ص 28)، الطبعة 1967م نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

والفرق بينهما وبين باقي الصناعات: أنَّها تَخَوُّصُ في كل شيءٍ مِنَ المَقُولَاتِ العشرة، مِنَ الجَوَاهِرِ، والأَعْرَاضِ، بخلافِ الصَّنَاعَاتِ؛ فَإِنَّ موضوعَهَا خَاصٌّ. ومن تعريفِها يَظهر لك الفرقُ بينها وبين الفَصَاحَةِ والبَلَاغَةِ؛ فإنَّهما يَمَكِّنَانِ الإنسانَ مِنَ تَرْكِيبِ المُفْرَدَاتِ، وَحُسْنِ التَّعْبِيرِ؛ لِيُبَرِّزَ مَا يُكِنُّهُ الضَّمِيرُ مِنَ المعاني والعواطفِ.

أَمَّا الخطابةُ فتزِيدُ على تلكِ المَلَكَةِ مَلَكَةً أُخْرَى، بَأَن تُلَقِّنَهُ طُرُقَ الإِقْنَاعِ، وَتُمَكِّنُهُ مِنَ اسْتِمَالَةِ القُلُوبِ، وَتَوَجِّهَهَا إِلَى غَرَضٍ مِنَ الأغراضِ الكلامِيَّةِ، التي لا تدخلُ تحت حصرٍ مِنْ أنواعِ التَّرْغِيبِ والتَّرهيبِ، فلا بُدَّ لَهَا مِنْ قَوَانِينٍ تُدْرِكُ بها هذه الغايةَ.

والخطابةُ - كما قال ابنُ رُشد، نقلاً عن أرسطو-: لَيْسَ لها موضوعٌ خَاصٌّ تبحثُ عنه بِمَعزِلٍ عن غيره⁽¹⁾، بل تدخلُ في كُلِّ العُلُومِ والفُنُونِ، ولا شيءَ- حَقِيرًا كانَ أو جَلِيلًا، مَعْقُولًا أو محسوسًا- إلا ويدخلُ تحت حُكْمِهَا، ويخضعُ لِسُلْطَانِهَا؛ وَمِنْ هُنَا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الخَطِيبُ والمرشدُ مُلِمًّا بِكُلِّ العلومِ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكُونَ خَطِيبًا عَامًّا، بل يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَ المَزِيدَ مِنَ العلومِ والمَدَارِكِ كُلِّ يَوْمٍ.

وغايتها: التَّمَسُّسُ إِقْنَاعِ السَّامِعِ فِي أيِّ أَمْرٍ كَانَ.

هذا في مَوْضُوعِ الخُطَابَةِ وَغَايَتِهَا بِحَسَبِ المعنى الأصليِّ، أَمَّا بِحَسَبِ مَعْنَاهَا

(1) انظر المرجع السابق (ص 2، 3).



الثَّانَوِيّ - مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَجْمُوعُ قَوَانِينِ تُسَاعِدُ التَّائِظَ عَلَى اكْتِسَابِ قُوَّةِ الْكَلَامِ، وَحُسْنِ الْخُطَابِ - **فَمَوْضُوعُهَا:** دَرْسُ الْأَسَالِيْبِ الْجَدِيْرَةِ بِالْإِقْنَاعِ، وَغَايَتُهَا: الْحَصُولُ عَلَى الْقُوَّةِ الَّتِي تُمَكِّنُ مِنْهُ.

والإقناع: حَمْلُ السَّامِعِ عَلَى التَّسْلِيمِ بِصِحَّةِ الْمَقَالِ، أَوْ الْعَمَلِ، بِمَوْجِبِ أَمْرٍ أَوْ تَرْكِه.

وهو نوعان: منطقيّ، وخطابيّ.

فالمنطقيّ غايته: إِذْعَانُ الْعَقْلِ لنتيجة مَبْنِيَّةٍ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ ثَبَتَتْ لَهُ صِحَّتُهَا؛ كَمُبَاحِثِ التَّوْحِيدِ.

أَمَّا الْخُطَابِيُّ فَإِنَّهُ يَتَوَخَّى إِذْعَانَ الْعَقْلِ لِصِحَّةِ الْقَوْلِ بِأَقْبَسَةِ مُرْكَبَةٍ مَنِ الْمَشْهُورَاتِ أَوْ الْمَظْنُونَاتِ، مَعَ تَحْرِيكِ عَوَاطِفِ الْقَلْبِ إِعْجَابًا بِهِ، وَاسْتِمَالَةَ الْإِرَادَةِ إِلَيْهِ حُبًّا فِيهِ؛ كَتَعْرِيفِهِمُ لِلْعِلْمِ، وَبَيَانِ فَوَائِدِهِ، وَحَثِّ السَّامِعِينَ عَلَى اكْتِسَابِهِ.

وَفَضْلُهَا جَسِيمٌ؛ فَإِنَّهَا تُكَمِّلُ الْإِنْسَانَ، وَتَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، حَتَّى يَكُونَ نَافِعًا لِنَفْسِهِ وَلِلنَّاسِ؛ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي «الشِّفَاءِ»: إِنَّ الْخُطِيبَ يُرْشِدُ السَّامِعَ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَقِيمُ لَهُ مَرَاسِيمَ لِتَقْوِيمِ عَيْشِهِ، وَالْإِسْتِعْدَادِ إِلَى عِمَادِهِ» (1).

(1) ترجم الإمام الذهبي **رحمة الله** لابن سينا في «سير أعلام النبلاء» (13 / 201)، فقال: «...، وله كتاب «الشفاء» وغيره، وأشياء لا تُحتمل، وقد كَفَّرَ الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال»، وَكَفَّرَ الفارابي».

وَكَفَّاهَا شَرَفًا أَنْ وَاضِعَ مِنْهَا جَهَا قَادَةُ الْأُمَمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّاسَةِ وَالْعُلَمَاءِ الْمُرْشِدِينَ.

وقوائدها جمّة: تُعَرِّفُ صَاحِبَهَا كَيْفَ يَمْتَلِكُ الْقُلُوبَ، وَيَسْتَمِيلُ التُّفُوسَ، وَيُحَرِّكُ الْعَوَاطِفَ، وَيُهَيِّجُ الْخَوَاطِرَ نَحْوَ مَا يَرِيدُ، يَنْبِرَاسَهَا تَسْتَضِيءُ مَوَارِدُ الدَّلِيلِ، وَتَتَضَخُّ مَصَادِرُ الْبُرْهَانِ؛ لِإِنْفَازِ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلٍ، وَإِدْرَاكِ كُلِّ غَايَةٍ نَافِعَةٍ.

وَقَوَانِينُهَا تُرْشِدُ الطَّالِبَ إِلَى مَوَاضِعِ الضَّعْفِ، وَشُعَبِ السَّهْوِ وَالزَّلَلِ، فَيَقْوَى عَلَى دَحْضِ أَقَاوِيلِ الْمَنَاظِرِ، وَتَزْيِيفِ سَفْسَطَةِ الْمُكَابِرِ.

وأصلها: النَّظَرُ، وَالِاخْتِبَارُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَطَرَ بَعْضَ بَنِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَلَكََةِ الْبَلَاغَةِ، فَاقْتَدَرُوا بِهَا عَلَى حَمْلِ غَيْرِهِمْ عَلَى مَا أَرَادُوا مِنْهُمْ؛ فَلَحَظَ الْأَمْرَ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَمْ يَنَالُوا تِلْكَ الْمَلَكََةَ، وَجَعَلُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ الَّتِي أَدَّتْ بِأُولَئِكَ الْخُطَبَاءِ بِمَقْتَضَى الْغَرِيزَةِ إِلَى إِنْارَةِ الْأَذْهَانِ، وَاسْتِخْدَامِ الْقُلُوبِ، فَدَوَّنُوا نَتِيجَةَ أَجْحَاثِهِمْ، وَوَسَّعُوهَا حَتَّى جَاءَ أَرِسْطُو، فَصَمَّ شَارِدَ هَذَا الْفَنِّ وَجَمَعَ شَتَاتَهُ فِي كِتَابٍ ضَمَّنَهُ قَوَاعِدَ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، وَسَمَّاهُ «الْخُطَابَةُ» وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي عَرَّبَهُ بِشَرُّ بْنُ مَتَّى، وَلَخَّصَهُ ابْنُ رُشْدٍ، وَأَخَذَ عَنْهُ فِلَاسْفَةُ الْعَرَبِ؛

وقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمة الله** في «مجموع الفتاوى» (9/ 133، 134): «وابنُ سينا تَكَلَّمَ فِي أَشْيَاءَ مِنَ الْإِلَهِيَّاتِ وَالتَّبَوَاتِ وَالْمَعَادِ وَالشَّرَائِعِ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهَا سَلَفُهُ، وَلَا وَصَلَتْ إِلَيْهَا عَقُولُهُمْ، وَلَا بَلَّغَتْهَا عُلُومُهُمْ؛ فَإِنَّهُ اسْتَفَادَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ كَانَ إِثْمًا أَخَذَ عَنِ الْمَلَا حِدَةِ الْمُتَسَبِّبِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ كَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ. وَكَانَ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعُهُمْ مَعْرُوفِينَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِلْحَادِ، وَأَحْسَنَ مَا يُظْهِرُونَ دِينَ الرَّفْضِ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ الْمَحْضَ».



كابن سينا، والفارابي، وغيرهم.

ومن هذا تعلم: أَنَّ الخطابة مخلوقة مع الإنسان، لا تخص أمة ولا جيلاً، وأنَّ البحث عنها كان قبل الجاهليّة والإسلام، وأنَّ تأثير البلاغة على النفوس لا يخصُّ لغةً بعينها، وأنَّ إعجاز القرآن لم يكن من جهة التأثير فقط، بل لنفوس جواهر اللّغة العربيّة، وكيفيّة وضعها، وترصيعها، وتنسيقها- دخل في الإعجاز أيضاً، وبذلك تختلف بلاغة اللّغة العربيّة عنها في باقي اللغات.

وطرق تحصيلها أربعة:

الأول: الفطرة، أو قوى النفس الغريزيّة، وهذا هو الأساس.

الثاني: معرفة الأصول التي وضعها الحكماء.

الثالث: مطالعة أساليب البلغاء، ومصايع الخطباء.

الرابع: الارتياض والاختداء.

والارتياض هو: التدرب بطرق الخطابة.

فإنَّ ملكتها تقوى وترسخ بالإكثار من التمرن والممارسة.

قال خالد بن صفوان: «إنما اللسان عضو إن مرّته مرّن؛ فهو كاليد تُحشّنها بالممارسة، وكالبدن تُقوّية برفع الحجر، والرجل إذا عودت المشي مشّت»⁽¹⁾.

(1) انظر «العقد الفريد» (2/ 129).

وللارتياض وجوه:

منها: أن تتوسّع في شرح بعض المعاني؛ فتبيّنه بأوجه شتى، وتزيّنه بوسائل التأثير.

ومنها: أن تجتهد في وضع بعض مواضع علمية وجيزة؛ فإن المتروّض ينجح على قدر ما يصرف من الهمة والثبات في ذلك.

والاحتذاء: أن يعمد الخطيب إلى أساليب المتقدمين، فيقتفي أثرها، وينسج على منوالها، فلا غنى له عن الاقتداء بالأولين، والاقتباس من السابقين فيما اخترعوه من معانيهم، وسلكوهم من طرقهم، والتقليد عريق في الإنسان.

وَتَشَبَّهُوا إِن لَّمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالرَّجَالِ فَلَاحٌ ⁽¹⁾



(1) قائله: شهاب الدين السهروردي ت (578هـ)، انظر «معجم الأدباء» (2/ 500).



الفصل الثاني: الخطابة في الجاهلية، وأسباب انتشارها، ومواقعها

قد عرفت أنَّ الخطابة قديمة العهد، وأنها مخلوقة مع الإنسان، لكنها اشتهرت في الجاهلية؛ لما كان عليه العرب من الثُفْرَةِ، والحمية، وشن الغارات، والمدافعة عن النفس والمال والعرض، والمباهاة بقوة العصبية، وشرف الخصال؛ من الكرم، والتجدة، والحسب، والنسب.

وللقول في ذلك أثر لا يقل عن الصَّول (1).

فكانت الخطابة لهم ضرورة، وفيهم فطرية؛ لراحة اللسان، وقوة البيان، ولكن لم تصل إلينا أحوال خطبائهم الأوائل عند التأدية، ولا شيء من خطبهم كما كان ذلك في الشعر؛ لعنايتهم بروايته دون الخطابة؛ لصعوبة حفظ التثر.

ولم تُعن الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم، إلا بعد أن وصلت الخطابة إلى منزلة أسمى من منزلة الشعر؛ لا ابتداله بتعاطي العامة والسفهاء له، واتخاذهم له وسيلة للعيش والظعن على الحرم؛ فعلاً بذلك شأن الخطابة، واشتهر بها الأشراف، وكان لكل قبيلة خطيب، كما كان لكل قبيلة شاعر.

(1) الصول: الإغارة على الأعداء.

وأكثر استعمالها عندهم في مواضع التحريض على القتال، والتحكيم في الخصومات، وتحمل الديات، وإصلاح ذات البين، وفي المفاخرات، والمنافرات، والوصايا، والوفادة على الملوك والأمراء.

وحيث كان القصد من الخطابة اكتساب القلوب واستمالة النفوس - كما هو الشأن في الشعر - كان الاعتماد فيها على الأدلة الخطابية المحركة للعواطف، المؤثرة للنفوس؛ ممثلة في صورة العبارات الرائعة، وكثرت فيها الفواصل والأسجاع؛ لحسن وقعها، إلى ما فيها من استرواح الخطيب، وسهولة تدارك المعاني.

وخطب العرب منها الطوال، ومنها القصار، ولكل مقام يليق به، وكانوا إلى القصار أميل؛ لانطباعهم على الإيجاز، ولأنها إلى الحفظ أسرع، وفي البقاع أشيع، وكانت لهم عناية تامة بسرد كثير من الحكم والنصائح والأمثال، خصوصاً في القصار منها.

أما صفة الخطيب عند التأدية: فكان من عاداتهم في غير خطب التزويج أن يخطب قائماً، أو على مكان مرتفع، أو ظهر راحلته؛ لإبعاد مدى صوته، وللتأثير بشخصه، وإظهار ملامح وجهه، وحركات جوارحه، معتصباً بعمامة، ومُعتمداً على مِخْصَرَةٍ⁽¹⁾، أو عصا، أو قناة⁽²⁾، أو قويس، ورُبَّما أشار بإحداها أو

(1) المِخْصَرَة: ما يَحْتَصِرُه الإنسان بيده فيمسكه من عصا، أو عُكَّازة، أو مَقْرَعَة، أو قَضِيب، وقد يَتَكَيُّ عليه. «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مادة (خصر).

(2) القناة: الرُّمَح.



يَدِهِ.

وقد كانوا يَسْتَحْسِنُونَ من الخطيب أن يكون رابط الجأش، قليل اللّحظ، جهير الصوت، مُتَخَيِّرَ اللَّفْظِ، قويَّ الحُجَّةِ، نظيف الثياب، كريم الأصل، صادق اللهجة، أسرع النَّاسِ عَمَلًا بما يقول، ولا يخفى أن مُعظمها صفات ليست جوهرية، ولا تفيّد في مقصود الخطابة شيئاً يُذكر، بل هي أمور ثانويّة، ولكن قد عَرَفْتَ أَنَّهُ لم يصل إلينا من صفاتِ الخُطباءِ في الجاهليّة سواها.

ومن أشهر خطبائهم: كَعْبُ بْنُ لُؤَيٍّ، وذو الإصْبَعِ العَدَوَانِي، وَقَيْسُ بْنُ خَارِجَةَ بْنِ سِنَانٍ، وَخُوَيْلِدُ بْنُ عَمْرِو العَطَفَانِي، وَقَيْسُ بْنُ سَاعِدَةَ الإيَادِي، وَأَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي؛ رَئِيسُ وَفْدِ التُّعْمَانِ عَلَى كِسْرَى.

وقد أجمع عُلَمَاءُ الأدبِ على مَتَانَةِ قَيْسٍ وَأَكْثَمَ، وَأَنَّهما أَرَعَى لِلْحَقِّ، وَأَبْرَّ بِالْمَكَارِمِ خُصُوصًا، وفي خُطْبَهما كلامٌ عن رسولِ الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وأحوال الآخرة، وإن كانا في بابِ الأدبِ أَدخَلَ مِنْهُمَا في بابِ الدِّينِ - إلا أَنَّ الخطيبَ الدينيَّ يَلْزَمُ أن يكونَ أديبًا قبلَ كُلِّ شيءٍ.



الفصل الثالث: الخطابة في صدر الإسلام وما يليه، وصفة الخطيب في عهد الإسلام

لَمَّا كَانَ مَبْدَأُ كُلِّ انْقِلَابٍ عَظِيمٍ فِي آيَةِ أُمَّةٍ؛ إِمَّا دَعْوَةً دِينِيَّةً، أَوْ سِيَاسِيَّةً، وَكَانَتْ تِلْكَ الدَّعْوَةُ تَسْتَدْعِي أَلْسِنَةً قَوَّالَةً مِنْ أَهْلِهَا؛ لِتَأْيِيدِهَا وَنَشْرِهَا، وَالْأَسِنَّةَ مِنْ خُصُومِهَا؛ لِإِدْحَاضِهَا وَالصَّدَّ عَنْهَا، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمُخَاطَبَةِ الْجَمَاعَاتِ وَأَصْحَابِ التَّجَدَّاتِ فِي الْمَحَافِلِ، وَالْمُنْتَدِيَّاتِ، وَالْحَجِّ، وَالْمَوَاسِمِ، وَالْأَسْوَاقِ، وَمَوَاطِنِ الزَّحْفِ، وَمَقَدِّمِ الْوُفُودِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ - كَانَ ظُهُورُ الْإِسْلَامِ بِالْأَمْرِ الْجَلِيلِ، وَالشَّأْنِ الْخَطِيرِ، وَالِدَّعْوَةِ الْعُظْمَى الَّتِي لَمْ يُعْهَدْ لَهَا فِي الْعَالَمِ مِثِيلٌ مِنْ أَهَمِّ الْحَوَادِثِ الَّتِي أَطْلَقَتْ أَلْسِنَةَ مِنْ عِقَالِهَا، وَأَثَارَتْ الْخُطَابَةَ مِنْ مَكْمَنِهَا، وَأَغْرَتْ الْعُقُولَ بِأَحْكَامِهَا، وَالتَّفَنُّنِ فِيهَا، وَاخْتِلَابِ الْأَلْبَابِ بِسُخْرِ بَيَانِهَا، فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا.

فَكَانَ الْعَمَلُ الْأَكْبَرُ لِصَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْعُظْمَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَادئَ أَمْرِهِ - غَيْرَ تَبْلِيغِ الْقُرْآنِ - وَارِدًا مِنْ طَرِيقِ الْخُطَابَةِ.

وَلِأَمْرِ مَا جَعَلَهَا الشَّارِعُ شَعَارَ كُلِّ إِمَامٍ فِي حِفْظِ دِينِيٍّ أَوْ سِيَاسِيٍّ؛ كَالْجُمُعَةِ، وَالْعِيدَيْنِ، وَمَوْسِمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، وَعِنْدَ أَخْذِ الْعُدَّةِ لِلْحَرْبِ، وَفِي كُلِّ أَمْرٍ جَامِعٍ لِنَشْرِ فَضِيلَةٍ، أَوْ نَهْيٍ عَنْ رَذِيلَةٍ، أَوْ إِعْلَانِ نَصْرٍ، أَوْ تَأْكِيدِ وَصِيَّةٍ عَامَّةٍ، إِلَى غَيْرِ



ذلك من الأمور ذَوَاتِ البَالِ.

ولِذَلِكَ كَانَ سَعَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورُسُلُهُ إِلَى الْمُلُوكِ، وَأُمَرَاءِ جِيُوشِهِ، وَسَرَايَاهُ، ثُمَّ خَلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَعُمَمَالُهُمْ كُلُّهُمْ - خُطَبَاءَ مَصَاقِعَ، وَلُسُنَا مَقَاوِلَ (1)، أَعَانَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ يُخَاطَبُونَ عَرَبًا مِثْلَهُمْ، لِلْبَلَاغَةِ عِنْدَهُمْ هِزَّةٌ فِي التَّفْسِيرِ، وَرُوعَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَأَنَّ الشَّرَعَ الشَّرِيفَ قَدْ صَرَفَهُمْ عَنِ الشَّعْرِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِأَعْبَاءِ الْخُطَابَةِ، لَا سِوَمَا الدِّينِيَّةِ؛ لِشَرْحِهَا الْحَقَائِقَ، وَقَرَعِهَا الْأَسْمَاعَ بِالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ، وَتَرْغِيبِهَا فِي الثَّوَابِ، وَتَرْهِيْبِهَا مِنَ الْعِقَابِ، وَإِطْلَاقِهَا مِنْ قِيُودِ الْوِزْنِ وَالْقَافِيَةِ، وَلَأنَّهَا تَقَالُ بِعِبَارَاتٍ تَنَاسُبُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ، وَكَانَ لَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَأَدَلَّتِهِ، وَحُجَجِهِ، وَالْاِقْتِبَاسِ مِنْهُ - دَائِمًا - مَدَدٌ لَا يَنْقُذُ.

وَعِنْدَمَا قَامَتِ الْفِتْنَةُ الشَّعْوَاءُ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ أَوَّلُ حَادِثٍ تَصَدَّعَ لَهُ بِنَاءُ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - انْقَسَمَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى فِرْقَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: عِرَاقِيَّةٍ، وَعَلَى رَأْسِهَا فَحْلُ الْخُطَبَاءِ وَأَمِيرُ الْبُلْغَاءِ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَشَامِيَّةٍ: وَعَلَى رَأْسِهَا سَيِّدُنَا مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ لِكُلِّ دَعْوَةٍ يُؤَيِّدُهَا، وَوَجْهَةٌ يُنَاضِلُ عَنْهَا.

ظَهَرَ فِي كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ خُطَبَاءٌ لَا يُحْصَى عَدْدُهُمْ، وَلَا يُشَقُّ غِبَارُهُمْ. وَبَعْدَ انْتِهَاءِ الشَّجَارِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ انْقَسَمَتِ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهَا إِلَى أَقْسَامٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ لِكُلِّ قِسْمٍ خُطَبَاءٌ كَثِيرُونَ يُؤَيِّدُونَ مَذَاهِبَهُمْ، وَيُدَافِعُونَ عَنْ نَزَاعَاتِهِم الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ بِمَا أُوتُوا مِنَ الْبَلَاغَةِ فِي الْبَيَانِ، وَفَصَاحَةِ اللِّسَانِ.

(1) أي: أصحاب أَلْسِنَةٍ قَوَّالَةٍ.

أَمَّا صِفَةُ الْخَطِيبِ فِي عَهْدِ الْإِسْلَامِ، فَقَدْ لَا تَفْتَرِقُ عَنْهَا فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ،
وَسَيَأْتِيكَ فِي ذَلِكَ مَا فِيهِ الْكِفَايَةُ.





الفصل الرابع: في تطورات الخطابة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: فضل القرآن الكريم على اللغة العربية في تهذيبها وترقيتها

قد أخذت اللغة العربية عند ظهور الإسلام صبغة دينية؛ من القيام بالدعوة، والوعظ والإرشاد، وتبيين العقائد الصحيحة، وقواعد الإسلام، وأصوله المحكمة، وأحكامه العادلة، وحكمه البالغة، وآدابه العالية.

وإنك لترى في كلام الصدر الأول من أهل الإسلام الحث على اتباع الدين القويم، والتمسك به، وإعلاء كلمة الحق، والعمل للأخرة، والأخذ من الدنيا بنصيب لا يشغل عنها، والتحذير من الاسترسال في اللذات والشهوات، ومن النظر إلى خير الأقاليم التي فتحتها المجاهدون، والتطلع إليها؛ خوف الافتتان بها، والوقوع في الزلل.

فترى خطب هذا العصر المنير ورسائله ترجع إلى الكتاب العزيز، حاثّة على الفضيلة، منفرّة من الرذيلة، وكلّها جاء فيه اللفظ تابعاً للمعنى، صادرة عن شعور حيّ، ووجدان صادق؛ ولذا نفذت إلى سويداء القلوب، وأصابت مواقع الوجدان، وإذا كان الكلام خارجاً من القلب السليم فإنه يقع في القلب، وإذا لم يكن صادراً إلا عن اللسان فإنه لا يتجاوز الأذان، كما عرفت.

وقد قصّت هذه الحكمة والمواعظ والخطب والنصائح على دولة الأوهام والرذائل بالزوال؛ شأن الباطل أمام قوة الحق، وفسحت للحقائق والفضائل

فصَادَفَتْ أَهْلًا، وَنَزَلْتُ مَكَانًا سَهْلًا⁽¹⁾، وَتَحَلَّيْتُ بِهَا النُّفُوسَ وَالْعُقُولَ، وَقَوَّيْتُ الْعَزَائِمَ، وَعَلَّيْتُ الْهَمَمَ؛ حَتَّى سَادَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعَ الْأُمَمِ، وَذَلَّلْتُ لَهُمْ رِقَابَ الْجَبَابِرَةِ، وَخَضَعْتُ لَهُمْ مَقَالِيدَ الْفَرَاعِنَةِ.

وَفِي عَصْرِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ انْتَقَلَتِ اللُّغَةُ إِلَى حَالَةٍ أَجْمَلَ وَأَرْقَى مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ؛ لِانْتِقَالِ الْقَوْمِ مِنَ الْبَدَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ، وَمِنْ سُكْنَى الرَّيْفِ وَالْحِيَامِ إِلَى الْمَدَنِ وَالْقُصُورِ، فَاتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُمْ، وَزَادَتْ تَجَارِبُهُمْ، وَقَوِيَ فِيهِمُ الْخَيَالُ، وَكَثُرَتِ التَّصَوُّرَاتُ، وَانْتَقَلُوا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَأَشْعَرَ ذَلِكَ نُفُوسَهُمْ مَعَانِي جَدِيدَةً، وَوَجَدَانًا وَعِلْمًا لَمْ يَكُونَا مِنْ قَبْلُ، فَاحْتَاجُوا إِلَى الْعِبَارَةِ عَنْ ذَلِكَ بِمَا يُلَاقِيهِ مِنَ التَّرَاكِبِ، وَسَاعَدَهُمْ عَلَى صَوْغِ الْعِبَارَاتِ فِي الْقَالِبِ اللَّائِقِ بِهَا قُوَّةُ اللُّغَةِ، وَاتَّسَاعُ نَطاقِهَا؛ بِفَضْلِ الدِّينِ الْحَنِيفِ وَالْقُرْآنِ الشَّرِيفِ.

وَقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي خُطْبِهِمْ وَرِسَائِلِهِمْ ظَهْرًا بَيِّنًا، وَكَانَتْ مَوْضُوعَاتُهَا فِي الْغَالِبِ: الْوَعْظُ وَالْإِرْشَادُ، وَالذُّودُ عَنِ الْحَقُوقِ، وَإِقْيَافُ الْأَطْمَاعِ عِنْدَ حَدِّهَا، وَالضَّرْبُ عَلَى أَيْدِي الْعَابِثِينَ وَالْخَارِجِينَ عَنْ حُدُودِ الْأَدَبِ، وَتَأْلِيفُ الْأَحْزَابِ، وَتَوْحِيدُ الْكَلِمَةِ.

وعلى الجملة: فَكَانَتْ عِبَارَاتُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ آخِذَةً أُسْلُوبًا مَتِينًا مُؤَثِّرًا، مَعَ إِحْكَامِ صَنْعَةٍ، وَحُسْنِ افْتِتَاحٍ، وَجُودَةٍ اخْتِتَامٍ.



(1) وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَهْلًا وَسَهْلًا، أَي: صَادَفْتُ أَهْلًا لَا غُرَبَاءَ، وَنَزَلْتُ مَوْطِنًا سَهْلًا؛ كَنَائَةً عَنِ التَّرْحَابِ.



المبحث الثاني: الخطابة، وسبب ارتقائها

كانت خُطْبُ الصَّدْرِ الأول من الإسلام في أسمى طبقات الفصاحة والبلاغة، كما تَرَى ذلك في خُطْبِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وغيرهم من الصَّحابة والتَّابعين؛ كَمُعَاوِيَةَ، وَزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ، وَعَبْدِ الْمَلِكِ، وَالْحَجَّاجِ، وَقَطْرِيٍّ بْنِ الْفُجَاءَةِ، وَأَبِي حَمْزَةَ، وَوَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ.

والفضل في ارتقاء الخطابة في بلاغتها، وتأثيرها -يرجع إلى الكتاب المبين- من عدة أوجه:

الأوّل: أن القرآن الكريم- وإن نَزَلَ بلغة القوم التي بها يتخاطبون، وبفصاحتها يَتَفَاخَرُونَ- إِلَّا أَنَّ أَسَالِبَهُ الْعَالِيَةَ التي أَعْجَزَتْ بُلْغَاءَهُمْ وَخُطْبَاءَهُمْ، وَأَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ أَكْسَبَتْهُمْ مَلَكَةً مِنَ الْبَلَاغَةِ في تَحْيِيرِ الْأَسَالِبِ، غَيَّرَتْ مَلَكَتَهُمُ الْأُولَى، وَأُظْلِقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ مِنَ الْوَحْشِيَّةِ وَالتَّعَمُّقِ الذي كَانَ دَيْدَنَ كَثِيرٍ مِنْ خُطْبَائِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْيَبُونَ الْخُطِيبَ الْمِصْقَعَ⁽¹⁾ إِذَا خَلَا كَلَامُهُ عَنْ آيِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ.

وَرَوَى الْجَاهِظُ⁽²⁾: أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَسْتَحْسِنُونَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخُطْبِ

(1) أي: البليغ الذي يَتَفَنَّنُ في مَذَاهِبِ الْقَوْلِ.

(2) جاء في «سير أعلام النبلاء» (9/ 413): «الجاحظ: الْعَلَّامَةُ الْمُتَبَحَّرُ، ذُو الْفَنُونِ، أَبُو عَثْمَانَ؛

عَمْرُو بْنُ بَجْرَ بْنِ مَحْبُوبِ الْبَصْرِيِّ، الْمَعْتَزَلِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيفِ. أَخَذَ عَنِ النَّظَامِ...

قلت [أي: الذهبي]: كَانَ مَاجِنًا، قَلِيلَ الدِّينِ، لَهُ نَوَادِرٌ... كَانَ مِنْ بُحُورِ الْعِلْمِ، وَتَصَانِيفِهِ كَثِيرَةٌ جَدًّا.

قيل: لَمْ يَقَعْ بِيَدِهِ كِتَابٌ قَطُّ إِلَّا اسْتَوْفَى قِرَاءَتَهُ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَكْتَرِي دَكَائِينَ الْكُتُبِيِّينَ،

وَيَبِيتُ فِيهَا لِلْمُطَالَعَةِ، وَكَانَ بَاقِعَةً (دَاهِيَةً) فِي قُوَّةِ الْحِفْظِ.

يومَ الحفل، وفي الكلام يومَ الجمع آي من القرآن؛ فإنَّ ذلك مما يُورث الكلام البهَاءَ، والوقارَ، وحُسْنَ المَوْجِعِ (1).

الثاني: ما جاء في القرآن الحكيم من التَّزْغِيْبِ والتَّرهِيْبِ - على الأسلوب البالغ حدَّ الإعجاز، وما كان له من التأثير في القلوب والأخذ بِشكائِمِ النفوس - أعانهم على التَّفَنُّنِ في أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الأزمات، أو الحاجة إلى تأليف قلوب الجماعات، حتى لقد كان الخطيبُ البليغُ يَدْفَعُ بالخطبة الواحدة من المِلِمَاتِ ما لا يُدْفَعُ بالبيض المُرَهَفَاتِ (2)، ويملِكُ من قلوب الرِّجَالِ ما لا يُمَلِكُ بالبدور (3) والأموال.

الثالث: أنَّ الإسلام - بما هدَّب من أخلاقهم، وألَانَ من طباعهم، وعدَّل من شيمهم - أدْخَلَ مِنَ الرِّقَّةِ على عواطفهم ما رَقَّ به كَلَامُهُمْ، وكَثَّرَ للمعاني المؤثِّرة في النفوس اختيارهم في مخاطباتهم وخطبهم.

الرابع: أنَّ الدينَ الحنيف - بما مهَّد لهم من سبيل الفتح ومخالطة الأمم، وبما منَحَهُم من سَعَةِ السُّلْطَانِ والسِّيَادَةِ على الشعوب - وَفَّرَ لَهُمُ الأسبابَ الدَّاعِيَةَ إلى التَّوَسُّعِ في الخطابة، بما تدعو إليه حاجةُ التَّوَسُّعِ، وتقتضيه عادات

قال ابن زبير: مات سنة خمسين ومائتين. وقال الصولي: مات سنة خمس وخمسين ومائتين... إلى أن قال الإمام الذهبي **رحمة الله**: «وتَلَطَّخَهُ بغير بدعة أمرٍ واضح، ولكنه أخباريٌّ عَلَّامة، صاحبُ فنون وأدب باهر، وذكاء بيِّن؛ عفا الله عنه».

(1) انظر «البيان والتبيين» للجاحظ (1/ 115).

(2) **البيض**: جمع البيضاء. والمُرَهَفَات: السُّيُوف التي أُرَهَفَتْ، أي: رُقِّقَ حَدُّهَا.

(3) **البدور**: جمع البدر. **والبدرة**: عشرة آلاف درهم. انظر «مختار الصحاح» مادة (بدر).



الأُمم المحكومة وأخلاقها.

قال ابن خلدون: «إِنَّ كَلَامَ الْإِسْلَامِيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ أَعْلَى طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمَنْظُومِهِمْ؛ فَإِنَّا نَجِدُ شِعْرَ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، وَعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَالْحُطَيْيَّةَ، وَجَرِيرَ، وَالْفَرَزْدَقَ، وَالْأَخْوَصَ، وَبِشَّارَ، وَأَمْثَلَهُمْ، ثُمَّ كَلَامَ السَّلَفِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ، وَصَدْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي تَرْسُلِهِمْ وَخُطْبِهِمْ، وَمَحَاوَرَتِهِمْ لِلْمُلُوكِ - أَرْفَعَ طَبَقَةً فِي الْبَلَاغَةِ مِنْ شِعْرِ النَّابِغَةِ، وَعَنْتَرَةَ، وَابْنِ كُثُومٍ، وَزُهَيْرٍ، وَعَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ، وَطَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ، وَمِنْ كَلَامِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنْثُورِهِمْ وَمَحَاوَرَتِهِمْ، وَالطَّنْعِ السَّلِيمِ، وَالدَّوْقِ الصَّحِيحِ - شَاهِدَانِ بِذَلِكَ لِلنَّاقِدِ الْبَصِيرِ بِالْبَلَاغَةِ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْإِسْلَامَ سَمِعُوا لِلطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، الَّذِينَ عَجَزَ الْبَشَرُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِمَا؛ لَكُونَهَا وَلَجَتْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَنَشَأَتْ عَلَى أَسَالِبِهَا نَفُوسُهُمْ، وَنَهَضَتْ طِبَاعُهُمْ، وَارْتَقَتْ مَلَكَاتُهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ عَلَى مَلَكَاتٍ مِّن قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، مِمَّنْ لَمْ يَسْمَعْ هَذِهِ الطَّبَقَةَ، وَلَا نَشَأَ عَلَيْهَا، فَكَانَ كَلَامُهُمْ فِي نَظْمِهِمْ وَنَثْرِهِمْ أَحْسَنَ دِيبَاجَةٍ، وَأَصْفَى رَوْنَقًا مِنْ أَوْلَئِكَ، وَأَرْصَفَ مَبْنًى، وَأَعْدَلَ تَثْقِيفًا بِمَا اسْتَفَادُوهُ مِنَ الْكَلَامِ الْعَالِيِ الطَّبَقَةِ». اهـ (1).

ومما تقدم تعلم: أن الخطابة في عهد الإسلام قد امتازت عنها في عهد الجاهلية بأمور:

(1) انظر: «تاريخ ابن خلدون» (1/ 798).

(1) أَخْذُهَا وَجْهَةً دِينِيَّةً: في مثل خُطْبِ الْجُمُعِ، والأعيادِ، والحجِّ، والوعظِ، والإرشادِ، والتَّعليمِ، وغيرِ ذلك مما يَسْتَلْزِمُهُ نَشْرُ الدَّعْوَةِ الدِّينِيَّةِ.

(2) **اَتَّبَاعُهَا خُطَّةٌ سِيَاسِيَّةٌ:** في مِثْلِ تَأْلِيفِ الْجَمَاعَاتِ وَالْأَحْزَابِ، وَتَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ، وَالْحَثِّ وَالتَّحْرِيزِ عَلَى الْقِتَالِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، بِحَالَةٍ تُغَايِرُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِي ذَلِكَ.

(3) صَفَاءُ أَفْظَاهِهَا، وَسُهُولَةُ عِبَارَتِهَا، وَمَتَانَةُ أَسَالِيحِهَا، وَتَجَنُّبُهَا سَجْعَ الْكُتَّانِ، وَقِلَّةُ الْقَصْدِ فِيهَا عَلَى سَرْدِ الْحَكَمِ الْقَصِيرَةِ الدَّقِيقَةِ لِمُنَاسِبَةِ وَغَيْرِ مُنَاسِبَةٍ، خِلَافًا لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ خُطَبَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ.

(4) قُوَّةُ تَأْثِيرِهَا، وَوَصُولُهَا إِلَى سُوْدَاءِ الْقُلُوبِ، وَامْتِلَاكُهَا لِلْوُجْدَانِ وَالشُّعُورُ بِمَا رَفَّقَ الْقُلُوبَ الْغَلِيظَةَ الْقَاسِيَةَ، وَأَسَالَ الْأَعْيُنَ الْجَامِدَةَ.

(5) مُحَاكَاةُ أَسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ فِي الْإِقْنَاعِ، وَاسْتِمْدَادُهَا مِنْ آيَاتِهِ،
حَتَّى اشْتَرَطَ بَعْضُ الْأَثْمَةِ اشْتِمَالَ الْخُطْبَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ.

(6) بَدَّاعَتْهَا بِحَمْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامَ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ.

هَذَا وَلَمْ تَسْعِدِ الْعَرَبُ بِكَثْرَةِ الْخُطْبِ وَالْخُطْبَاءِ مِثْلَ مَا سَعِدَتْ بِهِ فِي الْعَصْرِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَيْمُونِ.





الفصل الخامس: في قوانين الخطابة

تنقسم قوانين الخطابة إلى قسمين: أصولها، وفنونها.

القسم الأول: في أصول علم الخطابة

أصولها ثلاثة: (1) الإيجاد. (2) التَّنسيق. (3) التَّعبير.

قال ابن المعتز والشَّيباني⁽¹⁾: إِنَّ البلاغة بثلاثة أمور:

أَنْ تَعُوضَ لحظةَ القلبِ في أعماقِ الفكرِ، وتَتَمَلَّ لُجُوهَ العواقبِ، وتَجَمَّعَ بين ما غابَ وما حضرَ، وهو (الإيجاد).

ثم يعودُ القلبُ على ما أُعْمِلَ به الفكرُ، فيُخَصِّمَ سياقَ المعاني، ويُجَسِّنَ تَنْصِيدَهَا، وهو (التَّنسيق).

ثم يُبْدِيهِ بِالْفَاظِ رَشِيقَةً، مَعَ تَزْيِينِ مَعَارِضِهَا، واستكمالِ محاسنها، وهو (التَّعبير)⁽²⁾.

(1) ابن المعتز (247 - 296هـ): هو عبدُ الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي؛ أبو العباس: الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. وُلِدَ في بغداد، وأُولِعَ بالأدب، فكان يقصدُ فُصحاءَ الأعراب، ويأخذ عنهم. وصَنَّفَ كُتُبًا، منها «الزهر والرياح»، و«البديع»، و«الآداب»، و«طبقات الشعراء». «الأعلام» للزركلي (4/ 118).

والشَّيباني: هو أبو اليُسْر؛ إبراهيم بن محمد الشَّيباني البغدادي، المعروف بالرياضي، صاحب المؤلفات الحسان في فُنُونِ من العلم؛ منها كتاب في القرآن سَمَّاه «سراج الهدى» (ت 298هـ). «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» للمراكشي (1/ 162).

(2) انظر «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري (7/ 11)، وفيه: «قال ابن المعتز: البلاغة: أَنْ

قال بعض الحكماء: العلوم الأدبية مطالعها من ثلاثة أوجه: قلبٌ مُفكِّرٌ،
وبيانٌ مُصوِّرٌ، ولسانٌ مُعبِّرٌ⁽¹⁾.

تبلغ المعنى ولم تُطل سَفَر الكلام؛ خير الكلام: ما أسَفَرَ عن الحاجة. أبلغ الكلام: ما يُؤنس مَسْمعه، ويؤنس مُضيعه. أبلغ الكلام: ما حَسُن إيجازه، وقَلَّ مجازه، وكثر إعجازه، وتَناسَبَت صُدوره وأَعجازه.

(1) انظر «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص 52).



الأصل الأول: الإيجاد أو الاختراع

وهو عبارة عن إعمال الفكر في استنباط الوسائل الحقيقية بإقناع السامع، واستمالة خاطره، وتحريك عواطفه، ومدارؤه على ثلاثة أشياء: وضع الأدلة. ومراعاة الآداب الخطابية. ومعرفة الأهواء.

وذلك أن غاية الخطيب:

أولاً: إنارة الأذهان، وحملها على الإذعان، وهو أمر لا يتم إلا بالأدلة.

ثانياً: استعطاف الخواطر، وذلك إنما يترتب على مداراة الأخلاق، ومراعاة الآداب.

ثالثاً: استمالة الإرادة إلى ما يُطلب منها بإثارة عواطفها، وهو يقوم بمعرفة الأهواء، وطرق تهيجها، أو تسكينها، ولكل من تلك الأشياء الثلاثة مبحث يخصه.

المبحث الأول: في الأدلة

الدليل في اللغة: المرشد.

وفي اصطلاح الحكماء: ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، وهو إما: إلزامي، أو قطعي، وإما ظني.

فالإلزامي: هو الموجب للتصديق اليقيني، ويسمى برهاناً.

والظني: ما كان محمولاً على الظن والترجيح فقط، ويغلب عليه اسم الحجة؛ كقول أرسطو للإسكندر: «إنَّ النَّاسَ إِذَا قَدَرُوا أَنْ يَقُولُوا قَدَرُوا أَنْ يَفْعَلُوا؛ فاحترس من أن يقولوا تسلم من أن يفعلوا»⁽¹⁾، ففي هذا القول حجتان مبناهما الظن الغالب:

الأولى: أنَّ القادر على القول ربما كان قادراً على الفعل.

والثانية: أنَّ السلامة من أقوال الناس تنجي من أفعالهم.

وتؤخذ أدلة الخطابة من التأمل في موضوع البحث، والتّظّير في أحواله.

قال ابن سينا: «إن الحجاج في الجدل والخطابة تُكتسب من المواضع؛ فمن

(1) انظر: «العقد الفريد» (2/ 280).



طلب الإقناع وهو لا يعلمها كان كحاطبٍ لئيلٍ يسعى على غير هدايةٍ، لا لبخلٍ من الموجود، بل لِنُقْصَانٍ في الاستعداد».

والمواضع ضروبٌ مِنَ الأدلة العامة التي يُمكن للخطيب استعمالها في كلِّ مقامٍ لغرضين:

أحدهما - وهو الأصلي -: إثبات الخطيب لِمَقَالِهِ بِالْبُرْهَانِ.

وثانيهما: توسيع المعاني مُحْسِنِ البیان، وهي قسمان: ذاتيةٌ، وعَرَضيةٌ.

فالذاتية تُستفادُ مِنْ نفس الموضوع، كأن تَحْضَ على طلبِ العلم؛ لشرفه وفوائده مثلاً، فَتَنْعَتُهُ بأنه حياةُ القلوب، ومصباحُ الأبصار، وتُثَبِّتُ أَنَّهُ دَلِيلُ الرَّشَادِ، وَالطَّرِيقُ إِلَى الْمَعَادِ، وَتُشَبِّهُهُ بأنه كنزٌ لا ينفدُ، وبِسِرَاجٍ لا يُطْفَأُ، وَحُلَّةٌ لا تَبْلَى، إِلَى غير ذلك مِنَ الْأَوْصَافِ التي تُعَرِّفُ الْعِلْمَ في ذاته، أو ثمرته، أو غايته.

والعَرَضية تُستفادُ مِنْ مَصَادِرَ خَارِجَةٍ عَنْهُ؛ كأن تُرَغَّبَ في العلم بِأَمْثَالِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ، واعتبارها للمعارف، وَأَنْ تَسْتَشْهَدَ بِأَقَاوِيلِ الْحُكَمَاءِ، أو الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ التي عَظَّمَتِ الْعِلْمَ، وَقَبَّحَتِ الْجَهْلَ.

والمواضع الجدلية الذاتية ثمانية، وترجع إجمالاً إلى ثلاثة أقسام:

ما يُبَيِّنُ الموضوعَ في نفسه: وهو الحَدُّ، والتَّجْزِئَةُ، والجنسُ، والنوعُ.

وما يُبَيِّنُهُ في مُتَعَلِّقَاتِهِ: وهي الْعِلَّةُ، وَالْمَعْلُولُ، وَالْمَقْدَمَاتُ، وَالتَّوَالِي، وَالظُرُوفُ.

وما يُبَيِّنُهُ بِعَرَضِهِ عَلَى سِوَاهُ، وذلك في الْمُقَابَلَةِ، وَالْمُشَابَهَةِ.

القسم الأول: ما يبينه في نفسه، وهو الحد، والتجزئة، والجنس، والنوع:

فالحَدُّ في اللغة: المنع.

وفي الاصطلاح: هو قول دال على ماهية الشيء، أو هو القول الجامع

المانع.

أي: تعريف الشيء بما يُحيط بمعناه، ويميزه عن كل ما سواه، وهو تام، وناقص - كما هو معروف.

والحدُّ قلما تستعمله الخطباء، وإنما يستعملون أساليب الرسم، وهي كثيرة.

منها: تعريفه بمفاعيله ومعلولاته؛ كقول بعض الأدباء في تعريف العقل: العقل وزير يرشد، وظهير يسعد، من أطاعه نجاه، ومن عصاه أرداه، إن انكسر صاحبه جبره، وإن انصرع أنعشه، وإن دل أعزّه، وإن خاف أمّنه، وإن حزن أفرّحه، وإن تكلم صدّقه، وإن أقام بين ظهرائي قوم اغتبطوا به، وإن غاب عنهم أسفوا عليه، وإن بسط يده قالوا: جواد، وإن قبضها قالوا: مقتصد.

ومنها: تعداد أقسامه، وبيان أنواعه، كقول الحكيم في تعريف الإخوان: الإخوان ثلاثة: أخ يخلص لك ودّه، ويبدل لك رِفْدَه، ويستفرغ في مهمّك جهده. وأخ ذو نيّة يقتصر بك على حسن نيّته، دون رِفْدِه ومعونته. وأخ يتملّق لك بلسانه، ويتشاغل عنك بشانه، ويوسعك من كذبه وأيمانه.

ومنها: الكشف عن خواص الشيء، أو تعريف ظُروفه، كقول بعضهم في تعريف الصداقة:



إِنَّ الصَّدَاقَةَ أَوْلَاهَا السَّلَامُ وَمَنْ
 بَعْدَ ذَلِكَ كَلَامٌ فِي مُلَاطَفَةِ
 وَضَحِكِ نَعْرِ وَإِحْسَانِ وَتَقْرِيبِ
 لَمْ يُثْنِهِمْ عَنْهُ تَرْغِيبٌ وَتَرْهيبٌ (1)

ومنها: السَّلْبُ، والإيجابُ، بأن ننفي عن المَحْدُودِ ما لا يُؤَافِقُهُ، ثم نُثَبِّتُ
 له صفاته الجَدِيرَةَ بِهِ؛ كقول ابنِ الوَرْدِيِّ رَحِمَهُ اللهُ:

لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا
 إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ الْبَطْلُ (2)

وقول الآخر (3):

وَلَيْسَ أَخُوكَ الدَّائِمُ الْعَهْدِ بِالَّذِي
 وَلَكِنْ أَخُوكَ النَّائِي مَا دُمْتَ أَمْنًا
 وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ:

لَيْسَ الْيَتِيمُ الَّذِي قَدْ مَاتَ وَالِدُهُ
 بَلِ الْيَتِيمُ يَتِيمُ الْعِلْمِ وَالْحَسَبِ (4)

ومنها: التَّشَابِيهُ، والأمثالُ، والاستعاراتُ؛ كقول ابنِ العَرَبِيِّ - في تحديد

(1) انظر «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» لابن عريشه (ص 302)، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، 1421هـ.

(2) انظر «لامية عمر بن الوردية» يُخاطب بها ولده، ضمن «جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (2/436)، مؤسسة المعارف، بيروت.

(3) القائل: أوس بن حجر. انظر «الموشى - الظرف والظرفاء» لأبي الطيب الوشاء (ص 27)، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1371هـ.

(4) القائل: علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. انظر «ديوانه»، و«دواوين الشعر العربي» قصيدة برقم (15498).

الكتاب: «الكتاب بُسْتَانٌ يُحْمَلُ فِي رُذْنٍ»⁽¹⁾، وَرَوْضَةٌ تُنْقَلُ فِي حَجَرٍ، يَنْطِقُ عَنِ الْمَوْتِ، وَيُتْرَجَمُ عَنِ الْأَحْيَاءِ، وَهُوَ مُسَامِرٌ مُسَاعِدٌ، وَ مُحَدِّثٌ مَطَاوِعٌ، وَنَدِيمٌ صَدِيقٌ»⁽²⁾.

كِتَابِي فِيهِ بُسْتَانِي وَرَاحِي
يُسَالِمُنِي وَكُلُّ النَّاسِ حَرْبٌ
وَيُخَيِّ لِي تَصَفُّحُ صَفْحَتَيْهِ
إِذَا اغْوَجَّتْ عَلَيَّ طَرِيقُ أَمْرِي
وَمِنْهُ سَمِيرُ نَفْسِي وَالنَّدِيمُ
وَيُسَالِينِي إِذَا عَارَتْ الْهُمُومُ
كَرَامِ النَّاسِ إِنْ فُقِدَ الْكَرِيمُ
فَلِي فِيهِ طَرِيقُ مُسْتَقِيمٍ
وَيُسْتَدَلُّ بِالْحَدِّ كَمَا احتاج الخطيبُ إلى إثباتِ قضيّةٍ أنكرها الحُصْمُ، أو إلى إيضاحِ حقيقةٍ أشككتُ على السّامعينَ، أو إلى تقريرِ أمرٍ في أذهانهم بتعريفِ خواصّه، وبيانِ صفّاته بأحدِ الأساليبِ المذكورة.

ولا بُدَّ للخطيبِ أن يذكُرَ مِنَ الخواصِّ ما يُلائِمُ غَرَضَهُ، وَيُوافِقُ مُقْتَضَى الحالِ، فإن أراد- مثلاً- أن يَصْرِفَ السّامعينَ عن حربٍ مشئومةٍ وصفّها بآفاتِها، وما تَجَلَّبُهُ مِنَ الشُّرورِ على البلادِ، وبالعكسِ إذا أراد حملهم عليها عرّفها بما يُرغِّبُهُمْ في خوضِ غمارِها، كقوله: إنها مَدْرَسَةُ الشَّجَاعَةِ، وَمَظْهَرُ التَّقَانِي، وَالسَّبِيلُ الْوَحِيدُ إلى قَهْرِ الْعَدُوِّ، والدِّفَاعِ عن حُرْمَةِ الدِّينِ وَالْوَطَنِ، إلخ.

(1) الرُّذْنُ بِالضَّم: أَصْلُ الْكُفِّ. [م].

(2) ذكر أبو عثمان الجاحظ نحو هذا الكلام في «المحاسن والأضداد» (ص 21)، دار الهلال، بيروت، 1423هـ، وذكره- أيضًا- في «الحيوان» (1/ 39)، دار الجيل، بيروت، 1416هـ.



والتَّجْزِئَةُ هِيَ: تقسيمُ أحدِ الكلياتِ إلى أجزائه، ويكونُ إقناعُ الخطيبِ السَّامِعَ بالتَّجْزِئَةِ بأحدِ أمرين:

أحدهما: أن يثبتَ للكلِّ ما قرَّره لأجزائه، كقول أبي العتاهية في صَوْلَةِ المَوْتِ وفتحِهِ بجميعِ البشرِ، وأنه لا يَرُدُّ غَارَاتِهِ أَحَدٌ:

مَا يَدْفَعُ الْمَوْتَ أَزْجَاءً وَلَا حَرَسُ مَا يَغْلِبُ الْمَوْتَ جِنٌّ وَلَا أَنْسُ (1)
 مَا إِنْ دَعَا الْمَوْتُ أَمْلَاكًا وَلَا سُوقَى إِلَّا تَنَاهَمُ إِلَيْهِ الصَّرْعُ (2) وَالْخَلْسُ
 لِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَلِلْبَلَى كُلِّ مَا بَنَوْا وَمَا غَرَسُوا (3)
 أثبت الموت للأجزاء فردًا فردًا، ثم للكلِّ في البيت الأخير.

وثانيهما: أن يَنْفِي عن الكلِّ ما نفاه عن الأجزاء، كما لو أراد أن ينفي السَّعَادَةَ عموماً في الدنيا ذَكَرَ مجموعَ الأشياءِ التي تَفْتِنُ قلوبَ البشرِ؛ كالمالِ، والجاهِ، واللذاتِ، فنفى وجودَ المادَّةِ في كلِّ منها، واستنتج أن لا سَعَادَةَ في الدنيا ألبتَّةً.

وإذا تَعَاصَى عَلَى الخطيبِ اسْتِيفَاءُ كُلِّ أَقسامِ المقصود؛ فَيَكْفِيهِ ذِكْرُ أَهمِّ الأجزاء التي عليها يقاسُ الباقي.

واعلم أَنَّ الخطيبَ كثيراً ما يَقْصِدُ من التَّجْزِئَةِ توسيعَ المعاني، وحُسنَ

(1) الأَنْسُ محرَّكَةٌ: الجماعةُ الكثيرةُ، والحيُّ المُقيمون. [م].

(2) الصَّرْعُ بفتح فسكون: الطَّرْحُ على الأرض. والخَلْسُ بفتحتين: الطَّعْنَةُ السَّريعةُ، يقال: طَعَنَهُ خَلْسٌ. اهـ. مصحَّحه. [م].

(3) الأبيات لأبي العتاهية. انظر «ديوانه» (ص 68).

البيان، والزَّيادة في الإيضاح.

ولا استعمال الجنس والنوع في الخطابة طريقتان:

الأول: أن يُقرَّر الخطيب للنوع ما قرَّره للجنس، كما لو أراد أن يُبين أن القناعة محمودة، فأثبت كون الفضيلة محمودة؛ لأنَّ الفضيلة جنس يشمل نوع القناعة، ومثله قول ابن خلدون - يصف فوائد العلوم العقلية إجمالاً، ثم علم المنطق خصوصاً -: «إنَّ العلوم العقلية كثيرة الفوائد، بها يقف الإنسان على تحقيق الحق في الكائنات بمنتهى فكره، ويقتنص المطالب المجهولة، ويستخرج المباحث الشريفة.

وَمِنْ أَجْلِ هذه العلوم وأجدرها بالدراسة: علم المنطق؛ فهو يعصم عن الخطأ، ويبيِّن الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات، والحجج المفيدة للتصديقات، وهو أول العلوم الحكمية، وفتحها، وسَمِّي المعلم الأول⁽¹⁾.

الثاني: أن ينفي عن النوع ما نفاه عن الجنس؛ كقول أبي العتاهية - وقد بينَ كدورة العيش مجملًا، ثم مفصلاً:

مَا رَأَيْتُ الْعَيْشَ يَصْفُو لِأَحَدٍ	دُونَ كَدٍّ وَعَنَاءٍ وَنَكَدٍ
إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَهْمًا قَاتِلًا	لَيْسَ يَفْدِي أَحَدًا مِنْهُ أَحَدٌ
قَدْ أَرَى أَنْ لَسْتُ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ	بَقِيتُ لِي دَائِمًا طُولَ الْأَمَدِ

(1) نقله الشيخ من «تاريخ ابن خلدون» (ص 529 - 643) بتصرف واختصار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408 هـ.



إِنَّنِي مِنْهَا غَدًا مُرْتَحِلٌ أَوْ أَرَانِي رَاحِلًا مِنْ بَعْدِ غَدٍ (1)

وعلى الجملة: فمعرفة الكلي والجزئي في الموضوع الذي يتوخاه الخطيب ضرورية؛ لأنه قد يتكلم - أولاً - على الكلي، ثم يتخلص منه إلى الجزئي، ويكون ذلك أبلغ في الغرض، وأكمل في البيان.

قال ابن سينا: «جُمْلَةُ مَا يُقَالُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْخُطْبَاءَ قَدْ اعْتَادُوا أَنْ يَأْتُوا فِي صَدْرِ خُطْبِهِمْ بِنَظَرٍ عَامٍّ فِي مَقْصِدِهِمْ؛ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتُونَ فِي خُطَابِهِمْ؛ لِأَنَّ كُلَّ خُطَابٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرِشٍ يَكُونُ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَسَاسِ مِنَ الْبُنْيَانِ، كَقَوْلِ بَعْضِ الْبُلَغَاءِ فِي الْبَيَانِ وَالْفَصَاحَةِ - وَقَدْ افْتَتَحَ خُطْبَتَهُ بِذِكْرِ شَرَفِهَا، وَمَنَافِعِهَا، ثُمَّ أَخَذَ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَيْهَا:

«أَمَّا بَعْدُ؛ إِنَّ الْبَيَانَ تُرْجِمَانُ اللَّسَانِ، وَرَوْضُ الْقُلُوبِ، وَإِنَّ مَنْ عُرِفَ بِفَصَاحَةِ اللَّسَانِ لَحَظَّتْهُ الْعَيُونُ بِالْوَقَارِ؛ لِأَنَّهَا أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى اسْتِكْمَالِ الذِّكَاةِ وَالتُّبْلِ، وَهِيَ لَمْ تَزَلْ تُشِيدُ لِأَهْلِهَا فِي رُبُوعِ الْمَجْدِ فَخْرًا، وَتَرْفَعُ لَهُمْ فِي مَرَاتِبِ الْعُلُومِ ذِكْرًا.

فَعَلَيْكُمْ بِالْفَصَاحَةِ فِي مَنْطِقِكُمْ، وَزَكُّوا بِالْبَيَانِ قُلُوبَكُمْ، بِهِ تَهْدُونَ ضَالًّا، وَتُرْشِدُونَ غَاوِيًّا، وَتُعَلِّمُونَ جَاهِلًا، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ كَانَ فِي الشُّطْقِ أَبْلَغَ كَانَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ أَخْلَقَ».

واعلم أَنَّ الْخُطْبَاءَ يُطْلِقُونَ الْجِنْسَ عَلَى الْأَمْرِ الْعَامِّ، سَوَاءً كَانَ جِنْسًا عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ، أَوْ نَوْعًا، فَيَقُولُونَ مِثْلًا: إِنَّ الْحُرَّ وَالْعَبْدَ نَوْعَانِ يَشْتَرِكَانِ فِي جِنْسِ

(1) نقله عن أبي العتاهية أسامة بن منقذ في «المنازل والديار» (1/ 68).

الإنسانية، وإنَّ العَدْلَ والقَنَاعَةَ والمُرُوءَةَ تَنْطَوِي تَحْتَ جَنَسِ الفَضِيلَةِ.

مِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُ الْخَوَارِزْمِيِّ - يَصِفُ الْمُحْسِنِينَ إِجْمَالًا؛ كَالْجَنَسِ الْعَامِّ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ إِلَى صَنَائِعِ أَبِي نَصْرِ الْمِيكَالِيِّ شَاكِرًا لَهُ نِعْمَهُ، كَالْتَّوَعِ الْخَاصِّ:

«الْمُحْسِنُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ حَبِيبٌ، وَمَنْ الْقُلُوبِ كُلِّهَا قَرِيبٌ، يَمْدَحُونَهُ وَإِنْ لَمْ يُحْسِنْ إِلَيْهِمْ، وَيَشْكُرُونَهُ وَإِنْ لَمْ يُفْضِلْ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّ الْمُسِيءَ فِي الثُّفُوسِ صَغِيرٌ - وَإِنْ كَثُرَ مَالًا وَحَالًا - وَقَبِيحٌ وَإِنْ حَسَنَ زَيْنًا وَجَمَالًا، عَلَى هَذَا أُسِّسَتِ الْبَنِيَّةُ، وَعَلَيْهِ وُضِعَتِ الْفِطْرَةُ، وَفِيهِ اتَّفَقَتِ الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ، وَالشَّيْخُ عَلَى سَبِيلِ الْكَرَامِ نَهَجَ، وَعَلَى مِنْوَالِهِمْ نَسَجَ، فَصَنَائِعُهُ فِي قَوْلِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَعَلَى طَرِيقِ الْأَجْرِ وَالذُّخْرِ، بَلَّغَنِي مَا صَنَعَهُ الشَّيْخُ مَعَ فَلَانٍ، فَمَا اسْتَكْثَرْتُهُ؛ قِيَاسًا عَلَى قَدَرِهِ الْعَظِيمِ، وَبِرِّهِ الْجَسِيمِ».

تَنْبِيْهُ: مِمَّا تَقَدَّمَ نَعْلَمُ أَنَّ طَرِيقَةَ الاسْتِدْلَالِ بِالْجَنَسِ وَالتَّوَعِ مَرَجِعُهَا عِنْدَهُمْ إِلَى الاسْتِدْلَالِ بِالْعَامِّ وَالْخَاصِّ، أَوِ الْكُلِّيِّ وَالْجُزْئِيِّ، إِلَّا أَنَّكَ فِي التَّجْزِئَةِ تَبْدَأُ بِأَبْثَاتِ الْحُكْمِ لِلْجُزْئِيِّ، ثُمَّ تُثْبِتُهُ لِلْكُلِّيِّ، بِخِلَافِ الاسْتِدْلَالِ بِالْجَنَسِ وَالتَّوَعِ، فَإِنَّكَ تُقَرِّرُ الْحُكْمَ لِلْكُلِّيِّ، فَتَسْتَنْتِجُ وَجُوبَهُ لِلْجُزْئِيِّ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ كَثِيرَةُ الاسْتِعْمَالِ فِي الْخُطَابَةِ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

القسم الثاني: ما يُبَيِّنُهُ فِي مَتَعَلِّقَاتِهِ، وَهِيَ الْعِلَّةُ وَالْمَعْلُولُ وَأَخَوَاتُهُمَا:

الْعِلَّةُ: مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ فِي وَجُودِهِ.

وَالْمَعْلُولُ: مَا صَدَرَ عَنْهَا، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ:

الْعِلَّةُ الْفَاعِلِيَّةُ: وَهِيَ مَا نَشَأَ عَنْهَا الْمَعْلُولُ؛ كَالْبِنَاءِ بِالنَّسَبَةِ لِلدَّارِ.



والعلة الغائية: وهي ما كان لأجلها المعلول؛ كسكني الدار، فإنها الغاية من تشييدها.

والعلة المادية: وهي ما تألف منه الشيء؛ كالتفيس للإنسان.

والعلة الصورية: وهي ما به يمتاز الشيء؛ كهيئة الدار المميزة لها عن غيرها من المساكن؛ كالقصر، والخان، والخيمة.

والعلل من جملة البراهين المقتنعة؛ لأن الخطيب إذا ادعى شيئاً، وأثبت له العلل الأربع أو بعضها، فلا يبقى وجه للإنكار.

مثال العلة الفاعلية في الخطابة: قول أبي زكريا بن عدي - في علة اختلاف شهوات الناس: «إن العلة الموجبة لاختلاف عادات الناس في شهواتهم ولذاتهم، وعفة بعضهم وفجور بعضهم - هو اختلاف أحوال القوة الشهوانية، فإنها إذا كانت مهذبة مؤدبة كان صاحبها عفيفاً ضابطاً لنفسه، وإذا كانت مهملة مالكة لصاحبها كان فاجراً شريراً، وإذا كانت متوسطة الحال كانت رتبة صاحبها في العفة كرتبته في التأدب؛ ولهذا وجب على الإنسان أن يقهر قوته الشهوانية ويهذبها؛ حتى تصير منقاداً له، ويكون هو مالكها؛ فيستعملها بالتأدب، ويكفها عما لا حاجة به إليه من الشهوات الرديئة، واللذات الفاحشة».

ومثال العلة الغائية قول الشيخ جمال الدين الأفغاني⁽¹⁾ - مبيناً وجوب

(1) كان جمال الدين الأفغاني صاحب شخصية غامضة، وكان كثير التنقل، مشعلًا ثورة في كل بلد حل به من بلدان المسلمين، وهناك اختلاف كبير في أصله: هل هو أفغاني سني أم إيراني

العدول عن مذهب الدهريين لما يقصدونه من الغايات السيئة:- «هؤلاء جحدوا الألوهية في أي أمة، وبأي لون ظهرُوا، كانوا يسعون ولا يزالون يسعون لقلع أساس قصر السعادة الإنسانية، أعاصير أفكارهم تُدكدك هذا البناء الرفيع، وتلقي بهذا النوع الضعيف إلى عراء الشقاء، وتهبط به من عرش المدنية الإنسانية إلى أرض الوحشية الحيوانية، ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية، تنبت في الربيع مثلاً، وتيبس في الصيف، ثم تعود تراباً، والسعيد من يستوفي في هذه الحياة حظوظه من الشهوة البهيمية.

بهذا الرأي الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثم، ودفعوها إلى أنواع العدوان من قتلٍ وسلبٍ وهتكِ عرضٍ، ويسروا لها الغدر والخيانة، وحملوها على فعل كل خبيثة، والوقوع في كل رذيلة، وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشري، وأعدموها الرغبة في كشف الحقائق، وتعرف أسرار الطبيعة».

ومثال العلة المادية: قول القزويني - في جسم الإنسان، وتركيبه العجيب، مُستنتجاً من ذلك أن يعرفوا خالقهم، ويشكروا إحسانه إليهم: «إنَّ في بنية الإنسان واختلاف أعضائه وتركيبها من العجائب ما تحير فيه عقول الأولين والآخرين، وقصر عن إدراكه فهم الخلق أجمعين، فلكثر ما فيها من العجائب قد قيل: إنَّ من عرف نفسه فقد عرف ربه. ومعناه: أن من عرف ما في هذه

شيعي؟ والصحيح الذي دلت عليه الحقائق التي تكشفت بعد موته أنه كان إيرانيًا شيعيًا على مذهب الإثني عشرية.



البَيِّنَةُ العَجِيبَةُ والهيئة البديعة مِنْ إِتْقَانِ صَنَعَتِهَا مَعَ صَغَرِ حَجْمِهَا، والجمع بين الأشياءِ الْمُتَضَادَّةِ؛ كَرُوحِ سَمَآوِيٍّ، وَبَدَنِ عُنْصُرِيٍّ، وتَأْلِيفِ بَيْنِ حَارٍّ وَبَارِدٍ، وَرَطْبٍ وَيَابِسٍ، وكيف تتحركُ جَمِيعُ القُوى، وتعملُ كُلُّ واحدةٍ فَعَلَهَا الخاصَّ بها، تتحركُ مِنْ مَبْدَأٍ وَاحِدٍ نَحْوِ غَايَةٍ وَاحِدَةٍ، وكيف جُعِلَتِ العِظَامُ قِوَامًا لِلْبَدَنِ وَدُعَامَةً لَهُ فِي الحَرَكَاتِ، وكيف جُعِلَتِ الأَعْصَابُ والرِّبَاطَاتُ تنتهي مِنْ بَعْضِ العِظَامِ إِلَى بَعْضٍ لِتَرْبِطَهَا وَتَشُدَّهَا، وجُعِلَتِ الشَّرَائِينُ والأُورِدَةُ جَدَاوِلَ تَحْمِلُ الغِذَاءَ عَلَى سَائِرِ الأَعْضَاءِ، وتدفعُ الرُّوحَ الحَيَوَانِيَّ مَعَ الدَّمِ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ غِذَائِهِ - كالزَّيْتِ لِلْمَصْبَاحِ - إِلَى سَائِرِ البَدَنِ، ثم كيف يَنْبَسِطُ الغِشَاءُ والجِلْدُ عَلَى سَطْحِ الأَعْضَاءِ، ويحويها كَاللِّفَافِيفِ، وَيَصِيرُ لَهَا حَافِظًا، يحفظُ جَوَاهِرَهَا وَأَشْكَالَهَا عَمَّا يَطْرَأُ عَلَيْهَا - عَلِمَ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ أَنَّ لَهَا خَالِقًا قَادِرًا عَلِيمًا حَكِيمًا، وَتَنَبَّهَ لِمَا فِي ذَاتِهِ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَطَائِفِ حِكْمَتِهِ، فَيَعْرِفُ أَحْكَامَهُ، وَيَدْعُوهُ ذَلِكَ إِلَى الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

ومثالُ العِلَّةِ الصُّورِيَّةِ: قَوْلُ الشَّيْخِ يَحْيَى بْنِ عَدِيٍّ - فِي قُوَّةِ الْإِنْسَانِ النَّاظِقَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ -: «هَذِهِ الْقُوَّةُ النَّاطِقَةُ هِيَ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ عَنْ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ، وَهِيَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْفِكْرُ، وَالذِّكْرُ، وَالتَّمْيِيزُ، وَالْعِلْمُ، وَالَّتِي بِهَا شَرَفُ الْإِنْسَانِ، وَعِظَمُ هِمَّتِهِ؛ فَيُعْجَبُ بِنَفْسِهِ، وَالَّتِي بِهَا يَسْتَحْسِنُ الْمَحَاسِنَ، وَيَسْتَقْبِحُ الْقَبَائِحَ، وَبِهَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يُهْدَبَ قُوَّتِيهِ الْبَاقِيَتَيْنِ: الشَّهْوَانِيَّةِ، وَالْعَضْبِيَّةِ، وَيَضْبُطَهُمَا؛ فَيَكْفُهُمَا، وَبِهَا يَتَفَكَّرُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ، فَيَبَادِرُ فِي اسْتِدْرَاكِهَا مِنْ أَوَائِلِهَا.

ولهذه القُوَّةُ فَضَائِلُ وَرَدَائِلُ: أَمَّا فَضَائِلُهَا فَاكْتِسَابُ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ،

وَكُفَّ صَاحِبِهَا عَنِ الرِّذَائِلِ وَالْفَوَاحِشِ، وَقَهَّرَ الْقَوَّتَيْنِ الْأُخْرَيَيْنِ، وَتَهَذَّبَ بِهِمَا، وَسَيَّسَتْهُ فِي مَعَاشِهِ، وَمَكَاسِبِهِ، وَحَثُّهُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَالتَّوَدُّدِ، وَسَلَامَةِ النِّيَّةِ، وَالْحِلْمِ، وَالْحَيَاءِ، وَالنُّسْكِ، وَالْعِفَّةِ، وَطَلَبِ الرِّئَاسَةِ مِنَ الْوُجُوهِ الْجَمِيلَةِ.

فمن أجل ذلك: وَجَبَ أَنْ يُهَذَّبَ الْإِنْسَانُ عَقْلَهُ، وَيُمَيَّزَ أَخْلَاقَهُ، وَيَخْتَارَ مِنْهَا مَا كَانَ مُسْتَحْسَنًا جَمِيلًا، وَيُنْكِرَ مَا كَانَ مُسْتَنْكَرًا قَبِيحًا، وَيَحْمِلُ نَفْسَهُ عَلَى التَّشَبُّهِ بِالْأَخْبَارِ، وَيَتَجَنَّبُ كُلَّ التَّجَنُّبِ عَادَاتِ الْأَشْرَارِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ صَارَ بِالْإِنْسَانِيَةِ مُتَحَقِّقًا، وَلِلرِّئَاسَةِ الذَّاتِيَّةِ مُسْتَحِقًّا.

فانظر: كَيْفَ أَثْبَتَ أَنَّ مَا يَمْتَّازُ بِهِ الْإِنْسَانُ عَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ عَقْلُهُ وَقُوَّتُهُ النَّاطِقَةُ، فَاسْتَنْتَجَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يَلْزِمُهُ الْإِهْتِمَامُ بِهِ وَمُرَاعَاتُهُ.

كيفية الاستدلال بالمعلول:

قَدْ عَرَفْتَ أَنَّ إِحْدَى الطُّرُقِ الْمَعْهُودَةِ لِتَعْرِيفِ الشَّيْءِ ذِكْرُ مَفَاعِيلِهِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْأُمُورِ خَفِيَّةٌ، وَإِنَّمَا تَظْهَرُ بِمَعْلُولَاتِهَا، فَإِنْ أُرِدْتَ أَنْ تُثَبِّتَ حُكْمًا لِأَمْرٍ أَوْ تَنْفِيَهُ عَنْهُ فَعَدَدُ مَفَاعِيلِهِ الْحَسَنَةِ أَوْ السَّيِّئَةِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ مِنْهَا عَلَى صِلَاحِ عِلَّتِهَا أَوْ فَسَادِهَا؛ إِذْ حَالُ الْمَعْلُولَاتِ حَالُ عِلَلِهَا، ثُمَّ ابْنِ حُكْمَكَ عَلَى مُقْتَضَى ذَلِكَ لِتَرْغِيبِ النَّاسِ فِيهَا، أَوْ تَرْهِيْبِهِمْ مِنْهَا، كَقَوْلِكَ فِي مَفَاعِيلِ الصَّوْمِ مَثَلًا: الصَّوْمُ يُطَهِّرُ النَّفْسَ، الصَّوْمُ يُطَهِّرُ الْجِسْمَ، الصَّوْمُ يُزَكِّي الْحِسَّ، الصَّوْمُ يُصَفِّي الذَّهْنَ، الصَّوْمُ يَنْفِي الْكِبَرَ، الصَّوْمُ يُطْفِئُ شَهْوَاتِ الْجَسَدِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَسْ عَلَى ذَلِكَ مَفَاعِيلَ تَرْكِ التَّزَوُّجِ - مَثَلًا - لِلْقَادِرِ عَلَيْهِ.

وَالْمَقْدَمَاتُ: مَا سَبَقَ الْمَقْصُودَ وَتَقَدَّمَ.



والتوالي: ما تبعه ولحق به.

ولا بُدَّ لكليهما من علاقةٍ لازمةٍ مع المقصود.

والفرق بينهما وبين العلة والمعلول: أنَّ علاقة العلة والمعلول بالمقصود علاقةٌ طبيعيةٌ واجبةٌ، أمَّا المقدمات والتوالي فإنها تلزُمُ المقصودَ لزومًا ناشئًا في الغالب عن اصطلاحات البشرِ وسُنَنِهم المألوفةِ وأخلاقهم المُتَغَلِّبةِ عليهم، ومن ثَمَّ تكون العللُ مُقَدِّمَاتٍ، والمعلولاتُ توالي، ولا عكس، كالتمييز في الإنسان الذي يتَّبَعُ سِنَّ الطُّفُولِيَّةِ، فبينهما علاقةٌ اللاحقِ بالسَّابِقِ، لا علاقة بالمعلول بالعلة.

ولمَّا كانت علاقةُ المُقَدِّمَاتِ بالتوالي لازمةً يمكنك إثباتُ المقصود بتعدادٍ ما سبقه من المقدمات، وما لحقه من التوالي، فتُبَيَّنُ ما بيَّنه وما بيَّنهما من الروابط، فإن أردت - مثلاً - أن تُوجب السرقة على إنسان أمكنك أن تُثبِتَ ذلك بما تَقَدَّمَ العملُ من استِخْفَاءِ السَّارِقِ، وتَجَسُّسِهِ للمَسْرُوقِ، ومن سوابق المُتَّهَمِ، ومن اغتنائه بعد فَقْرٍ، وغير ذلك مما يتقدَّم، أو يتلو جنابة السرقة.

والظُرُوفُ عند الحكماء والخطابيين هي: العوارض الطارئة على المقصود، فتُكَيِّفُه بكيفيَّتها، وتُخْرِجُه عن هيئته ونوعه، وإن لم تكن من جوهره وحقيقته.

مثال ذلك: حادثُ قَتْلِ؛ فإنَّه لن يتمَّ إلا في زمنٍ ومكانٍ مخصوصين، وبهيئةٍ خاصَّةٍ، ولغايةٍ محدودةٍ، وعن أشخاصٍ معروفين؛ فالزمانُ، والمكانُ، والهيئةُ والغايةُ، وصفاتُ الأشخاص - كُلُّها ظروفٌ خارجةٌ عن الأمرِ لا تَمَسُّ

جوهره؛ لأنها تتغير، والقتل يبقى قتلاً، لكنها تُغيّر صورته، وتُخرجه من نوع إلى نوع، فيكون القتل إمّا تعدّيًا وهو مذمومٌ، وإمّا دفعًا لكيدٍ صائلٍ ظالمٍ - وهو مشكور - وإن صدر من زيدٍ الفاضل فهو شهامةٌ، وإن اقترفه عمرو الشرير فهو جريمةٌ، وهلمَّ جرًّا.

والظروف من أوسع البراهين في الخطابة؛ منها يأخذ الخطيب ما يتصرّف به في وجوه الكلام، وبها يُوفّق (1) التحيل لبُلوغ غرضه من إثبات قضية أو نفيها، ومن مُغالطة خصمٍ، وتصغيرِ جناية، وتعظيمِ مُنكرٍ، وكلُّ ذلك كثيرٌ في مخاصمات الدعاوى.

ثم إن الظروف كثيرةٌ، ولكنها ترجعُ إلى ثلاثة أشياء، وهي أخصُّ الظروف:

الأول: عوارض الزمان والمكان اللذين فيهما حدث الأمر ليلاً أو نهاراً، أو يومَ عيدٍ علناً، أو في خلوةٍ في طريقٍ أو مسجدٍ.

الثاني: صفات الأشخاص الذين لهم علاقة بالأمر؛ كالفاعل وأعوانه، والشاهد، وما يتعلّق بجنسهم، وصفاتهم، وأخلاقهم، إلى غير ذلك من السنن، والوطن، والنسب، والسّمة.

الثالث: الأحوال المتعلقة بذات العمل؛ كنوعه، وهيئته، والداعي إليه. **وعلى الجملة:** فكلّما كانت هذه العوارض مُحِدَّةً بالمقصود، ملاصقةً له -

(1) هكذا ظهر لي من النسخة القديمة المُقابل عليها.



كانت جديرةً بالإقناع؛ لأنّها لكونها لواحقٌ للمقصود، وقرائنٌ عليه - تكشف عنه القناع، وتبلغُ كُنْهَ القلوب، كقول أبي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ قَبْلَ وَقْعَةِ اليرْمُوكِ - محرّضاً العرب:-

«معاشرَ النَّاسِ، أنتمُ العَرَبُ الكِرَامُ، السَّادَةُ العِظَامُ، وقد أصبحتم في ديارِ الأَعْلَاجِ (1) مُنْقَطِعِينَ عن الأهلِ والوطنِ، فاعلموا أنه لا يُنْجِيكُمْ منهم اليومَ إلا الطَّعْنُ والضَّرْبُ، تَبْلُغُونَ بذلك أَرْبَكُمْ (2)، وتناولون الفوزَ من رَبِّكُمْ، واعلموا أنَّ الصَّبْرَ في مَوَاطِنِ البَأْسِ مما يَفْرِّجُ اللهُ به الهَمَّ، ويُنجي به من الغمِّ؛ فاصدقوهم القتالَ؛ فَإِنَّ النِّصْرَ ينزل مع الصبرِ، فَإِنْ صَبَرْتُمْ مَلَكَتُمْ أَمْصَارَهُمْ، وبَلَادَهُمْ، واستعبدتُم نِسَاءَهُمْ وأَبْنَاءَهُمْ، وَإِنْ وَلَّيْتُمْ فليس بين أيديكم إلا مَفَاوِزُ لا تُقْطَعُ إلا بِالزَّادِ الكثيرِ، والماءِ الغزيرِ، وهؤلاء يَرْجِعُونَ إلى دُورٍ وقصورٍ؛ فامْتَنِعُوا بسيوفكم، وجاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ» (3).

القسم الثالث: ما يبيّنه بعرضه على سواه، وهو المقابلة والمشابهة:

فالمقابلةُ عِنْدَ الحُكَمَاءِ: هي امتناعُ وجودِ شيئين في موضوعٍ واحدٍ من جهةٍ واحدةٍ، وتُسمَّى التَّقَابُلُ - أيضاً - كالجهل والعلم، والبرّ والعقوق، والزهد والطمع.

(1) جمع عالج وهو الرجل القوي الضخم. ويُراد به الرَّجُلُ من كُفَّارِ العَجَمِ وغيرهم، «النهاية في غريب الحديث والأثر» مادة (علاج).

(2) مقصودكم.

(3) ذكرها الواقدي في «فتوح الشام» (1/ 193)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417 هـ.

وَعَمَلُهَا رَحْبُ الْفَنَاءِ فِي الْإِقْنَاعِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا مَا عُرِضَ عَلَى نَقِيضِهِ
يَزِيدُ جَلَاءً وَبَيَانًا، قَالَ الشَّاعِرُ:

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتَجَمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ (1)
وَقَدِيمًا قِيلَ: وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ.

والاحتجاج بالمقابلة على ثلاثة أوجه:

الأوّل: أَنْ تُثَبِّتَ أَحَدَ الْمُتَقَابِلَيْنِ، فَتَنْفِي الْآخَرَ، كَقَوْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي
إِبْطَالِهِ زَعَمَ قَرِيضٍ عَدَمَ عِلْمِهِ بِالْحَرْبِ: «قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ
شَجَاعٌ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ، لِلَّهِ أَبُوهُمْ، وَهَلْ أَحَدٌ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا وَأَطْوَلُ
تَجَرِبَةً مِنِّي؟ لَقَدْ مَارَسْتُهَا وَأَنَا ابْنُ الْعِشْرِينَ، وَهَا أَنَا ذَا قَدْ نَيْفْتُ عَلَى
السِّتِينَ» (2).

الثاني: أَنْ تَنْفِي أَحَدَ الْمُتَقَابِلَيْنِ فَيُثَبِّتَ الْآخَرُ؛ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ - يَنْفِي
الْحِكْمَةَ عَنِ الْمَرْءِ الْمُلَازِمِ لِهَوَاهُ:-

وَكَيْفَ تُرِيدُ أَنْ تُدْعَى حَكِيمًا وَأَنْتَ لِكُلِّ مَا تَهْوَى تَبُوعٌ (3)
وَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: كَيْفَ تَطْلُبُ عِلْمَ مَا لَمْ تَعْلَمْ، وَأَنْتَ لَا تَعْمَلُ بِمَا تَعْلَمْ.

الثالث: أَنْ تَسْتَنْبِجَ مِنْ مُتَقَابِلَيْنِ نَتِيجَتَيْنِ مُتَبَايِنَتَيْنِ، كَمُقَابَلَةِ الطَّرُوشِيِّ
بَيْنَ عَدْلِ السُّلْطَانِ وَجَوْرِهِ؛ إِذْ قَالَ - مَا مُلْخَصُهُ -: «إِنَّ السُّلْطَانَ إِذَا عَدَلَ انْتَشَرَ

(1) البيت لعلي بن جبلة. انظر «ديوانه».

(2) ذكره ابن عبد البر في «العقد الفريد» (4/ 161).

(3) البيت لأبي العتاهية. انظر «ديوانه».



العدل في رَعِيَّتِهِ، وأقاموا الوزنَ بالقسطِ، وتعاطوا الحقَّ فيما بينهم، ولَزِمُوا قوانينَ العدلِ؛ فمات الباطلُ، وذهبت رسومُ الجورِ، وانتعشتْ قوانينُ الحقِّ، فأنبَتَتِ السَّمَاءُ غِيَاثَهَا، وأخرجتِ الأرضُ بركاتِهَا.

وإذا جار السلطانُ انتشرَ الجورُ في البلادِ، وعمَّ العِبَادَ، فَرَقَّتْ أديانُهُم، واضمحلتْ مُرَوَاتُهُم، وفشت فيهم المعاصي، وذهبت أماناتُهُم؛ فَمَنَعُوا الحقوقَ، وتَعَاطَوْا الباطلَ، وَبَخَسُوا المكيالَ والميزانَ؛ فَرفَعَتْ منهم البركةُ، وأمسكتِ السَّمَاءُ غِيَاثَهَا، ولم تُخرج الأرضُ زَرْعَهَا وَبَنَاتَهَا» (1).

فَبَيَّنَ أَنَّ عَدْلَهُ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ لرعيته، ثم استنتج أَنَّ جَوْرَهُ مَصْدَرُ كُلِّ شَرٍّ لدولته.

والتَّشَابُه: هو في عُرْفِ الخطباءِ عَرَضُ أَمْرٍ على آخَرٍ؛ لِيُتَّخَذَ منه دليلاً على المقصودِ، فإن قلتَ - مثلاً -: إِنَّ حَيَاةَ الإنسانِ كسحابةٍ - اسْتَدْلَلْتَ من ذلك على فنائها وزوالها.

ومنه قولك: كيف لا تموتُ أنتَ وقد مات رسولُ الله ﷺ، والأنبياءُ من قبله؟!

وتكونُ المُحَاجَّةُ بالتشابهِ بَأَن تَسْتَنْتِجَ صِحَّةَ أَمْرٍ أو فسادهُ من صحة أو فسادِ أَمْرٍ آخَرَ يُشَبِّهه، **وذلك يكون على ثلاثة أوجه:**

الأول: أن تَعَرِّضَ المقصودَ على ما هو أكبرُ أو أكثرُ، فتستدلُّ به على صِحَّةِ

(1) انظر: «سراج الملوك» للطرطوشي (1/ 45).

ما هو أَصْغَرُ أو أَقْلُ؛ كقول أبي عُبَيْدة- يدعو أهل الشَّامِ إلى فتح مَدِينَتِهِمْ للعرب-: «لا يَغُرَّتْكُمْ عِظَمُ مَدِينَتِكُمْ، وتشِيدُ بُيَايَكُمْ، وكثُرَةُ زَادِكُمْ، وهَوْلُ أَجْسَامِكُمْ، فإننا نزلنا بلادًا أخصبَ من بلادكم، وفتحنا أمصارًا مُمَصَّرَةً، ومدائنَ أحرز من مَدِينَتِكُمْ، وخرج علينا أعلاجٌ موفورةٌ أقواتهم، مُدَّرعون مَتَرسون، لا يَقَرُّ لَوَجْهِهِمْ قَرَارٌ، فَصَلَدَ (1) نَجْمُهُمْ، وذهب أَمَامَنَا رِيحُهُمْ، وَرَدَدْنَاهُمْ عَلَى الْأَعْقَابِ لَا يَلْوِي آخِرُهُمْ عَلَى أَوَّلِهِمْ» (2).

وَعَرَضَهُ بهذا: أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ أَمَامَنَا مَنْ كَانَ أَقْوَى مِنْكُمْ، فَانْتَمَ بِذَلِكَ أَوَّلَى.

الثاني: أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى صِحَّةِ أَمْرٍِ أَعْظَمَ بَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ صِحَّتَهُ فِيمَا هُوَ أَدْقُ وَأَصْغَرُ؛ كقول الغزالي- يثبت أنه لا عَجَبَ من قُصورِ الإنسانِ عن إدراكِ كَمالاتِهِ تعالى؛ إذ لا يُدركُ الحقائقَ الطَّبِيعِيَّةَ نَفْسَهَا، وَهِيَ أَقْرَبُ مِنْهُ.

أَنْتَ لَا تَعْرِفُ إِيَّاكَ وَلَمْ	تَدْرِ مَنْ أَنْتَ؟! وَلَا كَيْفَ الْوُصُولُ؟!
أَيْنَ مِنْكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا؟!	هَلْ تَرَاهَا؟! أَوْ تَرَى كَيْفَ تَجُولُ؟!
أَنْتَ أَكَلُ الْخُبْزِ لَا تَعْرِفُهُ	كَيْفَ يَجْرِي فِيكَ؟! أَمْ كَيْفَ يَحُولُ؟!
فَإِذَا كَانَتْ طَوَايَاكَ الَّتِي	بَيْنَ جَنْبَيْكَ بِهَا أَنْتَ جَهُولُ
كَيْفَ تَدْرِي مَنْ عَلَى الْعَرْشِ	لَا تَقُلْ: كَيْفَ اسْتَوَى؟ كَيْفَ النُّزُولُ؟ (3)

(1) المراد: أَقْلُ نَجْمُهُمْ؛ أَخَذًا من قول صاحب «القاموس»: «صَلَدَ الرَّنْدُ: صَوَّتَ وَلَمْ يُورَ». اهـ. م.

[م].

(2) انظر «فتوح الشام» (1/ 133).

(3) قال رزق الله بن يوسف في «مجاني الأدب في حقائق العرب» (4/ 4، 5): روي أَنَّ الزمخشريَّ



القائل: أن يعرض المقصود على ما يُشبهه بالمساواة؛ كقول عليٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - في حُسنِ المعاملة مع الغير كَمُعَامَلَتِهِ لِنَفْسِهِ -: «اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فيما بينك وبين غيرك؛ فَأَحِبِّ لغيرك ما تُحِبُّ لنفسك، وَاكْرَهُ لَهُ ما تَكْرَهُ لها، ولا تُظْلِمَ كما لا تُحِبُّ أن تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كما تحب أن يُحَسَّنَ إليك، واستقبح من نفسك ما تَسْتَقْبِحُ من غيرك، وارْضَ مِنَ النَّاسِ ما تَرْضَاهُ لَهُمْ من نفسك، ولا تَقُلْ لَهُمْ ما لا تُحِبُّ أن يُقَالَ لَكَ» (1).

وكقول إسماعيل المُقري - فيمن يطمع في رحمة الله دون توبة، وهو لا يطلب الرزق بغير سعي.

تَقُولُ مَعَ الْعَصِيَانِ: رَبِّي غَافِرٌ صَدَقْتَ وَلَكِنْ غَافِرٌ بِالْمَشِيَّةِ
وَرُبُّكَ رَزَاقٌ كَمَا هُوَ غَافِرٌ فَلِمَ لَمْ تَصُدُقْ فِيهِمَا بِالسَّوِيَّةِ
فَكَيْفَ تُرَجِّي الْعَفْوَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ؟ وَلَسْتَ تُرَجِّي الرِّزْقَ إِلَّا
وَاعْلَمْ أَنَّ التَّشْبِيهَ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ الْبَيَانِيِّينَ - وإن كانت الغاية منه حُسنَ
البيان - إلا أَنَّهُ يَأْتِي - أَيْضًا - لِلإِقْنَاعِ، وَكَثِيرًا ما يَتَوَصَّلُ بِهِ الْخُطْبَاءُ إِلَى غَرَضِهِمْ،
كقول الشاعر - مُشَبَّهًا سُرْعَةَ زَوَالِ الدُّنْيَا وَلَدَاتِهَا بِالْحُلُمِ:

سأل الإمام الغزالي عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]. فأجاب بقصيدة منها هذه الأبيات.

وذكرها الإمام الذهبي في «العرش» (2/ 388) منسوبة لابن غانم المقدسي.

(1) انظر «شرح نهج البلاغة»، لابن أبي الحديد (16/ 84).

(2) انظر «الكشكول» للعامي (2/ 40).

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ وَمَا خَيْرُ عَيْشٍ لَا يَكُونُ بِدَائِمٍ
تَأْمَلْ إِذَا مَا نِلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَّةً فَأَفْنَيْتَهَا هَلْ أَنْتَ إِلَّا كَحَالِمٍ؟! (1)

وكقول الحسن بن عبد الله في مُصَاحِبَةِ الْمُلُوكِ: «إِنَّ الْمَلِكَ كَالْجَبَلِ الشَّامِخِ، فِيهِ الثَّمَارُ وَالْأَنْهَارُ، وَالْوَحْشُ وَالسَّبَاعُ وَالْأَخْطَارُ، فَالْوَصُولُ إِلَيْهِ صَعْبٌ، وَالْمُقَامُ فِيهِ خَطَرٌ، كَثِيرُ الْمَعَاطِبِ، وَخِيمُ الْعَوَاقِبِ».

وكثيراً ما يأتي التَّشَابُهُ على طريقِ المُقَابَلَةِ وَالطَّبَاقِ؛ كَقَوْلِ سَلَامِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَاهِلِيِّ - فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا:

تَبَّالِطَالِبِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا كَأَنَّمَا هِيَ فِي تَضَرِيفِهَا حُلْمٌ
صَفَاؤُهَا كَدَرٌ سَرَّاءُهَا شَرٌّ أَمَانُهَا غَدَرٌ أَنْوَارُهَا ظَلَمٌ
شَبَابُهَا هَرَمٌ رَاحَتُهَا سَقَمٌ لَذَائِهَا نَدَمٌ وَجَدَانُهَا عَدَمٌ
فَخَلَّ عَنْهَا وَلَا تَرْكَنُ لِزَهْرَتِهَا فَإِنَّهَا نَعَمٌ فِي طَيْهِهَا نِقَمٌ
فَاعْمَلْ لِدَارٍ نَعِيمٍ لَا نَفَادَ لَهَا وَلَا يَخَافُ بِهَا مَوْتُ وَلَا هَرَمٌ (2)

وَمِنْ قَبِيلِ التَّشَابُهِ: الْأَمْثَالُ:

وَالْمَثَلُ فِي اللَّغَةِ: النِّظِيرُ.

وفي الاصطلاح: قولٌ يُشَبَّهُ بهِ حَالُ الثَّانِي بِالْأَوَّلِ، وَالْأَصْلُ فِيهِ التَّشْبِيهُ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ:

(1) القائل: ابن عبد ربّه الأندلسي. انظر «دواوين الشعر العربي» برقم (18117).

(2) القائل: لسان الدين الخطيب. انظر «مجمع الحكم والأمثال» (3/ 435).



منها: الأمثال السائرة.

ومنها: ما جاء على ألسنة الحيوانات.

ومنها: ما كان على نوع التشابه والحكم، كما قال بعض الحكماء- في مودة الصالحين والأشرار:- «المودة بين الصالحين سريع اتصافها، بطيء انقطاعها، ومثل ذلك مثل كوز الذهب، فهو بطيء الانكسار، سريع الإعادة، هيئ الإصلاح.

والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بطيء اتصافها، ومثل ذلك مثل كوز الخرف، فهو سريع الانكسار؛ ينكسر من أدنى سبب، ولا وصل له أبداً» (1).

وفي هذا الباب تدخل تصاوير وهمية، وافتراضات مخترفة، يستنبطها الخطباء توسلاً لمطالبهم؛ كقول ابن المقفع- وقد التمس صورة حسيّة لثبيان قصر الحياة ولذاتها الزائلة:- «التمست للإنسان مثلاً، فإذا مثله مثل رجل لجأ من خوف فيل هائج إلى بئر، فتدلى فيها، وتعلق بغصنين كانا على سماها فوقعت رجلاه في طي البئر، فإذا حياّت أربع قد أخرجن رؤوسهن من أحجارهن، ثم نَظَر فإذا في قعر البئر تين (2) فاتح فاه، مُنتظر له ليقع فيأخذه، فرفع بصره إلى الغصنين، فإذا في أصلهما جردان؛ أسود وأبيض، وهما يقريضان الغصنين، دائبين لا يفترقان، فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه إذ أبصر قريباً منه كواراً فيها نخل عسل؛ فذاق العسل، فشغلته حلاوته، وألهته لذته عن

(1) انظر: «الصناعتين» لأبي هلال العسكري (1/ 244).

(2) التين: ضرب من الحيات. اهـ. م. [م].

الفكرة في شيء من أمره، وأن يلتمس الخلاص لنفسه، ولم يذكر أن تحت رجله حيات أربع، لا يدري متى يقع عليهن، ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين، ومتى انقطعا وقع على التنين، فلم يزل لاهياً غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين؛ فهلك.

فشبهت البئر بالدنيا المملوءة آفات وشُرورًا ومخافات وعاهات. وشبهت الحيات الأربع بالأخلاق الأربعة التي في البدن؛ فإنها متى هاجت أو أحدها كانت كحمة الأفاعي والسّم المميت. وشبهت الجرذين؛ الأسود والأبيض بالليل والنهار، اللذين هما دائبان في إفناء الأجل.

وشبهت التنين بالمصير الذي لا بد منه. وشبهت العسل بهذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الإنسان؛ فيطعم، ويسمع، ويشم، ويلمس، ويتشأغل عن نفسه، ويلهو عن شأنه، ويصد عن سبيل قصده»⁽¹⁾.

وعلى الجملة: فلضرب الأمثال أحسن موقع في الخطابة، قال ابن المقفع: «إذا جعل الكلام الأمثال أحسن موقع في الخطابة مثلاً كان أوضح للمنطق، وأتق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث»⁽²⁾.

(1) انظر «كليلة ودمنة» (1/ 89، 90)، المطبعة الأميرية، الطبعة السابعة عشرة، 1355هـ.

(2) شعوب الحديث: أي: تفاريقه وتفاريقه.



قال إبراهيم النَّظَّام - وقد خَصَّ بقوله الأمثال السَّائِرَة: «فِي الْمَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْكَلَامِ: إِيْجَازُ اللَّفْظِ. وَإِصَابَةُ الْمَعْنَى. وَحُسْنُ التَّشْبِيهِ. وَجُودَةُ الْكِنَايَةِ؛ فَهُوَ نَهَايَةُ الْبِلَاغَةِ»⁽¹⁾.

وَمِنْ حُسْنِ الشَّوَاهِدِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ - وَكَانَ حَجَّ فِي بَعْضِ الْأَعْوَامِ، وَأَمَرَ بِالْعَطَاءِ؛ فَأَبَى أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَبُولَ مَا أُعْطِيَ، فَرَقِيَ الْمِنْبَرُ، وَخَطَبَ، وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَتِهِ -: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَثَلُنَا وَمَثَلُكُمْ مَا قِيلَ: إِنَّ أَخَوَيْنِ خَرَجَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مُسَافِرَيْنِ، فَتَزَلَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ تَحْتَ صَفَا⁽²⁾، فَلَمَّا دَنَا الرِّوَا حُ خَرَجَتْ إِلَيْهِمَا مِنْ تَحْتِ الصَّفَا حَيَّةٌ تَحْمِلُ دِينَارًا، فَأَلْقَتْهُ إِلَيْهِمَا، فَقَالَا: إِنَّ هَذَا لَمِنْ كَنْزٍ، فَأَقَامَا عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، كُلُّ يَوْمٍ تَخْرُجُ إِلَيْهِمَا بَدِينَارٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِلَى مَتَى نَنْتَظِرُ هَذِهِ الْحَيَّةَ؟ أَلَا نَقْتُلُهَا فَنَحْفِرُ هَذَا الْكَنْزَ فَنَأْخُذُهَا؟ فَنَهَاها أَخُوهُ، وَقَالَ: مَا تَدْرِي لَعَلَّكَ تَعْطُبُ، وَلَا نَدْرُكُ الْمَالَ، فَأَبَى عَلَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ فَأَسَا مَعَهُ، وَرَصَدَ الْحَيَّةَ حَتَّى خَرَجَتْ، فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً جَرَحَتْ رَأْسَهَا، وَلَمْ يَقْتُلْهَا، فَثَارَتِ الْحَيَّةُ فَقَتَلَتْهُ، وَرَجَعَتْ إِلَى جُحْرِهَا، فَقَامَ أَخُوهُ فَدَفَنَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْعَدِ خَرَجَتْ الْحَيَّةُ مَعْصُوبًا رَأْسَهَا، لَيْسَ مَعَهَا شَيْءٌ.

فَقَالَ لَهَا: يَا هَذِهِ إِنِّي - حَقًّا - مَا رَضِيتُ مَا أَصَابَكَ، وَلَقَدْ نَهَيْتُ أَخِي عَنْ ذَلِكَ، فَهَلْ لَكَ أَنْ نَجْعَلَ اللَّهَ بَيْنَنَا، لَا تَضُرِّيَنِي وَلَا أَضُرَّكَ، وَتَرْجِعِينَ إِلَى مَا كُنْتُ

انظر: «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (1/ 27)، دار صادر - بيروت.

(1) انظر: في ترجمة «مجمع الأمثال» للميداني (1/ 1).

(2) الصفا بالقصر: الحجارة، الواحدة صفاة، كحصى وحصاة. اهـ. م. [م].

عليه؟

قالت الحية: لا.

قال: وَلِمَ ذَلِكَ؟

قالت: إني لأَعْلَمُ أَنَّ نَفْسَكَ لا تَطِيبُ لي أَبَدًا - وأنت ترى قَبْرَ أَخِيكَ - ونفسي لا تَطِيبُ لك أَبَدًا، وأنا أذكر هذه الشَّجَّةَ، وأنشدهم شعرًا للنَّابِغَةِ:

فَقَالَتْ: أَرَى قَبْرًا تَرَاهُ مُقَابِلِي وَضَرْبَةً فَأَسِ فَوْقَ رَأْسِي فَاعْرِه

فيا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: وَلَيْكُمُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ؛ فكان شديدًا عليكم، فسمعتُم له وأطعتم، ثُمَّ وَلَيْكُمُ عُثْمَانُ فكان سَهْلًا لَيْنًا، فَعَدَوْتُمْ عَلَيْهِ، فقتلْتُمُوهُ، وَبَعَثْنَا عَلَيْكُمْ مُسْلِمًا يومَ الْحَرَّةِ فقتَلَكُم ⁽¹⁾، فنحن نعلم - يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَنَّكُمْ لا تُحِبُّونَنَا أَبَدًا، وأنتم تذكرون يومَ الْحَرَّةِ، ونحن لا

(1) حَرَّةُ الْمَدِينَةِ مشهورة، وهي جهاتها التي لا عمارة فيها، وكلُّ أرض ذات حِجَارَةٍ سُودَ فِيهَا حَرَّةٌ. قال الإمامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (6 / 262): «وكان سبب وقعة الحَرَّةِ: أَنَّ وفداً من أهل المدينة قَدِمُوا على يَزِيدَ بن معاوية بدمشق؛ فَأَكْرَمَهُمْ، وأحسن جائزتهم، وأطلق لأميرهم - وهو عبد الله بن حَنْظَلَةَ بن أَبِي عامر - قَرِيبًا من مائة ألف، فلما رجعوا ذكروا لأهلهم عن يزيد ما كان يقع منه من القَبَائِحِ فِي شُرْبِهِ الْخَمْرِ، وما يَتَّبِعُ ذَلِكَ من الفواحش التي من أكبرها تَرْكُ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا بسبب السُّكْرِ، فاجتمعوا على خَلْعِهِ، فخلعوه عند المِنْبَرِ النَّبَوِيِّ، فلما بَلَغَهُ ذَلِكَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ سَرِيَّةً يَقْدِمُهَا رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ: مُسْلِمُ بن عُقْبَةَ، وإِنَّمَا يُسَمِّيهِ السَّلَفُ: مُسْرِفُ بن عُقْبَةَ، فلما وَرَدَ الْمَدِينَةَ استباحها ثلاثة أيام فقتل في غضون هذه الأيام بشرًا كثيرًا حتى كاد لا يَفُتُّ أَحَدٌ من أهلها».



نُحِبُّكُمْ أَبَدًا، ونحن نَذْكُرُ مَقْتَلَ عُثْمَانَ» (1).

والمواضع الجدليَّة العَرَضِيَّة هي - كما سبق -: الأدلَّة المأخوذة مِنْ مَصَادِرٍ خارجةٍ عن الموضوع، يحتجُّ بها الخطيبُ لإثبات قضيتِهِ.

وتلك المصادرُ نوعان: إلهيَّة، وبشريَّة.

فالإلهيَّة: ما كانت عن وَحْيٍ؛ كالكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ.

والبشريَّة: سُنَنُ الْمُشَرَّعِينَ، وأقوالُ مشاهير الأئمة، وحِكْمُ الفلاسفة، ومألوفُ عوائدِ الأمم؛ كقولِ الْمَسْعُودِيِّ - وقد تَحَرَّى وصفَ حُبِّ الوطنِ، فأورد كثيرًا مِنَ النصوص؛ تأييدًا لرايِهِ: «إِنَّ مِنْ علامةِ الرُّشْدِ أَنْ تكونَ النفسُ إلى مولدِها مشتاقَّةً، وإلى مسقطِ الرَّأْسِ تَوَاقَّةً».

وقد ذكر العلماءُ أَنَّ مِنْ علامةِ وفاءِ المرءِ ودوامِ عهده: حَينَهُ إلى إخوانِهِ، وشوقَهُ إلى أوطانِهِ، وبُغَاءُهُ على ما مضى من زمانِهِ؛ قال ابنُ الزُّبَيْرِ: «ليس الناسُ بشيءٍ مِنْ أَفْسَامِهِمْ (2) أَفْنَعَ مِنْهُمْ بأوطانِهِمْ».

وقال بعضُ حُكَمَاءِ الْعَرَبِ: عَمَّرَ اللَّهُ الْبُلْدَانَ بِحُبِّ الْأُوطَانِ.

وقالت الْهِنْدُ: حُرْمَةُ بَلَدِكَ عَلَيْكَ مِثْلُ حُرْمَةِ أَبِيكَ؛ لَأَنَّ غِذَاءَكَ مِنْهُمَا، وَغِذَاءُهُمَا مِنْهَا.

وقال آخرون: أَوْلَى الْبُلْدَانِ بَلَدُ رَضَعْتَ مَاءَهُ، وَطَعِمْتَ غِذَاءَهُ.

(1) انظر: «مُروِجُ الذَّهَبِ» لِلْمَسْعُودِيِّ (1/ 401).

(2) أي: ما قَسَمَهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْخُطُوطِ.

وقال آخر: مَيْلُكَ إِلَى مَوْضِعِ مَوْلِدِكَ مِنْ كَرَمِ مُحْتَدِكَ.

وقال بُقْرَاطُ: يُدَاوِي كُلُّ عَلِيلٍ بِعَقَاقِيرِ أَرْضِهِ؛ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ تَتَطَلَّعُ بِهَوَائِهَا، وَتَنْزِعُ إِلَى غَذَائِهَا.

وقال أَفْلَاطُونُ: «غِذَاءُ الطَّبِيعَةِ مِنْ أَنْفَعِ أَدْوِيَّتِهَا».

وقال جَالِينُوسُ: «يَتَرَوَّحُ الْعَلِيلُ بِنَسِيمِ أَرْضِهِ، كَمَا تَثُوبُ الْحَبَّةُ بِبَلِّ الْقَطْرِ».

وَلِلنُّفُوسِ حَيْنٌ إِلَى الْأُوطَانِ - وَإِنْ لَمْ يَطِبْ مَاؤُهَا وَهَوَاؤُهَا - وَلِذَا يَقُولُ بَعْضُ الْأَعْرَابِ - يَصِفُ وَطَنَهُ:

وَكُنَّا أَلْفَنَاهَا وَلَمْ تَكُ مَأْلَفًا وَقَدْ يُؤْلَفُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ
كَمَا تُؤْلَفُ الْأَرْضُ الَّتِي لَمْ يَطِبْ هَوَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلِكِنَّهَا وَطَنُ
وَمِنْ الشَّوْقِ إِلَى الْوَطَنِ: حَيْنٌ بِلَالٍ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَبِالْبَخَارِيِّ
مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ: أَنَّ بِلَالَ كَانَ إِذَا أَقْلَعَ عَنْهُ الْحُمَّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ، يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خَرْتُ وَجَلِيلُ؟ (1)
وَهَلْ أَرَدَنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَحْنَةٍ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ؟ (2)

وَأَحَقُّ الْبَرَاهِينِ الْجَدَلِيَّةِ بِالْإِقْنَاعِ مَا كَانَ - مَعَ صِحَّتِهِ - أَكْشَفَ لِلْعَادَّةِ، وَأَقْرَبَ إِلَى أَفْهَامِ الْجُمْهُورِ، وَأَحْسَنَ وَقَعًا فِي النُّفُوسِ، وَعَلَيْهِ يَلْزُمُ الْعُدُولُ عَنْ

(1) الْإِذْخَرُ: الْحَشِيشُ الْمَعْرُوفُ. وَجَلِيلُ: نَبْتُ ضَعِيفٌ، وَهُوَ الثَّمَامُ. [م].

(2) مَحْنَةٌ: مَوْضِعٌ عَلَى أَمِيَالٍ مِنْ مَكَّةَ، وَشَامَةٌ وَطَفِيلٌ جَبَلَانِ عَلَى نَحْوِ ثَلَاثَيْنِ مِيلًا مِنْهَا. [م].



الأدلة العويصة المستوجبة بياناً علمياً لا تتناولهُ عقولُ القومِ بسهولةٍ - ما لم
يَكُن السَّامِعُونَ مِنْ ذَوِي الخَوَاطِرِ الثَّاقِبَةِ، أَوْ مِمَّنْ يُغْنِيهِم التَّلْوِيحُ عَنِ التَّصْرِيحِ.



المبحث الثاني: في الآداب الخطابية

لَمَّا كَانَتْ غَايَةُ الْخَطِيبِ إِرْضَاءَ السَّامِعِينَ لَمْ يَكْفِهِ فِي تَرْوِيجِ مَقْصُودِهِ: أَنْ يُظْهِرَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالْأَدْلَةِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَحْتَالَ عَلَى الْقُلُوبِ، وَيَجْذِبَهَا إِلَيْهِ، وَهَذَا أَمْرٌ سَهْلٌ الْمُتَنَاوَلِ - إِذَا رَاعَى الْخَطِيبُ الْآدَابَ الْمَرْضِيَّةَ الَّتِي بِهَا تَنْقَادُ لَهُ الْقُلُوبُ.

وآدابُ الخطابة: صفاتٌ، وأخلاقٌ حسنةٌ، يتحرَّرها الخطيبُ، فَيَسْتَدْنِي بِهَا قُلُوبَ السَّامِعِينَ، وَيَسْتَمِيلُهَا إِلَى مَا يَقُولُ، وَهِيَ نَوْعَانِ: فَإِنِهَا إِمَّا أَنْ تُعْتَبَرُ فِي نَفْسِ الْخَطِيبِ، أَوْ فِي نَفْسِ السَّامِعِ.

النوع الأول: آداب الخطيب النفسية، وهي عشر صفات:

الصفة الأولى: سدادُ الرأي، وهو أصالةُ العقلِ، وعلمُهُ التَّامُّ بالموضوع، وتمييزُهُ لوجوه الأمور، ومعضلاتِ المشاكل؛ حَتَّى يَتَأَثَّرَ السَّامِعُ لِقَوْلِ الْخَطِيبِ وَيَنْقَادُ لَهُ، فَلَوْلَا ذَلِكَ لَتَنَكَّبَ عَنْهُ السَّامِعُ اسْتِهْوَانًا بِضَعْفِ عَقْلِهِ، وَسَقَطَتْ حُجَّتُهُ أَمَامَ خَصْمِهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

مَتَى مَا تَقْدُ بِالْبَاطِلِ الْحَقَّ يَأْبَهُ وَإِنْ قُدْتَ بِالْحَقِّ الرَّوَاسِي تَنْقَدُ ⁽¹⁾

(1) القائل: قَيْسُ بْنُ الْحَطِيمِ. انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (1/ 590).

ويثبت لدى السامعين سداد رأي الخطيب بإيراد قضيتيه على صورة جليّة قريبة المنال، وتمكينها في نفس السامع بالحجج اللامعة، والشواهد الثيرة، واستدراك اعتراضات الخصم، وتفنيدها، كقول الإمام عليّ - كرم الله وجهه - من خطبة أراد أن يثبت فيها غرور الدنيا، فقال: «أيّها الناس، إنّ الدنيا تُغرّ المؤمل لها، والمُخِلد إليها»⁽¹⁾، ولا تنفسُ بمن نَفس فيها⁽²⁾، وتغلبُ مَنْ غلب عليها، وإيْمُنُ الله ما كان قومٌ قَطُّ في غَصٍّ نعمة⁽³⁾ من عيشٍ فزال عنهم إلا بذنوبٍ اجتَرَموها؛ لأنّ الله ليس بظلامٍ للعبيد، ولو أنّ الناس حين تنزل بهم التَّقْمُ، وتنزل عنهم التَّعْمُ - فزِعُوا إلى ربّهم بصدقٍ من نيّاتهم وولّه من قلوبهم لردّ عليهم كلّ شاردٍ، وأصلحَ لهم كلّ فاسدٍ، وإني لأخشى عليكم أن تكونوا في فترةٍ، وقد كانت أمورٌ مَضَتْ ملتم فيها ميلةٌ كنتم فيها غيرَ محمودين عندي، ولئن ردّ عليكم أمرُكم إنَّكم إذا لسعداء»⁽⁴⁾.

الصفة الثّانية: صدق اللّهُجّة، وهي صفةٌ يتّصفُ بها الخطيبُ في حاله وقّاله؛ ليثبت عند السامعين خُلوص نيّته، واستقامة عمّله، وجرّصه على الحقيقة.

(1) في الأصل: فيها، والتصويب من «شرح نهج البلاغة» (61 / 10)، دار إحياء الكتب العربية. والمعنى: المائل إليها؛ قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 176].

(2) أي: لا تَضن به، والمعنى: أنّ مَنْ نَافَسَ في الدنيا فإنّ الدنيا تُهينه.

(3) في الأصل: «غصن نعمة»، والتصويب من «شرح نهج البلاغة» (61 / 10). والمعنى: أي: في نعمة طريّة ناضرة.

(4) «شرح نهج البلاغة» (61 / 10، 62)، وانظر «عيون الأخبار» لابن قتيبة (2 / 257)، دار الكتب العلمية - بيروت.

والوسيلة لِقُرْبِ الخطيبِ مِنْ عُقُولِ السَّامِعِينَ بِصَدَقِ لَهْجَتِهِ: أَنْ يَظْهَرَ
على مَلَاجِهِ في أَثْناءِ خُطابِهِ ما انْطَوَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مِنَ الصِّدْقِ، وَالصَّلَاحِ،
وَحُسْنِ الطَّوَيَّةِ، وَسَلَامَةِ النَّيَّةِ؛ حَتَّى تَمْتَلِئَ الصُّدُورُ ثِقَةً بِهِ، فَيَزِيدُ مَيْلَهُمْ إِلَى
رَأْيِهِ، وَرُكُونَهُمْ إِلَى تَصْدِيقِهِ؛ قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ:

وَالْقَوْلُ أَبْلَغُهُ مَا كَانَ أَصْدَقَهُ وَالصِّدْقُ فِي مَوْقِفٍ مُسْتَسْهَلٍ عَالٍ

الْصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ.

وَمُوجِبَاتُ الْمَوَدَّةِ كَثِيرَةٌ؛ مِنْهَا: الْوَقَارُ، وَالتَّصَوُّنُ.

وَمِنْهَا: الْوَفَاءُ، وَالْأَمَانَةُ، وَالنِّزَاهَةُ، وَعُلُوُّ الْهِمَّةِ حَتَّى يُفْهِمَهُمْ أَنَّهُ خَالٍ مِنْ
الْأَغْرَاضِ، لَا يَسْعَى إِلَّا لِلْخَيْرِ الْمَحْضِ.

وَيَتِمَكَّنُ الْخَطِيبُ مِنَ التَّحَبُّبِ إِلَى سَامِعِيهِ، بَيَانِ أَنْ قِصَارَى بُغْيَتِهِ
مَصَالِحُهُمْ، وَأَنَّهُ يُؤَثِّرُ أَمْرَهُمْ عَلَى شُؤْنِهِ الْخَاصَّةِ، وَأَنَّهُ يُعْنَى بِأَمْرِهِمْ فَوْقَ عَنَائِيَتِهِمْ
بِأَنْفُسِهِمْ، وَيَسْعَى فِي تَرْوِيحِ أَغْرَاضِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِذَا أَجَابُوهُ نَالُوا الْمَنَافِعَ الْجَمَّةَ؛ كَقَوْلِ
ذِي الْوَزَارَتَيْنِ ابْنِ الْقَصِيرَةِ عَلَى لِسَانِ الْخَلِيفَةِ إِلَى أَهْلِ مِكنَاسَةٍ - وَكَانُوا خَلَعُوا
رِبْقَةَ الطَّاعَةِ:-

«أَمَّا بَعْدُ: أَصْلَحَ اللَّهُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ مَا اخْتَلَّ، وَأَصَحَّ مِنْ وُجُوهِ
صِلَاحِكُمْ مَا اعْتَلَّ؛ فَقَدْ بَلَّغْنَا مَا أَنْتُمْ بِسَبِيلِهِ مِنَ التَّقَاطُعِ وَالتَّدَابُرِ، وَمَا رَكِبْتُمْ
رُءُوسَكُمْ فِيهِ مِنَ التَّنَازُعِ وَالتَّهَاتُرِ، قَدْ اسْتَوَى فِي ذَلِكَ عَالِمُكُمْ وَجَاهِلُكُمْ،
وَصَارَ شَرْعًا سَوَاءً فِيهِ نَبِيْهُكُمْ وَخَامِلُكُمْ؛ لَا تَأْتَمِرُونَ رُشْدًا، وَلَا تُطِيعُونَ
مُرْشِدًا، وَلَا تَأْتُونَ سَدَادًا، وَلَا تَنْحَوْنَ مَقْصِدًا، وَلَا تُفْلِحُونَ إِنْ لَمْ تَنْزِعُوا عَنْ



غَوَايَتِكُمْ أَبَدًا.

فَلَا يَسُوغُ لَنَا أَنْ نَتْرُكَكُمْ فَوْضَى، وَنَدَعَكُمْ سُدىً، وَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَخْذِ قَنَاتِكُمْ بِثِقَافٍ⁽¹⁾، إِمَّا أَنْ تَسْتَقِيمَ، أَوْ تَتَشَطَّى قَصْدًا⁽²⁾.

فَتُوبُوا مِنْ ذَنْبِ التَّبَاغُضِ بَيْنَكُمْ وَالتَّبَايُنِ، وَاعْصُوا شَيَاطِينَ التَّحَاقُّدِ وَالتَّشَاحُنِ، وَكُونُوا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا، وَفِي ذَاتِ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا تَجْعَلُوا لِلْعُقُوبَةِ عَلَيْكُمْ يَدًا وَلَا سُلْطَانًا، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ نَزَعَ بَيْنَكُمْ بَشَرًا، أَوْ نَفَثَ فِي فِتْنَةٍ بَصُرًا، وَقَامَ عِنْدَنَا عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، وَاتَّجَهَ إِلَيْهِ السَّبِيلُ - أَخْرَجْنَاهُ عَنْكُمْ، وَأَبْعَدْنَاهُ مِنْكُمْ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ، وَلَا تَتَوَلَّوْا عَنِ الْمَوْعِظَةِ وَأَنْتُمْ مُعْرَضُونَ، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(١١)
[الأنفال: 21]، وَحَسَبْنَا هَذَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ⁽³⁾.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: رَبَاطَةُ الْجَائِشِ، وَشِدَّةُ الْقَلْبِ، وهذه الصفة منشأ صفات كثيرة حسنة، فإنها تحفظ له كرامته في أعين الجمهور، وتستبقي كل عقله معه وهو يخطب، فيسدد، ويتفنن، ويرتب قوله، ويحكم مقاطعه، ويلحظ حركات

(1) القناة: الرُّمَح. والثقاف: إقامة الشيء المعوج وتسويته. والمعنى: لا بد من تهذيبكم وعلاجكم.

(2) تتشظى: تشتت. والقصد من الرِّمَاح: المُتَكَسِّر. والمعنى: أو تشتت وحدثكم؛ فلا تقوم لكم قائمة.

(3) انظر «قلائد العقيان»، للفتح بن خاقان (1/ 105، 106)، و«خريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الأصبهاني (2/ 899).

الجمهور؛ حتى يُنهلهم المناهل التي يسوقهم الظمأ إليها.

الصفة الخامسة: البديهة الحاضرة؛ فقد يطرأ على الخطيب في أثناء خطابته أو على أثرها ما يلجئه إلى الكلام، فإن لم تواته بديهته بكلامٍ يُماثل الأول أو يتفوق عليه سَقَطَ ما بناه، ولا كذلك إذا كان يغترف من طبعٍ نافع.

الصفة السادسة: أن يكونَ طلقَ اللسان، بريئاً من الحصرِ والعِي، واللجلجة⁽¹⁾، والتمتمة⁽²⁾، والفأفة⁽³⁾، والجمجمة⁽⁴⁾، والثَّرثرة⁽⁵⁾، وسماجة التكلّف، والإغراب، وما شاكل ذلك من العيوب المشهورة.

الصفة السابعة: الحذق في إدراك مقتضى الحال، وملاحظة طوائف الناس من الأعلى، والأوسط، والأدنى؛ فيختار من الألفاظ ما يُناسب كل طائفة، ولا يجرح أحداً ممن يتحبّب إليهم حتّى تبقى لخطابته هِزّة في كلّ قلب، وتُستريح إلى مغزاها كلّ نفس، والحاذاق من يعرف الطّباع الغالبة على الجمهور، فيأتي إليهم من ناحيتها، وسيأتي بيانها.

الصفة الثامنة: المهارة في إثارة أهواء الأنفس، وتحريك شهوات العقول، حتى يجعل أزيمة الحبّ والبغض، والرغبة والتفوّر، والفرح والحزن، والرجاء واليأس، والشجاعة والجبن، والحمية والأنفة، والرحمة والإشفاق، والحلم

(1) الحصر: ضيق الصدر عند التطق. والعِي: ضدّ البيان. واللجلجة: ترديد الكلام.

(2) ردّ الكلام إلى التاء، والميم. [م].

(3) ترديد الفاء. [م].

(4) عدم تبين الكلام. [م].

(5) الثَّرثرة: التفريق والتبديد. والثَّرثار: المكثار.



والغضب، وغير ذلك من مشاعر النفس - في قبضة يده، وتصرّف بيانه، وسيأتي بيان طرق الوصول إلى إثارة الأهواء.

الصفة التاسعة: سعة الاطلاع؛ فإنّ الخطابة - كما تقدّم - ليس لها موضوع خاصّ تبحث عنه، بل ترتبط بكلّ شأن من شئون النّاس في دينهم ودنياهم، ومسالك القول فيها متشعبة تشعب مسالك الكتابة، فكما يكون الكاتب ملماً بكلّ صنف من أصناف المعارف، كذلك يكون الخطيب.

ولهذا لا يُسمّى من يخطب خطبةً محفوظةً، أو يُجيد الخطبة في شيء دون غيره خطيباً، وإنما يجوز أن يبرّع بعض الخطباء في فنّ، حتى يكون به خصباً؛ كالذين يبرعون في الخطب السياسيّة أو الوعظيّة؛ فإنّ هؤلاء لا يُسمون خطباء على الإطلاق، إلا إذا كانوا يضمّون إلى ما اختصوا به معرفتهم بسواه - وإن كانت دونه.

الصفة العاشرة: التّجمل في شارته وإشارته، وملابسه وهيئته، وحبّ النّظام في كلّ ما يحتفّ بالخطبة.

وهذا - وإن لم يكن من الصّفات التي تقوم عليها الخطابة - إلا أنّه أمرٌ تجب العناية به؛ لأنّه مَطْمَحُ الأنظار، والتّظَرُّفُ في القلب كما يفعل السّمع، فهو من هذه الناحية لا ينقص اعتباره عن اعتبار الصّفات الأصليّة.

وجملّة القول: إنّهُ يجب على الخطيب أن يكون أحرص على الكمال، وأبعد عن النّقص، فإنّ الذي يُنصب نفسه لقيادة الجمهور يجب أن يكون من الفطنة والسّداد بمنجاةٍ من أقلّ الهفوات؛ فإنّ أدنى هفوة تُسقط اعتباره،

وَتَهَوُّنٌ عَلَى النَّاسِ أَمْرُهُ، حَتَّى يَجْعَلُوا مَجْلِسَهُ مَلْهَأَةً مِنَ الْمَلَاهِي، لَا عِبْرَةً مِنْ الْعِبَرِ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

النوع الثاني: في آداب السامعين وأخلاقهم:

مَعْلُومٌ أَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا، وَلِكُلِّ نَفْسٍ إِعْرَاضًا وَإِقْبَالًا، فَلَا يُخَاطَبُ أَشْرَافُ النَّاسِ وَأَوْسَاطُهُمْ وَسُوقُهُمْ بِخَطَابٍ وَاحِدٍ.

فَأَوْلُنَاكَ يَفْهَمُونَ الْإِشَارَةَ، وَهَؤُلَاءِ يَحْتَاجُونَ لِبَسْطِ الْكَلَامِ، فَعَلَى الْخَطِيبِ أَنْ يُوفِّيَ كُلًّا حَقَّهُ مِنَ الْفَهْمِ وَالذِّكَاةِ، وَيُعْطِيَهُ نَصِيبَهُ مِنَ التَّبَاهَةِ وَسَعَةِ الْأَدَبِ، ثُمَّ لِيَرَاعَ أَطْوَارَ الْأَعْمَالِ مِنْ شَابِّ فِتْيِ السَّنِّ، أَوْ كَهْلٍ تَامَ الْقُوَّةِ، أَوْ شَيْخٍ وَقُورٍ مَهِيْبٍ، فَإِنَّ لِكُلِّ سِنٍّ خَوَاصَّ وَأَخْلَاقًا تَضْطَرُّ الْخَطِيبَ إِلَى التَّائِقِ فِي مَقَالِهِ، وَالتَّقْنِ فِي كَلَامِهِ مَعَ كُلِّ صَنْفٍ عَلَى مِقْدَارِ مَبْلَغِهِ مِنَ الْفَهْمِ، وَاسْتِعْدَادِهِ لِقَبُولِ مَا يُرِيدُ غَرْسَهُ فِي النَفُوسِ؛ لِئَلَّا يَجْرِيَ شُعَاعُ بِلَاغَتِهِ فِي غَيْرِ مَحْرَأَةٍ، وَيَنْظُمَ جَوْهَرَ كَلَامِهِ فِي غَيْرِ مَسْلُكِهِ.

وَقَدْ غَلَبَ عَلَى الْأَعْيَانِ الْأَحْرَارِ أَتْبَهُةُ السَّلْطَنَةِ، وَهَيْبَةُ الْأَمْرِ، وَإِبَاءُ الطَّبَعِ، وَعُلُوُّ الْهِمَّةِ، وَتَمَامُ الْمُرُوءَةِ، إِلَّا أَنَّهُ يَظْهَرُ فِيهِمْ خِيَلَاءٌ وَعَظْمَةٌ وَتَفَاخُرٌ يُجْبُونَ الْإِطْرَاءَ، وَيَأْبُونَ قَبُولَ التَّأْدِيبِ، وَلَا يَنْقَادُونَ إِلَى التَّصْحِجِ.

وَطُبِعَ الْأَغْنِيَاءُ عَلَى التَّيِّهِ وَالصَّلَفِ تُبْطِرُهُمُ الْكَرَامَةُ، وَيُطْغِيهِمُ الْمَالُ، وَتُشْغِلُهُمُ الْحَذَرُ وَالْحِرْصُ؛ يَتَعَاضَمُونَ عَلَى الْفَقِيرِ، وَيَتَطَاوِلُونَ عَلَى مَنْ دُونِهِمْ، يَتَكَلَّفُونَ طَبَاعَ السَّادَةِ، وَلَا يَقْتَصِدُونَ فِي الْمَلَابِسِ، وَلَا سِيَمَا حَدِيثِ الْعَهْدِ مِنْهُمْ بِالنَّعَمِ.



وأما العلماء ففيهم كرم الأخلاق، وصحة الأغراض، وقلة المطامع في المال؛ يرتاحون إلى السُّمعة الحسنة، ويُحبُّون التوقيرَ والتعظيمَ والتُّعوتَ الدالة على التَّفوقِ في العلوم العالية.

وجملة القول: إِنَّ لِكُلِّ طبقةٍ مِنَ النَّاسِ طَباعًا تُمَيِّزُهُمْ على اختلاف مِهَنِهِمْ وصِناعاتِهِمْ وأديانِهِمْ، وأوطانِهِمْ - لا بُدَّ للخطيبِ مِنْ مُراعاتِها، وعلى مقدارِ هذه المُراعاةِ تَسْمُو مكانتُهُ عندَ الجُمهورِ.



المبحث الثالث: في الأهواء

قد عرفت أنَّ غاية الخطيبِ إقناعُ السَّامِعِ، وحمُّهُ بالبرهانِ على فضيلةٍ أو تركِ رذيلةٍ.

ولمَّا كان الإنسانُ مُركَّبًا مِن رُوحٍ وجِسْمٍ لا يَكفي الخطيبُ أن يُوجِّهَ كلامه إلى القُوى العقلية فقط، بل يجب عليه - أيضًا - أن يُثيرَ من السَّامِعِ القُوى الحسِّيَّةَ المشتركة بين النَّفس والجسد؛ كالمخيلة والأُميَّال الغريزيَّة التي تدفعُ الإنسانَ إلى طلبِ ما يَرغِبُهُ، وتُنَفِّرُهُ مما يَرهَبُهُ، والأُميَّال الغريزيَّة هي المُسمَّاة بالأهواء.

حقيقة الأهواء، وأقسامها، وكيفية تحريكها في نفس السَّامِعِ:

الهوى في اللُّغة: مُطلق الشَّهْوَةِ؛ محمودةٌ كانت، أو مذمومةٌ.

وفي الاصطلاح: مَيْلُ النَّفْسِ إلى ما يُلائِمُهَا من الخيرِ الحسِّيِّ، أو إعراضها عما يُنافرها من الشرِّ المَحسوسِ.

وقد حدَّها أرسطو في كتاب «الخطابة» بقوله: «إنَّ الأهواءَ انفعالاتٌ في النَّفْسِ، تثير بها حزنًا، أو لَذَّةً، بحيث إنَّ حُكمَهَا في الشيء الواحدِ يختلف عَمَّا



كان» (1).

وليست نفس الإنسان الناطقة مُنفصلةً عن نفسه الحيوانية، فبمجرد إدراك العقل للخير أو الشرّ تهيجُ في الإنسان نفسه الحيوانية التي تستهوي النفس الناطقة، لكن للناطق الحُكم الأعلى؛ فإمّا أن تكبح ميل النفس الحيوانية، وإمّا أن تنقاد إليه طوعاً، فتتأثر، وتندفع إليه مع النفس الحيوانية، وهو المراد من تحريك الأهواء.

والمثير للأهواء قوتان في الإنسان: القوة الشهوانية، والقوة العصبية.

فقوة الشهوة تدفع الإنسان إلى طلب الخير المرغوب فيه.

وقوة الغضب تُنقّره من الشرّ المرهوب.

فمرجع الأولى إلى الحبّ، والثانية إلى البُغض.

ومن الحبّ والبُغض تتولّد باقي الانفعالات.

والخطيبُ يستطيع أن يُحرّك عواطف الجمهور بالتعمّق في درس موضوعه حتى تتشربهُ مُخيّلاتُهُ، ويتأثر به شعوره، وبذلك يتمكن من التأثير في الغير، وبأن يُبرز أدلّته في صورة محسوسة؛ فيصف ما ينتج عن الأمر من الخير والشرّ وصفاً يعمل في مُخيّلة السامع، ويبعث إرادته الساكنة، فتتولد من ذلك العواطف الدافعة إلى مباشرة العمل، أو اجتنابه.

وأهواء النفس الشهوانية هي: المحبة والبُغض، والرغبة والتفور، والفرح

(1) انظر «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور (23/ 388).

والحزن.

وأهواء النفس الغضبية: الرجاء والقنوط، والشجاعة والجبن، والحلم والغضب.

ويتمكّن الخطيب من تحريك المحبة في القلوب:

أولاً: ببيان محاسن المحبوب ومزاياه.

وثانياً: أن يذكر جميل فضله، وحسن معرفه، وسابغ نعيمه؛ كقول أبي تمام في المعتضد بالله:

إلى قطب الدنيا الذي لو بفضله	مدحت بني الدنيا كفتهم فضائله
من البأس والمعروف والجود	عيال عليه رزقهن شمائله
هو البحر من أي النواحي أتته	فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه	تناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه	لجاد بها فليتق الله سائله (1)

ومثيرات البغض أضداد مثيرات الحب.

والرغبة: حركة في النفس، تحملها على إرادة لذة مأمولة.

وهي صنفان: محسوسة؛ كذات الحواس.

ومعقولة: كذات العلم والفضيلة.

(1) انظر «ديوان أبي تمام»، و«نفح الأزهار في منتخبات الأشعار»، للبتلوني (ص 39).



وَيَتَوَسَّلُ الْخَطِيبُ إِلَى إِثَارَةِ الرَّغْبَةِ فِي التُّفُوسِ بِتَعْظِيمِ الْمُرَغَّبِ فِيهِ، وَتَزْيِينِهِ فِي عُيُونِ السَّامِعِينَ، مَعَ ذِكْرِ قُرْبِ مَنَالِهِ، وَحَاجَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَذِكْرِ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَنْجُمُ عَنْهُ، وَمَا يُثِيرُ التُّفُورَ ضِدَّ مَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ بِأَنْ يُصَوِّرَ لِلنَّفُوسِ وَجُوهَ الْمَضَارِّ الْحَاصِلَةِ عَمَّا أَرَادَ التَّنْفِيرَ عَنْهُ، مَعَ قُبْحِهِ وَشَنَاعَتِهِ.

والفَرَحُ: لَذَّةٌ فِي الْقَلْبِ لِتَيْلِ الْمُشْتَهَى ⁽¹⁾.

وأصدق وسيلة لتحريك شعور الفَرَحِ في القلوبِ أمورٌ ثلاثة:

الأول: صِفَةُ الْفَرَحِ النَّاشِئِ عَنْ إِصَابَةِ الْخَيْرِ الْمَقْصُودِ.

الثاني: ذِكْرُ مَا لَحِقَ النَّاسَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْحُزْنِ قَبْلَ إِدْرَاكِهِ.

الثالث: الْإِسْتِرْسَالُ فِي ذِكْرِ التَّعَمَّةِ، وَجَمِيلِ عُقْبَاهَا، وَطِيبِ جَنَاهَا بَعْدَ طَوِيلِ انْتِظَارِهَا، أَوْ الْيَأْسِ مِنَ الْحَصُولِ عَلَيْهَا.

وَمِنْ أَقْوَى مُثِيرَاتِ الْحُزْنِ بَسْطُ الْكَلَامِ فِي هَوْلِ الْخَطْبِ وَعِظَمِ الْمِحْنَةِ، ثُمَّ تَعْدِيدُ مَزَايَا الْمَفْقُودِ، وَبَيَانُ جَدَارَتِهِ بِالْجَزَعِ وَالْحُزْنِ، مَعَ إِيرَادِ الْخَطِيبِ أَشَدَّ الْأَلْفَاظِ سَطْوَةً عَلَى الْقَلْبِ فِي وَصْفِ مَا تَرَكْتَ الْمَصِيبَةُ مِنَ الْأَسَى وَالْكَآبَةِ.

والَّذِي يَبْعَثُ الرَّجَاءَ فِي الْقُلُوبِ أَمْرَانِ:

الأول: أَنْ يَصِفَ الْخَطِيبُ عِظَمَ الْخَيْرِ الْمُبْتَغَى؛ كِي يُحِبِّبَهُ إِلَى التُّفُوسِ، وَيَصْرِفَهَا إِلَى طَلْبِهِ.

(1) انظر «تفسير البغوي» (7/ 315)، و«مدارج السالكين» (3/ 148).

الثاني: أن يُبينَنَّ الأمرَ المقصودَ ليس بعيدَ المنال، ولا عَزِيزَ المَطْلَب، بل سهل المُلْتَمَس؛ لما في اليد من الوسائل الصَّادقة المؤدِّيَّة لإدراكه؛ كالجنود المُخلصين، والأقواتِ الموفُورَةِ، والعُدَد، وسُمُو الهِمَّة، وحُسن القيادة، والثَّقة بحول الله، وضعف العدوِّ، إلى غير ذلك.

كما روى المَسْعُودِيُّ والطَّبْرِيُّ عن الإمام عليٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يوم صفين - وهو يحضُّ الأنصارَ على مُعاوية وأصحابه، ويُقَوِّي فيهم روحَ الأمل في الظَّفَر بهم: «يا معشرَ الأنصار، عَمُّوا الأصوات، وأكملوا اللَّأَمَةَ⁽¹⁾، واستشعروا الحَشِيَّة، وقلقلوا السُّيُوفَ في الأجفان قبل السَّلَّة⁽²⁾، والحظوا الشَّرَرَ⁽³⁾، واطعنوا الهَبَرَ⁽⁴⁾، ونافحوا بالطَّبِي⁽⁵⁾، وصلُّوا السُّيُوفَ بالخطأ⁽⁶⁾، والتَّبال بالرمَّاح.

إنَّ هؤلاء لن يُزالوا عن مَوقفهم دون طعنٍ يخرج منه النَّسيم⁽⁷⁾، وضَرْبٍ يَفْلِقُ الهامَ، وَيَشْجُ العظامَ، وتَسْقُطُ منه المَعاصِمُ والأَكُفُّ، حتى تُشدَّخَ جباهُهم بعمُدِ الحديد، وتُنْتَرَّ لمُهمهم⁽⁸⁾ على الصُّدور والأذقان.

(1) اللَّأَمَةُ: الدَّرْعُ المُحَكَّمَةُ المُلتَثِمَةُ. [م].

(2) أي: حَرَّكُوا السُّيُوفَ في أَعْمادِها قبل سَلَّها؛ لِئلاَّ يدوم مُكْثُها في الأَجْفان، فَتَنْشَبَ في أَعْمادِها، ولا تَخْرُجَ منها.

(3) الشَّرَرُ: نَظَرُ العَضْبَانِ بِمُؤَخَّرِ العَيْنِ. [م].

(4) الهَبَرُ: ضَرْبٌ يَقْطَعُ اللحمَ قِطْعًا كِبَارًا. [م].

(5) نافحوا: دَافِعُوا. والطَّبِي: كَالْهُدَى، جَمْعُ ظَبَّةٍ بِالتَّخْفِيفِ، وَهِيَ حَدُّ سَيْفٍ، أَوْ سِنَانٍ، وَنَحْوُهُ. [م].

(6) اجعلوا سيوفكم مُتَّصِلَةً بِخُطُواتِ أَعْدائِكُمْ. اهـ. م. [م].

(7) أي: طعن واسع يخرج منه الرِّيحُ اللينة.

(8) جَمْعُ لِمَةٍ، بِالْكَسْرِ، وَهِيَ: الشَّعْرُ الَّذِي يُجَاوِزُ شَحْمَةَ الأُذُنِ. [م].



أين أهل الصبر، وطلاب الأجر؟

طُيِّبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا؛ فَإِنَّكُمْ بَعَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى (1)، وَمَعَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ!

عَاوِدُوا الْكَرَّ، وَاسْتَقْبِحُوا الْفَرَ؛ فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ.
وَدُونَكُمْ هَذَا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ وَالرَّوَّاقُ الْمُطْنَبُ (2)؛ فَاضْرِبُوا ثَبَجَهُ (3)،
فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رَاكِبٌ صَعِيدَهُ، مُفْتَرِشٌ ذِرَاعِيهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلوُثْبَةِ يَدًا، وَأَخَّرَ
لِلنُّكُوصِ رِجْلًا.

فَصَبْرًا صَبْرًا حَتَّى يَنْجِلِيَ وَجْهَ الْحَقِّ، وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ، وَلَنْ
يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (4)» (5).

وَمَا يُثِيرُ الْقُنُوطَ فِي الثُّفُوسِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنْ أَمْرٍ يُرِيدُونَهُ: أَنْ
يُبَيِّنَ الْخَطِيبُ صَعُوبَةَ الْأَمْرِ الَّذِي يَتَطَلَّعُونَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مُعْجَزُ الدَّرَكِ، تَحُولُ دُونَهُ
مَخَاطِرُ وَمَشَاقُّ لَا يَقْتَحِمُهَا إِلَّا الْغَيُّ الْجَاهِلُ الْبَاحِثُ عَنْ حَتْفِهِ بِظُلْفِهِ.

والشجاعة: هيئةٌ حاصلةٌ للقوة الغضبية، بها يُقدم الإنسان على ما يجبُ

(1) مَلْحُوظِينَ بِهَا. [م].

(2) الرَّوَّاقُ ككِتَابٍ وَغَرَابِ الْفِسْطَاطِ. وَالْمُطْنَبُ: الْمَشْدُودُ بِالْإِطْنَابِ، جَمْعُ طُنْبٍ بِضَمَّتَيْنِ: حَبْلٌ يُشَدُّ بِهِ سُرَادِقُ الْبَيْتِ. [م].

(3) الثَّبَجُ بِالتَّحْرِيكِ: الْوَسْطُ. [م].

(4) لَنْ يَنْقُصَكُمْ شَيْئًا مِنْهَا. اهـ. م. [م].

(5) انظر «الكامل» لابن الأثير (2/ 666)، و«تجارب الأمم» لابن مسكويه (1/ 534)، و«شرح نهج البلاغة» (5/ 168 - 175).

الإقدام عليه - مع التعرّض للمكّاره الحائلة دون المرغوب.

قال يحيى بن عديّ والقزويني: «ومن أخصّ سمات الشجاعة الإقدام على الأمور التي يحتاج الإنسان أن يُعرّض نفسه لها؛ لدفع المكّاره والآلام الواصلة إليه، مع ثبات الجأش عند المخاوف، والاستهانة بالموت، وهو بالأشراف والملوك أليق، بل لا يستحقّون الملك مع عدم هذه الخلّة (1).

وبواعث الشجاعة لا تختلف كثيراً عن بواعث الرجاء، وذلك بأن يُرغّب السامعين في حصول المحبوب - إذا كان شريقاً جليلاً - ويُشهيّه إلى القلوب، فيبعثها على طلبه.

والفرق بين الرجاء والشجاعة: أنّ الرجاء لا يقتضي الإقدام على الأمر، بخلاف الشجاعة التي تُهيّجها المخاطر، فتبعثها على مقاومة من يحول بين الشجاع ومرغوبه.

ومن أقوى مثيرات الشجاعة: ذكر الإمدادات الإلهية، والثقة بالله تعالى.

والجبن أو الخوف: هيئة حاصلة للقوة الغضبية، بها يُحجم المرء عن مباشرة أمر؛ لما يتوهم به من المخاوف.

ويتمكّن الخطيب من إلقاء الخوف في القلوب؛ بإنذار القوم بخطبٍ عظيم، وطامة كبرى، وسوء المطالع، ووخيم العواقب، وغير ذلك من الأحوال

(1) انظر «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (ص 27).



التي تُلقِي الرُّعْبَ في القلوب؛ كقول الزَّمخشري⁽¹⁾ - في التحذير من الدنيا: «خَفَّ الزَّادُ، وَجَفَّ المَزَادُ، وَطَالَ السَّبِيلُ، وَحَارَ الدَّلِيلُ، وَمَا يَدْرِيكَ عِلَامُ تُقَدِّمُ؟ أَتَثْبُتُ أَمْ تَزِلُّ بِكَ الْقَدَمُ؟ يَا جُمُودَ⁽²⁾ الْعَيْنِ: كَأَنَّكَ بَغْرَابُ الْبَيْنِ، أَيْنَ أَدْمَعَكَ الدَّوَائِبُ، وَقَدْ شَابَتْ مِنْكَ الدَّوَائِبُ⁽³⁾، تُعَشِّشُ أُمَّ الرَّدَى وَتَبْيِضُ، حَيْثُ تَطْلُعُ الشَّعْرَاتُ الْبَيْضُ. لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْحَمْلُ عَلَى الْآلَةِ الْحَدْبَاءِ، وَالطَّرْحُ تَحْتَ الرَّمْلِ وَالْحَصْبَاءِ»⁽⁴⁾.

ولا يجوز للخطيب أن يستعمل ذلك إلا في أحوالٍ خاصّة؛ كفتنةٍ تُضَرُّ بالدين.

(1) قال الإمام الذهبي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «الزَّمخشري: العَلَّامة، كبير المُعتزلة، أبو القاسم؛ محمود بن عمر ابن محمد، الزَّمخشري، الخوارزمي، النحوي، صاحب «الكشاف»، و«المفصل». رحل، وسمع ببغداد من نصر بن البطر وغيره. وَحَجَّ، وَجاور، وَتَخَرَّجَ بِهِ أئمة...». إلى أن قال: «قال السَّمعاني: بَرَعَ في الآداب، وَصَنَّفَ التصانيف، وَرَدَّ العراق وخراسان، ما دخل بلدًا إلا واجتمعوا عليه، وتلمذوا له، وكان عَلَّامة نَسَّابة، جاور مُدَّةً حتى هَبَّتْ على كلامه رياح البادية. مات ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة. وقال ابن خَلِّكان: له «الفائق» في غريب الحديث، و«ربيع الأبرار»، و«أساس البلاغة»، و«مشتبه أسامي الرُّواة»، وكتاب «النصائح»، و«المنهاج في الأصول»، و«ضالَّة الناشد»... وكان داعيةً إلى الاعتزال، اللَّهُ يَسَاحِمْهُ». (سير أعلام النبلاء (15/ 17، 18)، دار الحديث- القاهرة- 1427هـ- 2006م.

(2) من جَمَدَتِ الْعَيْنُ: إِذَا بَحَلَّتْ بِالْذُّمِّوعِ. [م].

(3) الدَّوَائِبُ الْأُولَى: جَمْعُ ذَائِبَةٍ، وَهِيَ السَّائِلَةُ. والدَّوَائِبُ الثَّانِيَةُ: جَمْعُ ذُؤَابَةٍ، وَهِيَ صَفِيرَةُ الشَّعْرِ، وَبَيْنَهُمَا جَنَاسٌ تَامٌّ. اهـ. م. [م].

(4) أطواق الذهب في المواعظ والخطب» (كتاب المقالات) للزَّمخشري (ص 35)، مطبعة نخبة الأخبار، 1304هـ.

والغضب: حركة في النفس تتوجّه إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التّشقي والانتقام بعد وقوعها.

وفوت هذه القوّة الغضبيّة وشهوئها الانتقام، وفيه لذّتها، ولا تسكن إلّا

به.

والذي يهيج الغضب شيئان:

الأوّل: ذكر الإهانة، وتعظيم الأذى، وتحريك كامن الحفائظ، كما فعلت عقيرة بنت غفار، وكان بنو طسم انتهكوا حرمتها:

أَيَجْمَلُ أَنْ يُؤْتَى إِلَى فَيَاتِكُمْ	وَأَنْتُمْ رِجَالٌ فِيكُمْ عَدَدُ الرَّمْلِ
أَيَجْمَلُ تَمْشِي فِي الدَّمَاءِ فَتَاتِكُمْ	صَبِيحَةَ زُفْتٍ فِي الْعِشَاءِ إِلَى بَعْلِ
فَإِنْ أَنْتُمُوهَا لَمْ تَغَضَبُوا بَعْدَ هَذِهِ	فَكُونُوا نِسَاءً لَا تَغُبُّ مِنَ الْكُحْلِ (1)
وَدُونَكُمْ ثُوبَ الْعَرُوسِ فَإِنَّمَا	خُلِقْتُمْ لِأَثْوَابِ الْعَرُوسِ وَلِلنَّسْلِ
فَلَوْ أَنَّكُمْ كُنَّا رِجَالًا وَكُنْتُمْ	نِسَاءً لَكُنَّا لَا نَقْرُ عَلَى الذِّلِّ
فَمُوتُوا كِرَامًا أَوْ أَمِيتُوا عِدْوَكُمْ	وَكُونُوا كَنَارٍ شَبَّ بِالْحَطَبِ الْجَزْلِ
وَالَا فَخَلُّوا بَطْنَهَا وَتَحَمَّلُوا	إِلَى بَلَدٍ قَفَرٍ وَمُوتُوا مِنَ الْهَزْلِ
فَلَلَمُوتُ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى أَدَى	وَلِلْهَزْلِ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى نِكْلِ (2)
فَدَبُّوا إِلَيْهِمُ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَاءِ	وَكُلُّ حُسَامٍ مُحَدَّثِ الْعَهْدِ بِالصَّقْلِ

(1) في رواية أخرى: «فكونوا نساء في المنازل والحجل». م. [م].

(2) الكل بوزن الطفل: القيّد. وجمعه: أنكال. [م].



ولا تَجْزَعُوا للحربِ قومي فإنما تَقُومُ بِأَقْوَامِ كرامِ عَلَى رجلٍ
 فيهلكُ فيها كُلُّ وَغْدٍ مُواكلٍ وَيَسْلُمُ فيها ⁽¹⁾ بالجلادة والفضل ⁽²⁾
 الثاني: بيانُ ضرورةِ التَّشَفِّي، كقول الحليِّ للسُّلطانِ المَلِكِ الصَّالحِ،
 يُحَرِّضُهُ على قَوْمٍ عاثوا في أطرافِ بلاده، من قصيدةٍ قالها يومَ عيدِ التَّحر:

فِيأَمَلِكًا قَدْ أَطْمَعَ النَّاسِ حِلْمُهُ	لِكَثْرَةِ مَا نَهَفُوا فَيَعْفُو وَيَصْفَحُ
أَعْدُ غَيْرَ مَأْمُورٍ عَلَى الضَّدِّ كَيْدَهُ	وَأَذِكُ لَهُ النَّارَ الَّتِي بَاتَ يَقْدَحُ
فَقَدْ أَيْقَنَ الْأَعْدَاءُ أَنَّكَ رَاحِمٌ	فَبَاءُوا ⁽³⁾ بِأَفْعَالِ الْخِنَاءِ وَسَجَّحُوا
إِذَا مَا فَعَلْتَ الْخَيْرَ ضَوْعِفَ شَرُّهُمْ	وَكُلُُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ
تَهَنَّ بِعِيدِ النَّحْرِ وَأَنْحَرْ بِهِ الْعِدَا	فَجُودُكَ عَيْدٌ لِلوَرَى لَيْسَ يَبْرَحُ
وَضَحَّ بِهِمْ لَا زِلْتَ تَنْحَرُ مِثْلَهُمْ	وَمِنْ دُونِ مَغْنَاكَ الْعَقَائِرُ تُذْبَحُ ⁽⁴⁾

(1) في رواية: «ذو الطَّعان، وذو القَتْل». اهـ. م. [م].

(2) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (1/ 322)، و«آثار البلاد وأخبار العباد» لذكريا القزويني (ص 132، 133)، وفيه أَنَّ عمليق بن حياش مَلِك طسم أَمَرَ أَلَّا تُزَوَّجَ بِكَرٍ مِنْ نِسَاءِ جَدِيسٍ حَتَّى تُدْخَلَ عَلَيْهِ، فَيَكُونُ هُوَ مُفْتَرَعَهَا! فَلَقُوا مِنْ ذَلِكَ دُلًّا حَتَّى تَزَوَّجَتْ غَفِيرَةُ بِنْتُ غَفَارٍ، أُخْتُ الْأَسُودِ بْنِ غَفَارٍ سَيِّدِ جَدِيسٍ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الزَّفَافِ حُمِلَتْ إِلَى الْمَلِكِ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ امْتَنَعَتْ عَلَيْهِ، فَافْتَرَعَهَا بِجَدِيدَةٍ وَأَدْمَاهَا، فَخَرَجَتْ وَدَمُهَا يَسِيلُ عَلَى قَدَمَيْهَا فَمَرَّتْ بِاِكِيَّةٍ إِلَى أَخِيهَا، وَهُوَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ، وَقَالَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ.

(3) بَاءٌ بِالذَّنْبِ: اعْتَرَفَ بِهِ، وَسَجَّحَ بِالتَّشْدِيدِ: عَرَضَ، وَمَعْنَى الْبَيْتِ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ قَدْ عَرَّهْمَ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ رَحْمَتِكَ، فَصَرَّحُوا بِأَفْعَالِهِمُ الدَّمِيمَةِ، وَعَرَّضُوا بِهَا، وَاسْتَهَانُوا بِقُوَّتِكَ؛ اعْتِمَادًا عَلَى عَفْوِكَ. اهـ. م. [م].

(4) من قصيدة «صفاحُ عيونٍ لحظها لَيْسَ يَصْفَحُ» لصفي الدِّين الحلي. انظر «ديوانه»، و«دواوين

ويلحق بتحريك الغضب المستحسن: تحريك عظم الهمة، وهو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، قال أبو العتاهية:

وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ ⁽¹⁾

ويلحق بالغضب أهواء أخرى، يمتزج فيها الغضب بعواطف غيرها؛ كالأنفة، وهي: ترفع النفس عن الأمور الدنيئة، والغضب عند الإحساس بالنقص. وكالحمية، وهي: المحافظة على الحرم والدين من التهمة. وكالغيرة، وهي: النخوة بتعدي الحقوق.

وتثار الحمية والغيرة في القلوب بأمور:

منها: أن تصف لمن أردت تحريك حميته ما حازه خصمه من العز والرفعة على ما فيه من اللؤم والأخلاق الذميمة وعدم التدبّر.

ومنها: أن تقابل مساوي الخصم بمحاسن من تريد استهاض همته، وكرم أخلاقه بلؤم أخلاق قرينه؛ فيستدل بذلك على أنه أحق بهذا الشرف منه.

ومنها: أن تبين ما سيلحق بصاحبك من العار إن لم يتنبه من غفلته، وينتزع من يد خصمه حقوقه المغصوبة، وما أخذه منه جوراً وظلماً؛ مردداً قول الحريري:

الشعر العربي على مرّ العصور، رقم القصيدة (19792).

(1) البيت للمتنبي. انظر «ديوانه»، وقصيدة «ملوكمًا يجلّ عن الملام» بـ«دواوين الشعر العربي»، برقم (5679).



الْمَنَائِيَا وَلَا الدَّنَائِيَا وَخَيْرٌ مِّن رُّكُوبِ الْخَنَائِيَا رُكُوبُ
 كَمَا فَعَلَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ أَرَادَ تَحْرِيكَ عَوَاطِفِ الْحَمِيَّةِ وَالغَيْرَةِ
 فِي نُفُوسِ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى حَرْبِ مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشَّامِ - : «أَيُّهَا الشَّاهِدَةُ
 أَبْدَانُهُمْ، الْغَائِبَةُ عَقُولُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، الْمُتَبَتِّلُ بِهِمْ أَمْرَاؤُهُمْ، صَاحِبُكُمْ
 يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعِصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ، لَوَدِدْتُ
 حَقًّا أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَ فَنِي بِكُمْ صَرَفَ الدِّينَارِ بِالدَّرْهِمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ،
 وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ.

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، مُنِيْتُ بِثَلَاثٍ وَاثْنَتَيْنِ؛ صُمُّ ذَوِّ أَسْمَاعٍ، وَبُكْمُ ذَوِّ
 أَحْلَامٍ، وَعُمِّي ذَوِّ أَبْصَارٍ، لَا أَحْرَارَ، صُدِّقَ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا إِخْوَانُ ثِقَةٍ عِنْدَ
 الْبَلَاءِ.

يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا، فَكَلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ تَفَرَّقَتْ مِنْ
 جَانِبٍ آخَرَ.

حَقًّا لَكَأَنِّي بِكُمْ إِخَالَ أَنْ لَوْ حَمِيَ الْوَغَى، وَحَمِيَ الضَّرَابُ انْفَرَجْتُمْ عَنْ
 ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَخَلَّفْتُمُوهُ شَرِيدًا طَرِيدًا.

أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِيُظْهَرَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لَأَنْتُمْ أَوْلَى
 بِالْحَقِّ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لِإِسْرَاعِهِمْ إِلَى بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي.

وَلَقَدْ أَصْبَحَتْ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحَتْ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي،

استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سراً وجهاً فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، أشهود كغياب؟ وعبيد كأرباب؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيادي سبا.

ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن موعظكم»⁽¹⁾.

وربما أردفوا بهذا الباب: المنافسة والحياء؛ قال ابن عدي: «المنافسة: هي منازعة النفس إلى التشبه بالغير فيما يراه المرء، ويرغب فيه لنفسه، والاجتهاد في الترقى إلى درجة أعلى من درجته، وهي محمودة في معالي الأمور، وكل ما يكسب مجداً - بشرط أن تكون من طريق شريف مشروع».

وثثار المنافسة بذكر محاسن من يقتدي بهم، وبيان العار الذي يلحق بالسامعين إذا لم يتشبهوا بهم؛ كقول الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يذكر الزهاد، ويحرض قومه على التآسي بهم: «لقد رأيت من تقدمكم، فما أرى بينكم أحداً يشبههم، لقد كانوا شعثاً غبراً»⁽²⁾، وقد باتوا سجدًا وقيامًا، يراوون بين جباههم وخدودهم⁽³⁾، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، إذا ذكر الله

(1) انظر «شرح نهج البلاغة» (70/7، 71).

(2) يقصد أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا كذلك من أثر قيام الليل وصوم النهار وهجر الملاذ.

(3) أي: تارة يسجدون على الجباه، وتارة يضعون خدودهم على الأرض بعد الصلاة تدللاً وخضوعاً.



هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبَلَّ جُيُوبُهُمْ⁽¹⁾، ومادوا كما يَمِيد الشَّجَرُ يومَ الرِّيحِ العاصِفِ؛ خوفاً من العقاب، ورجاءً للثواب؛ فالزموا سَمَتَهُمْ، ولا تتأخروا عنهم فتَهْلِكُوا⁽²⁾.

أَمَّا الحياءُ: فهو أن يُحْسِنَ ارتداعَ النَّفْسِ عن الأمور التي يَقْبَحُ تعاطيها، والإقدام عليها؛ لملاحظتها من ذلك قُبْحُ الأُحْدُوثة.

وتحريكه في القلوب بأن يَصِفَ الخطيبُ سَمَاجَةَ الأمر الذي يريد الصَّدَّ عنه، مع بيان قُبْحِ الأُحْدُوثة بفعله.

والحياءُ أَعْمَلُ في قلوب الأشراف منه في غيرهم.

ومن أَحْسَنِ مُثِيرَاتِ الحياءِ قولُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لأهل الكوفة، وكانوا قد خَذَلُوهُ فِي حُرُوبِهِ -: «أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلَامُكُمْ يُوْهِى⁽³⁾ الصَّمَّ الصَّلَابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمَعُ فِيكُمْ عَدَوَّكُمْ، وَتَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ حَيْدِي حَيْدًا⁽⁴⁾».

ما عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ. أَعَالِيلُ

(1) الجيوب: فتحة الثوب عند الصدر.

(2) انظر «شرح نهج البلاغة» (7/77).

(3) يَشُوْ. [م].

(4) كلمة تُقَالُ عند قصد الابتعاد عن الشيء، من الحَيْدَانِ بمعنى: الميل، أي: تَنَجَّى عَنَّا أَيُّهَا

الحرب. اهـ. م. [م].

بأضاليل⁽¹⁾.

سألتموني التأخير، هيهات دفاع ذي الدّين المطول⁽²⁾، لا يُمنع الضّيم الدّليل، ولا يُدرك الحقّ إلا بالجدّ، أيّ دارٍ بعد داركم تمنعون، أم مع أيّ إمامٍ بعدي تُقاتلون؟

المغرور- والله- مَنْ غَرَّرْتُموهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخِيبِ، فَلَا أَصَدَّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَعْقَبَنِي بِكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْكُمْ؛ لوددت أنّ لي بكل عشرة منكم رجلاً من بني فراس بن غنم صرف الدّينار بالدّرهم⁽³⁾.

والحلّم: الطمانينة عند ثورة الغضب، وقد حدّه ابنُ سينا في كتاب «علم الأخلاق» بقوله: «هو الإمساكُ عن المُبادَرةِ إلى قضاءِ الغضبِ فيمن يجني عليه جناية يصلُ مكروهاً إليها».

وقد يُسمّى هذا كرمًا، وصَفْحًا، وعَفْوًا، وتجاوزًا، واحتمالًا، وكَظْمَ غَيْظٍ.

وأقربُ الوسائلِ لحسمِ الغضبِ وكظمِ الغيظِ أمورٌ:

الأول: الإقرارُ بالدّنبِ، فإنّه - كما قيل - : الاعترافُ يزول به الاقترافُ، قال ابن حازم:

(1) أي: يتعللون بالأضاليل التي لا جدوى لها.

(2) كَمَنْ يَمْطُلُ بِدَيْنٍ لَا زِمَ لَهُ.

(3) انظر «شرح نهج البلاغة» (2/ 111).



إِذَا مَا أَمْرُؤُ مِنْ ذَنْبِهِ جَاءَ تَائِبًا إِلَيْكَ فَلَمْ تَغْفِرْ لَهُ فَلَكَ الذَّنْبُ (1)

الثاني: الإخبات والخضوع، وذلك إذا كان الجاني دون المستعطف رتبة وقدرًا، أو كان ذنبه عظيمًا، فعليه أن يُذلل نفسه، ويستكين لذوي القدرة مُتَضِعًا، كما فعل إبراهيم المهدي عند المأمون بعد عصيانه عليه، فأُنشده.

أَذْنَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلٌ
فَإِنْ عَفَوْتَ فَمَنْ وَإِنْ جَزَيْتَ فَعَذَلُ (2)

الثالث: ذكر الحليم، وفُضِّلَ كَظْمُ الْغَيْظِ عَلَى التَّشَفِّيِّ وَالْإِنْتِقَامِ، بما جاء في ذلك من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح.

الرابع: وصف ما يجنيه الحليم من الشكر، والثناء، والاسم المُحَدِّد، قال البُحْثَرِيُّ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَضْرِبْ عَنِ الْحَقْدِ لَمْ بِشُكْرِ وَلَا تَسْعَدَ بِتَقْرِيطِ مَادِحِ (3)

الخامس: حُسن تَبَرُّؤِ الجاني مِنْ ذَنْبِهِ، كما لو ذكر صفاء مَوَدَّتِهِ، وَحُسنَ نِيَّتِهِ في صَنْيعِهِ، وأنه لم يَأْتِ ما أَتَى إِلَّا سَهْوًا، وَيَدْمَجُ كُلَّ ذَلِكَ فِي الْأَسْفِ عَلَى تَعْيِظِ الْمُعَاتِبِ، وَإِبْدَاءِ الرِّغْبَةِ فِي الرِّجْوِ عَمَّا سَاءَ، كما كتب أَبُو الْمُظَفَّرِ؛ أَسَامَةُ بْنُ مُرْشَدٍ إِلَى أَبِيهِ - وَكَانَ مُعْتَاطًا عَلَيْهِ:

وَمَا أَشْكُو تَلَوْنَ أَهْلِي وَدِّي وَلَوْ أَجَدْتُ شِكَايَتَهُمْ شَكَوْتُ

(1) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه (1 / 17).

(2) انظر «تهذيب الرياسة وترتيب السياسة» لأبي عبد الله الشافعي (1 / 204).

(3) انظر «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني (1 / 281).

مَلَلْتُ عِتَابَهُمْ وَيَسْتُ مِنْهُمْ فَمَا أَرْجُوهُمْ فِيمَنْ رَجَوْتُ
إِذَا أَدَمْتُ قَوَارِصُهُمْ فَوَادِي كَظَمْتُ عَلَى أَذَاهُمْ فَاَنْطَوَيْتُ
وَرُحْتُ عَلَيْهِمْ طَلَقَ الْمُحْيَا كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ
تَجْنُوا لِي ذَنْبًا مَا جَتَّهَا يَدِي وَلَا أَمَرْتُ وَلَا نَهَيْتُ
وَلَا وَاللَّهِ مَا أَضْمَرْتُ غَدْرًا كَمَا قَدْ أَظْهَرُوهُ وَلَا نَوَيْتُ
وَيَوْمَ الْحَشْرِ مَوْعِدُنَا وَتَبَدُّو صَحِيفَةً مَا جَنَوُهُ وَمَا جَنَيْتُ

السَّادِسُ: انتهاز الفرص؛ كيوم عِيدٍ، ومجلس أُنسٍ، مع الاستعانة بمن يشفعون من ذوي المنزلة.

بهذه الوسائل يُخمد الخطيبُ نارَ الغَيْظِ، ويدعو إلى الحِلْمِ والتَّثَبُّتِ.

ومن قبيل الحِلْمِ: الرَّحْمَةُ، وهي: رَقَّةُ القلبِ على مَنْ حَلَّ به شيءٌ من المَكَارِهِ.

وَيَتَوَسَّلُ الخطيبُ إلى تحريك الرَّحمة في القلوب:

أولاً: يَبْسُطُ الكلامَ فيما لحقَ المُصَابَ مِنَ البَلَايَا والْخُطُوبِ، مِنْ ذِكْرِ الظُّرُوفِ الَّتِي تَزِيدُهَا فَجَعَةً وَتَأْثِيرًا؛ كَشِدَّتِهَا وَقَطَاعَتِهَا، وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ الْمُبْتَلَى مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْأَنْسِبَاءِ، أَوْ سَيِّدِ قَوْمِهِ.

ومن جَيِّدٍ ما جاء في الاسترحام: رسالةُ يحيى الْبَرْمَكِيِّ إلى هَارُونَ الرَّشِيدِ، بعد نَكْبَتِهِ وَسُجْنِهِ، وَقَتْلِ ابْنِهِ جَعْفَرٍ:

«مِنْ عَبْدٍ أَسْلَمَتْهُ ذُنُوبُهُ، وَأَوْبَقَتْهُ عُيُوبُهُ، وَخَذَلَهُ صَدِيقُهُ، وَرَفَضَهُ شَقِيقُهُ،



فَرَاغَ بِهِ الزَّمَانُ، وَأَنَاخَ عَلَيْهِ الْحَدَثَانُ؛ فَصَارَ إِلَى الصَّيْقِ بَعْدَ السَّعَةِ، وَعَالَجَ
الْبُؤْسَ بَعْدَ الدَّعَةِ، وَافْتَرَشَ السُّخْطَ بَعْدَ الرِّضَا، وَاکْتَحَلَ السَّهْرَ، وَافْتَقَدَ
الْهَجُوعَ، فَلَيْلَتُهُ دَهْرٌ، وَسَاعَتُهُ شَهْرٌ، قَدْ عَايَنَ الْمَوْتَ، وَشَارَفَ الْفُوتَ جَزْعًا.

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَجَبَ اللَّهُ عَنِّي فَقْدَكَ لَمَّا أُصِبْتُ بِهِ مِنْ بُعْدِكَ، لَا
لِمَصِيبَتِي بِالْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ بِكَ؛ وَعَارِيَةً فِي يَدَيَّ مِنْكَ، وَلَا بَأْسَ
أَنْ تُسْتَرَدَّ الْعَوَارِي.

أَمَّا الْمِحْنَةُ بِمَجْعُوفٍ فَبِجُرْمِهِ أَخَذَتْهُ، وَبِجَرِيرَتِهِ عَاقَبَتْهُ.

فَاذْكُرْ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - حُرْمَتِي، وَنَصِيحَتِي، وَخِدْمَتِي، وَارْحَمْ ضِعْفِي،
وَشَيْبَتِي، وَهَيِّئْ لِي رِضًا مِنْكَ؛ فَمِنْ مِثْلِ الزَّلَلِ، وَمِنْ مِثْلِكَ الْإِقَالَةِ، وَقَدْ رَجَوْتُ
أَنْ يَظْهَرَ عِنْدَ الرِّضَا وَضُوحُ عُذْرِي، وَصِدْقُ نِيَّتِي، وَظَاهَرُ طَاعَتِي:

رَفَفْتُسُّهُ لَكَ رَاجِيَهُ	انْظُرْ إِلَى الشَّيْخِ الْكَبِيرِ
نُ كَرَامَتِي وَبَهَائِيَهُ	الْيَوْمَ قَدْ سَلَبَ الزَّمَانُ
فَأَصَابَ حِينَ رَمَانِيَهُ	وَرَمَى سَوَادَ مَقَاتِلِي
ذُلِّي وَذُلَّ مَكَانِيَهُ	يَكْفِيكَ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ
أَنْ أَذُوقَ حَمَامِيَهُ	إِنْ كَانَ لَا يَكْفِيكَ إِلَّا
قَبْلَ الْمَمَاتِ عَلَانِيَهُ	فَلَقَدْ لَقِيتُ الْمَوْتَ مِنْ
وَفِينْتُ قَبْلَ فَنَائِيَهُ	وَفُجِعْتُ أَعْظَمَ فُجْعَةٍ

يا نعمة الملك الرضا عودي عليّ ثانيه (1)

ثانيًا: أن يُبين أنّ مَنْ طرأت عليه المحن من ذوي الأخلاق الكريمة والأعمال النافعة، أو أنه موضع الرحمة ومحل الشفقة؛ لضعفه، واستقامته مثلاً.

ثالثًا: أن يأتي ببعض آثاره يعرضها على مرأى السامعين، فتعمل رؤيتها في قلوبهم، كما لو أراد حمل القلوب على الإشفاق لفقير؛ فيظهر أظماره (2)، ويوري صغاره، أو لقتيل فيعرض جثمانه، أو ثوبه مضرجاً بالدم، ومثخنًا بالجراح، وهلمّ جرًا.

رابعًا: وهو من أخصّ ما يهيّج الرحمة في القلوب أن يلوح على وجه الخطيب، ويؤخذ من كلامه ما عملت في نفسه فاجعة المصاب؛ فإن ذلك أسرع نفاذًا في القلوب، متى كان صادرًا عن شعور صحيح، ووُجدان صادق.

(1) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه (5 / 326).

(2) جمع طمر، كحمل، وهو الثوب الخلق البالي. [م].



الأصل الثاني: التنسيق، وفيه عدة فصول

والتنسيق في اللغة: التنظيم والترتيب.

وفي الاصطلاح: هو عبارة عن انتظام معاني الخطبة، وسياق أجزائها، وسرد أدلتها، على نظام واحد.

والمقصود منه: إحكام ترتيب الخطبة، وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضاً وأحسن وقعاً في النفوس.

والتنسيق من أعظم أركان البلاغة، فهو بمنزلة المصاف (1) في العسكر؛ فلا نصرة لجيش لم يرع حسن النظام، وكذلك لولا ترتيب الخطبة ما أصغى السامع إلى كلام الخطيب، أو ما أدرك الموضوع إلا بعد جهد وعناء، فلا يتأثر لمقاله مهما كان بليغاً.

(1) مواقف القتال. م. [م].

أقسام الخطبة

قد اختلف في تقسيم الخطبة؛ فمنهم من قسمها إلى سبعة أقسام، هي الفاتحة، والقضية، والتقسيم، وإيضاح المقصد، والإثبات، وردُّ الخصم، والخاتمة.

ومنهم من زاد على ذلك، ومنهم من نقص.

وترجع هذه الأقسام إجمالاً إلى ثلاثة أشياء: المقدمة، والإثبات، والخاتمة.



الفصل الأول في المقدمة، وفيه مباحث

المقدمة: هي فاتحة الكلام، ومَرْجِعُ فَحْوَاهُ، وَلَمَّا كانت بمثابة الأساس من البناء، والرَّأْس من الأعضاء - وَجَبَ على الخطيب أن يَصْرِفَ العناية في إحكام وَضْعِهَا، أو تَطْرِيزِ بُرْدَتِهَا.

وأغراض الخطيب في المقدمة ثلاثة:

الأول: أن يَسْتَجْلِبَ الحَوَاطِرَ، وَيُؤَلِّفَ القُلُوبَ، وهذا يُؤخذ من حُسْن الافتتاح.

الثاني: أن يُطْلِعَ السَّامِعِينَ على ما يُريده إجمالاً، وهذا يُستفاد من بيان المقصد.

الثالث: أن يُرَغِّبَ إليهم الاستماع، ويَحْمِلُهُم على الإصغاء والإذعان لما يقول، ومرجعُه إلى تَقْسِيمِ الخطابِ.

المبحث الأول: في حسن الافتتاح

الافتتاح: مطلع الكلام في الخطبة، وله آدابٌ على الخطيب ألا يتعدّاها؛ لأنّه أوّل ما يطرُق السّمع من الكلام، فلا بُدّ فيه من حُسن الاختيار؛ منها: سهولة اللفظ، وصحّة الترتيب، ووضوح المعنى، وتجنّب الحشو، فإن كان كذلك توفّرت الدّواعي على استماعه.

وقد عرفت أنّ خطباء الإسلام كانوا يفتتحون خطبهم بالحمد لله؛ لأنّ النفوس تتشوّق إلى الثناء عليه تعالى، ثم يُردفون بالصّلاة والسلام على النّبي **صلى الله عليه وسلّم** وآله وصحبه.

وحسن الافتتاح: هو أن يكون الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد، بأن يأتي الخطيب في صدر الخطبة بما يدلّ على المقصود منها، فيكون الافتتاح مرتبطاً مع الخطبة ارتباط الرأس بالجسد، ومُشتقّاً منها، كما تفتّح الأنوار عن أكمامها⁽¹⁾، وهو براعة الاستهلال.

ومجملّة الأمر: أنّ المطلع هو أوّل ما يستأذن على السّمع من الكلام؛ فإن

(1) جمع نور، بفتح فسكون، ونوّار كرّمّان، وهو الزّهر. والأكمام: جمع كِم، بالكسرة: غطاؤه.



كان حسنًا رائعًا ظريفًا مناسبًا للموضوع أذن له، وتقبلته النفوس، وتطلعت إلى ما يُورده الخطيبُ بعدُ، وحثّها الشَّوقُ إلى الآتي بإضافته إلى الماضي.

هذا، ويُستَهجنُ في افتتاحات الخطبِ أمورٌ:

الأول: أن تكون مُسَهَّبةً مستطيلةً، فيضجر السامع لطولها.

الثاني: أن تكون مُبْتَدَلةً مشاعةً، تصلح لكل خطبة.

الثالث: ألا تُوافق الموضوعَ، فتكون قِلَقَةً غير ملتحمةٍ معه.

وللافتتاح مواردٌ كثيرة هذه أخصُّها:

أولاً: تستهلُّ بحكمةٍ واثقةٍ، أو مثَلٍ سائرٍ، أو قولٍ مُسَلِّمٍ به، كما قال الأحنف بن قيس في خطبةٍ خطبها بين يدي أمير المؤمنين عليٍّ - كَرَّمَ اللهُ وجهه⁽¹⁾ - وكان وفَدَ في أهل البصرة إلى عليٍّ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** يطلبون منه أن يحفر لهم

(1) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (6/ 478، 479): «قد غَلَبَ هذا في عبارة كثير من النُّسَاح للكتب: أن يُفَرَّدَ عليٌّ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** بأن يقال: «**عَلَيْهِ السَّلَامُ**»، من دون سائر الصحابة، أو: «كَرَّمَ اللهُ وجهه». وهذا وإن كان معناه صحيحًا، لكن ينبغي أن يُساوَى بين الصحابة في ذلك؛ فإن هذا من باب التعظيم والتَّكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان أولى بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين».

وسئل الشيخُ مُقبل بن هادي الوادعي **رَحِمَهُ اللهُ**: هل من السُّنَّة أن نقول: عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهه؟ فأجاب **رَحِمَهُ اللهُ**: «لم يثبت أن تُخَصَّصَ عليًّا بـ «كَرَّمَ اللهُ وجهه»، أو «**عَلَيْهِ السَّلَامُ**»، لكن لا يصل إلى حدِّ البدعة.

أما «**عَلَيْهِ السَّلَامُ**» فقد وُجد في «البُخاري» وفي «مُسند أحمد»، والأحسن أن يجري عليٌّ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** كإخوانه من الصحابة، وأن نقول: عليٌّ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**. «تحفة المُجيب»، (فضائل آل بيت الثُّبوة)

قناة ماءٍ عذبٍ، تتصل بِدِجْلَةٍ والفُرَاتِ-: «يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ بِيَدِ اللَّهِ، وَقَدْ أَتَيْتَكَ وَفُودُ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمَصَرَ نَزَلُوا مَنَازِلَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ؛ مَنَازِلَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَبَنِي الْأَصْفَرِ، فَهُمْ مِنَ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ وَالْحِجَانِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي مِثْلِ حَوْلَاءِ السَّلَى (1)، وَحَدَقَةِ الْبَعِيرِ؛ تَأْتِيهِمْ ثَمَارُهُمْ غَضَّةً (2)، وَإِنَّا نَزَلْنَا نَشَاشَةً (3) لَهَا طَرْفٌ فِي فَلَاةٍ، وَطَرْفٌ فِي مِلْحٍ أُجَاجٍ؛ جَانِبٌ مِنْهَا مَنَابِتُ الْقَصَبِ، وَجَانِبٌ سَبْخَةٌ نَشَاشَةٌ، لَا يَحِجُّ ثُرَابُهَا، وَلَا يَنْبِتُ مَرْعَاهَا، تَأْتِينَا مَنَافِعُهَا فِي مِثْلِ مَرِيٍّ (4) التَّعَامَةِ، يَخْرُجُ الرَّجُلُ الضَّعِيفُ مِمَّا يَسْتَعَذُّ الْمَاءَ مِنْ فَرَسَخَيْنِ، وَتَخْرُجُ الْمَرْأَةُ بِمِثْلِ ذَلِكَ تَرْنُقٌ وَلِهَا تَرْنِيقُ الْعَنْزِ (5)، تَخَافُ عَلَيْهِ الْعَدُوَّ وَالسَّبْعَ فَلَا تَرْفَعُ خَسِيسَتَنَا (6)، وَتُنْعِشُ رَكِيسَتَنَا (7) وَتَجْبِرُ فَاقَتَنَا، وَتَزِدُ فِي عِيَالِنَا عِيَالًا، وَفِي رَجَالِنَا رَجَالًا،

(ص 29، 30).

(1) هي كَالْمَشِيمَةِ لِلنَّاقَةِ: جِلْدَةٌ خَضْرَاءُ مَمْلُوءَةٌ مَاءً، تَخْرُجُ مَعَ الْوَلَدِ فِيهَا أَغْرَاسٌ وَخُطُوطٌ مُحْمَرَةٌ وَخُضْرٌ، وَمِنْهُ نَزَلُوا فِي مِثْلِ حَوْلَاءِ النَّاقَةِ، بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِ الْوَاوِ، يُرِيدُونَ الْخُصْبَ وَكَثْرَةَ الْمَالِ وَالْخُضْرَةَ. وَالسَّلَى: الْجِلْدَةُ الَّتِي فِيهَا الْوَلَدُ، فَإِنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ سُمِّيَتْ الْمَشِيمَةُ. [م].

(2) طَرِيَّةٌ. [م].

(3) النَشَاشَةُ: هِيَ الْأَرْضُ الَّتِي انْحَسَرَ عَنْهَا الْمَاءُ. [م].

(4) الْمَرِي: مَسَحَ الضَّرْعَ لِلْحَلَبِ، وَهُوَ هُنَا كُنَايَةٌ عَنِ الْعَدَمِ. [م].

(5) التَّرْنِيقُ: تَرْبِيطُ الْوَلَدِ بِالْوَالِدَةِ. [م].

(6) يُقَالُ: رَفَعْتَ مِنْ خَسِيسَتِهِ، إِذَا فَعَلْتَ بِهِ فِعْلًا يَكُونُ فِيهِ رَفْعُهُ. [م].

(7) الرِّكِيْسَةُ: الْمَرْكُوسَةُ، وَهِيَ النَّاقَةُ يُشَدُّ الْحَبْلُ فِي خَطْمِهَا إِلَى رُسْغِ يَدَيْهَا؛ فَيُطِيفُ عَلَيْهَا، فَيَبْقَى رَأْسُهَا مُعَلَّقًا. [م].



وَتَصَغَّرْ دِرْهَمَنَا، وَتُكَبِّرْ قَفِيزَنَا، وَتَأْمُرْ لَنَا بِحَفْرِ نَهْرٍ نَسْتَعَذِبُ بِهِ الْمَاءَ- هَلَكْنَا» (1).

ثانيًا: قد يبتدئ الخطيبُ بذكر قولِ خَصْمِهِ، أو عَرَضِ الْقَضِيَةِ الْمُخَالَفَةِ لما حاول تقريره، أو يذكر القضية على الوجه العام قبل أن ينتقل إلى تخصيصها؛ كقول أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقد استهلَّ خطابه بنعتِ الرجل الصالح المُتَعَبِّدِ -: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَيْهِ عَبْدًا أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ فَاسْتَشَرَّ (2) الْحَزْنَ، وَتَجَلَّبَبَ الْخَوْفَ، فَظَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ؛ نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ (3)، وَارْتَوَى مِنْ عَذْبِ فُرَاتٍ، سَهَّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ فَشَرِبَ (4) نَهْلًا، وَسَلَكَ سَبِيلًا جَدِّدًا (5)، قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُومِ إِلَّا هَمًّا وَاحِدًا انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنَ الْعُمَى، وَمُشَارَكَةَ أَهْلِ الْهَوَى، وَصَارَ مِنْ مِفْتَاحِ أَبْوَابِ الْهُدَى، وَمَغَالِيقِ أَبْوَابِ الرَّدَى، قَدْ أَبْصَرَ طَرِيقَهُ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ (6)، اسْتَمْسَكَ مِنَ الْعُرَى بِأَوْثِقِهَا، وَمِنْ الْحِبَالِ بِأُمْتِنِهَا؛ فَهُوَ

(1) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربّه (1 / 315)، وذكر أنَّ الأحنفَ وفد على أمير المؤمنين عُمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال له هذا الكلام.

(2) اسْتَشَرَّ: لَبَسَ الشَّعَارَ، وَهُوَ مَا يَلْبَسُ الْبَدَنُ مِنَ اللِّبَاسِ. وَتَجَلَّبَبَ: لَبَسَ الْحِلَابَ، وَهُوَ مَا يَكُونُ فَوْقَ جَمِيعِ الثِّيَابِ. اهـ. م. [م].

(3) اسْتَزَادَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ، وَمَا وَعَدَ وَأَوْعَدَ. [م].

(4) النَّهْلُ: أَوَّلُ الشَّرْبِ. [م].

(5) الْجَدِّدُ بِالْتَحْرِيكِ: الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ، وَمِثْلُهَا يَسْهَلُ السَّيْرُ فِيهِ. [م].

(6) الْغِمَارُ، جَمْعُ غَمَرٍ بِالْفَتْحِ: مُعْظَمُ الْبَحْرِ. اهـ. م. [م].

من اليقين على مثل ضوء الشمس، قد نصّب نفسه لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في أرفع الأمور من إصدار كلّ واردٍ عليه، وتصيير كلّ فرعٍ إلى أصله.

ثالثاً: وكثيراً ما تُؤخذ معاني الافتتاحات من أحوال الخطيب والسمّاعين، أو من ظروف الزّمان والمكان، فإنّ ما يأتي به لسان الحال أمتع في النفوس وأعطف للخواطِر.

وأنواع الافتتاح أربعة: السهل، والجزل، والبديهي، والملوح.

فالسّهّل: ما يبين فيه الموضوع بلا تكلف، وهو أخرى بالخطب العادية، ومحافل الأدب، ومجالس التّشاور والعظات؛ كقول أبي بكرٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - يوم بُويع بالخلافة -: «أيّها الناس، إني قد وليت عليكم، ولست بخيركم؛ فإن رأيتُموني على حقٍّ فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطلٍ فسدّدوني، أطيعوني ما أطع الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إنّ أقواكم عندي الضعيف حتى أخذ الحقّ له، وأضعفكم عندي القويّ حتى أخذ الحقّ منه، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم» (1).

والافتتاح الجزل هو: ما كان أنيق اللفظ، شريف المعنى، يُزيّنه حسنُ التعبير ورؤفّة، وهو يصلح للظروف الخارقة للعادة، والمواقع الشريفة؛ إذ يتوقّع الجمهور ما يُترجم عن عظام الأمور؛ كقول أبي بكرٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يوم موت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أيّها الناس، إنّه من كان يعبدُ محمّداً فإنّ محمّداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإنّ الله حيّ لا يموت»، ثم تلا آية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

(1) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 661).



خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴿[آل عمران: 144]﴾ (1).

وكقول عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مُصْعَب؛ فَحَمِدَ الله، وَسَكَتَ، وجعل لونه يَحْمَرُّ مَرَّةً، وَيَصْفَرُّ أُخْرَى، واشتدَّ عليه ذِكْرُ مَقْتَلِ سَيِّدِ العرب، ثم تَكَلَّمَ فقال: «الحمد لله الذي له الخلق والأمر والدُّنيا والآخرة، اللَّهُمَّ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ لَمْ يُعِزَّ اللهُ مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنَامُ طَرًّا، وَلَمْ يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ فَرْدًا، أَلَا وَإِنْ خَبَرًا مِنَ الْعِرَاقِ أَتَانَا فَأَحْزَنَنَا وَأَفْرَحَنَا؛ فَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا فَإِنَّ لِفِرَاقِ الْحَمِيمِ (2) لَوْعَةً يُحْزِنُنَا حَمِيمُهَا، ثُمَّ يَرْعَوِي دَوْرَ الْأَلْبَابِ إِلَى الصَّبْرِ وَكَرِيمِ الْعَزَاءِ، وَأَمَّا الَّذِي أَفْرَحَنَا فَإِنَّ قَتْلَ مُصْعَبٍ لَهْ شَهَادَةٌ، وَلَنَا ذَخِيرَةٌ، أَسْلَمَهُ التَّعَامُ الْمُصَامُ (3).

أَلَا وَإِنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ بَاعَوْهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ، فَإِنْ يُقْتَلُ فَقَدْ قُتِلَ أَخُوهُ وَأَبُوهُ وَابْنُ عَمِّهِ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ، إِنَّا - وَاللَّهِ - لَا نَمُوتُ حَتْفًا، وَلَكِنْ قَصْفًا بِالرَّمَاكِ، وَمَوْتًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، لَيْسَ كَمَا يَمُوتُ بَنُو مَرَوَانَ.

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا عَارِيَةٌ مِنَ الْمَلِكِ الْأَعْلَى الَّذِي لَا يَبِيدُ ذِكْرُهُ، وَلَا يُذَلُّ

(1) انظر «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 656).

(2) الحميم: القريب، وهو - أيضًا - الماء الحار. [م].

(3) شَبَّهَ أَصْحَابَ مُصْعَبِ الَّذِينَ انْهَزَمُوا وَأَسْلَمُوهُ لِأَعْدَائِهِ بِالتَّعَامِ؛ لِأَنَّهُ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي شِدَّةِ الْعَدُوِّ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا نَفَرَ مِنْ شَيْءٍ يَخَافُهُ، فَإِنَّهُ يَسْبِقُ الرِّيحَ، وَلَعَلَّ وَصْفَهُ بِالتَّعَامِ أَخْذًا مِنْ قَوْلِ صَاحِبِ الْقَامُوسِ: «صَامَ التَّعَامُ: رَمَى بِذَرْقِهِ». اهـ. م. [م].

سلطانه، فإن تُقْبِل الدُّنْيَا عَلَيَّ لَمْ أَخْذَهَا أَخْذَ الْأَشْرِ (1) الْبَطْرِ، وَإِنْ تُدْبِر عَنِّي لَمْ أَبْكُ عَلَيْهَا بُكَاءَ الْحَرْقِ (2) الْمَهِينِ (3).

ومن الجزل- أيضًا:- افتتح أبي الحسن الأنباري قصيدته في رثاء الوزير أبي طاهر، لَمَّا صَلَبَهُ عَصْدُ الدَّوْلَةِ، فقال:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَعْمَرِي تِلْكَ إِحْدَى
والافتتاح البديهي: ما أصاب السَّامِعَ عَلَى غَيْرِ انْتِظَارٍ، وَأَبْرَزَ عَنْ صَمِيمِ
العواطف.

ومقامه: المواقع الباغية، والطوارئ المفجعة؛ كقول صالح بن عليٍّ لأهل المدينة- وكانوا قد استصغروا هِمَّتَهُ: «يَا أَعْضَاءَ التَّفَاقِ، وَعَبِيدَ الضَّلَالَةِ، أَغْرَكُمُ لِيْنُ أَسَاسٍ، وَطُولُ إِيْنَاسٍ، حَتَّى ظَنَّ جَاهِلُكُمْ أَنَّ ذَلِكَ لِفُلُولٍ حَدٍّ، وَفُتُورٍ جَدٍّ، وَخَوَرٍ قَنَاءٍ، كَذَبَتِ الظُّنُونُ؛ إِنَّهَا لَعَثْرَةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا قَدْ اسْتَوْلَيْتُمُ الْعَافِيَةَ فَعَنْدِي فِطَامٌ (5) وَفِكَاكٌ (6)، وَسَيْفٌ يَقْدُ الْهَامُ» (7).

(1) الْأَشْرُ كَالْبَطْرِ: كُفِرَ التَّعْمَةُ وَعَدِمَ شُكْرُهَا. [م].

(2) خَرَقَ الرَّجُلَ خَرَقًا، مِنْ بَابِ تَعَبَ إِذَا دَهَشَ مِنْ حَيَاءٍ أَوْ خَوْفٍ. اهـ. م. [م].

(3) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه (4 / 199).

(4) انظر «وفيات الأعيان» (5 / 120).

(5) مَا أَقْطَعَكُمْ بِهِ. [م].

(6) مَا أَفْكُكُم بِهِ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ. [م].

(7) انظر «العقد الفريد» (4 / 187، 188)، وفيه: «أَغْرَكُمُ لِيْنُ إِيْسَاسِي وَطُولُ إِيْنَاسِي». ومنه المثل: «الإيْنَسُ قَبْلَ الإِيْسَاسِ»، والمعنى: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي أَلَّا يَكْلِفَ أَمْرًا أَوْ يَسْأَلَ حَاجَةً



والاستهلال الملوّح أو المعرّض في اللغة: خلاف المُصرّح.

وفي الاصطلاح: ما يخرج مخرج الكناية.

والتلويح يأتي به الخطيب إذا احتاج إلى استعطاف الخواطر الثائرة، أو كان المقصود عسر الخطة بعيد المتناول.

وكثير من خطباء هذا العصر يُقلّد خطباء أوروبا في ترك هذه المُقدمات رأساً، ويباشرون الموضوع بدونها، وهو خروج عن الطريقة المألوفة في الخطابة.

حتى يتقدم إليه بتأنيس مالي أو فعلي أو قولي. انظر «زهر الأكم في الأمثال والحكم» (1) / (97).

المبحث الثاني: في بيان المقصد

هو أن يظهر الخطيب ما يبني عليه كلامه، بتلخيص ما سيلقي في عبارة جامعة جليّة موجزة؛ لتكون كالعنوان للكتاب، وإنما يكون هذا في الخطب المتفق على إظهار المقصد منها، فأما الخطب التي تدعو الحاجة فيها إلى الإيماء وإيهام الغرض منها؛ لئلا ينفر السامع مما أراده؛ فالبلاغة قاضية بحذفه، أو وضع مقصد يؤول إليه، وكذلك إذا كان الغرض بينًا جليًا لا ينبغي إظهاره.

والصفات الملائمة لبيان المقصد أربع:

الأولى: أن يكون مترتبًا على قضية واحدة فقط، كما لو أردت أن تبني الكلام على العدل، فإنك تقول: إن العدل أساس عمران الممالك.

الثانية: أن يكون واضحًا؛ لأن الغرض إذا كان بعيد المآخذ تعاصى على السامع، فتبرّم منه، مثلاً إذا كان الكلام على حسن الخلق قلت: من ساء خلقه تنكّدت معيشته، أو على شرف العقل تقول: خير المواهب العقل، وشر المصائب الجهل.

الثالثة: أن ينشط السامعين بابتكار صورته، ولطيف محرّجه، كما تقول- في كثرة خطوب الدهر-: الليل والنهار غرسان يُثمران للبرية صنوف البلية، أو



زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا، وكقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ تعالى:

مَحَنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ لَا تَنْقُضِي وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَالْأَعْيَادِ (1)

الرَّابِعَةُ: أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ بَقِيَّةَ أَقْسَامِ الْخُطْبَةِ؛ لِأَنَّهُ - كَمَا قِيلَ -: الْخُرُوجُ عَمَّا بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَلَامُ إِسْهَابٌ.

(1) انظر «دواوين الشعر العربي» قصيدة برقم (14234).

المبحث الثالث: في تقسيم الخطاب

التقسيم في اللغة: مصدر قَسَمْتُ الشيءَ: إذا جَزَأْتُهُ.

وفي اصطلاح الخطباء هو: تفصيل المقصد بأجزائه بعد ذكره مجملًا؛ كقول بعض الحكماء - يُعَدِّدُ مَرَّافِقَ الدُّنْيَا -: «تُطَلَّبُ الدُّنْيَا لثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: لِلْغِنَى، وَالْعِزَّةِ، وَالرَّاحَةِ؛ فَمَنْ قَنَعَ اسْتَعْنَى، وَمَنْ زَهَدَ فِيهَا عَزَّ، وَمَنْ قَلَّ سَعْيُهُ اسْتَرَاخَ»⁽¹⁾.

وللتقسيم فوائد كثيرة: منها ما يعودُ إلى نفس الخطيب، من حيث إنه وقايةٌ له مِنَ الهَزَرِ، والخروجِ عن الموضوع، وتكرار المعاني. ومنها ما يعود على السامعين؛ لأنَّ تَفْصِيلَ الخطاب يُسَهِّلُ عليهم إدراكَ الموضوع، ويُروِّحُ خاطرهم.

هذا إلى أنَّ التَّقْسِيمَ يُفِيدُ الحُطْبَةَ حُسْنًا وَجَمَالًا وإيضاحًا، كقول الخليفة المأمون - في تقسيم الإخوان -: «الإخوانُ على ثلاثِ طبقاتٍ: طبقة كالغذاء لا يُسْتَعْنَى عنه. وطبقة كالدواء يُحْتَاجُ إليه أحيانًا. وطبقة كاللِّدَاءِ لا يُحْتَاجُ إليه

(1) انظر «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (33 / 7).



أبدأ» (1).

وصفات التَّقْسِيمِ الْحَسَنِ أَرْبَعُ:

الأولى: أن تكون القِسمَةُ شاملة لكل أجزاء الموضوع، لا يخرج عنها جزءٌ من أجزائه؛ كقول يُونُسَ النَّحْوِيِّ في أصناف السُّكْرِ: «السُّكْرُ خَمْسَةٌ: سُكْرُ الشَّبَابِ. وسُكْرُ الشَّرَابِ. وسُكْرُ المَالِ. وسُكْرُ العِشْقِ. وسُكْرُ الوِلَايَةِ. وقد جُمِعَتْ في هذا البيت:

سَكَرَاتُ خَمْسٍ إِذَا مُنِيَ الْمَرْءُ بِهَا صَارَ عُرْضَةً لِلزَّمَانِ
سَكْرَةُ الْمَالِ وَالْحَدَاثَةِ وَالْعِشْ قِ وسُكْرُ الشَّرَابِ وَالسُّلْطَانِ (2)

فليس من حُسْنِ التَّقْسِيمِ قولُ بَعْضِهِمْ: «أشدُّ أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَصْعَبُهَا: مُحَارَبَةُ الْعَدُوِّ، وَرُكُوبُ الْبَحْرِ؛ فَإِنَّ الشَّدَائِدَ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَفِيَّ بِهَا إِحْصَاءٌ».

القَانِيَةُ: أن تكون الأقسامُ مُتَبَايِنَةً، لا يدخل بعضها في بعض، فليس من حُسْنِ التَّقْسِيمِ قولُ البعض في تقسيم النَّاسِ: «إِنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةٌ: عَاقِلٌ، وَأَحْمَقٌ، وَفَاجِرٌ»؛ لِأَنَّ الْفَاجِرَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا، أَوْ أَحْمَقًا. وقوله في الصَّدِيقِ: «الصَّدِيقُ لِأَمْرَيْنِ: إِمَّا يَنْفَعُ، وَإِمَّا يَشْفَعُ»؛ فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ مِنَ الْمَنَافِعِ.

القَالِقَةُ: أن تكون واضحةً يَتَلَقَّاهَا عَقْلُ السَّامِعِ بِسَهُولَةٍ، فترسُخُ في

(1) انظر «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص 169).

(2) انظر «ثمار القلوب» للشعالبي (1/ 620).

ذَهْنِهِ؛ كَقَوْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي أَفْضَلِ الْوَرَاثَةِ -: «ثَلَاثَةٌ هِيَ أَفْضَلُ مَا يُوْرَثُهُ الْآبَاءُ الْأَبْنَاءَ: الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، وَالْأَدَبُ الصَّالِحُ، وَالْإِخْوَانُ الثَّقَاتُ» (1).

الرَّابِعَةُ: أَنْ تَكُونَ مُبْتَكِرَةً مُوجِزَةً؛ كَقَوْلِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الَّذِي قَسَّمَ النَّاسَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ؛ فَإِنَّهُ أَوْجَزَ وَأَصَابَ -: «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: فَرَجُلٌ رَجُلٌ، وَرَجُلٌ نِصْفُ رَجُلٍ، وَرَجُلٌ لَا رَجُلٌ؛ فَأَمَّا الرَّجُلُ فَذُو الرَّأْيِ وَالشُّورَى. وَأَمَّا نِصْفُ الرَّجُلِ فَالَّذِي لَهُ رَأْيٌ وَلَا يُشَاوِرُ. وَأَمَّا الَّذِي لَيْسَ بِرَجُلٍ فَالَّذِي لَا رَأْيَ لَهُ وَلَا يُشَاوِرُ» (2).

وَكَقَوْلِ خَوَارِزْمِ شَاهِ مَأْمُونِ بْنِ مَأْمُونٍ - فِي دَوَاعِي الْمَحَبَّةِ: «ثَلَاثَةٌ تُورِثُ الْمَحَبَّةَ: الْأَدَبُ، وَالتَّوَّاضُعُ، وَالدِّينُ».

وَقَوْلِ آخَرَ فِي قِصْرِ الزَّمَانِ:

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ مَتَاعٌ وَالسَّفِيهُ الْغَبِيُّ مَنْ يَضْطَفِيهَا
مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمِّلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا (3)



(1) ذكره ابن عبد البر في «أدب المُجالسة وحمد اللسان» (ص 106) عن بعض الحكماء.
(2) لعله الحسن البصري، فقد ذكر هذا القول عنه الأبيشي في «المستطرف» (ص 84)، وأخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (10/ 188) عن الشَّعْبِيِّ.
(3) القائل: إبراهيم بن عثمان الغزي. انظر: «خريدة القصر وجريدة العصر»، للأصبهاني (2/ 219).



الفصل الثاني: في الإثبات، وفيه مبحثان

هو في اللغة: التمكن، يقال: أثبت الأمر: جعله مكينًا.

وفي الاصطلاح: عبارة عن تأييد القضية بالبرهان.

وهو قطب الخطابة، وغاية مقصود السامعين.

والإثبات قسمان:

إيجابي: وهو ما اشتمل على تصديق القضية وتعزيزها بالأدلة اللامعة،
والحجج الدامغة، ويسمى التبيين.

وسلبي: يفند به الخطيب حجج الخصم، ويدحض مقاله، ويسمى التفنيد.

المبحث الأول: في تبين القضية

وطريق التبيين: معرفة علم البحث والجدل.

والبحث في اللغة: الفحص.

وفي اصطلاح أهل النظر: يُطلق على حمل شيء على آخر، ثمَّ خصَّوه بإثبات القضية بالدليل.

ويترتب علم البحث في إثبات القضية على معرفة القياس، فيه يتوصل الخطيب إلى تأييد رأيه، وتخطئة رأي خصمه.

والكلام على القياس وأنواعه والجدل وطرقه مبسوط في علمي المنطق وأدب البحث، وأمرهما هين عليك إلا أن القياس المنطقي يختلف عن القياس الخطابي من وجهين.

الأول: أن المنطقي يتبع اليقينيَّات، أمَّا الخطابيُّ فإنه يستند إلى المقبولات والمظنونَّات؛ لكفايتها في الإقناع، وهي القضايا التي يحكم بها؛ لاعتقاد الناس صحتها، ولثبوتها بحكم الظن، كقولك: فلان مُتلطِّخٌ بالدم؛ فهو قاتل.

والوجه الثاني: أن المنطقي - عادةً - لا يتصرّف في القياس، بخلاف الخطيب؛ فإنه يتصرّف في المُقدِّمات بالتقديم والتأخير على ما يراه أقرب لغايته



وَأَوْفَقَ؛ كَقَوْلِ الْإِمَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَحْضُ أَنْصَارُهُ عَلَى اقْتِفَاءِ آثَارِهِ -: «إِنِّي إِمَامُكُمْ وَأُسُونُكُمْ؛ فَسِيرُوا بِسِيرَتِي، وَاقْتَفُوا مَعَالِمِي؛ فَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بنورِ عِلْمِهِ، أَلَّا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمَرِيهِ (1)، وَمِنْ طَعَامِهِ بِقُرْصِيهِ (2)» (3).

وكقول صاحب كتاب «زَجَرِ النَّفْسِ» (4) - وقد أراد أن يثبت ألا لذة في الدُّنيا -: «يا نَفْسُ يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمِي وَتَتَيَقَّنِي أَنَّ حَدَّ اللَّذَّةِ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ مَا لَا يُمَلُّ، وَمَتَى طَلَبْتَ النَّفْسَ فِي الْكُونِ لَذَّةً فَقَدْ سَمَتَ إِلَى غَيْرِ مَوْجُودٍ، وَطَلَبْتَ مَا لَا يُمَكِّنُ.

والدليل البين على هذا: أَنَّ جَمِيعَ مَا تَشْتَاقُهُ النَّفْسُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَمْلُوءٌ، وَالْمَمْلُوءُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى لَذَّةً؛ إِذَا كَانَ حَدُّ اللَّذَّةِ مَا لَا يُمَلُّ.

أَوْ مَا تَنْظُرِينَ - يا نَفْسُ - إِلَى أَكْثَرِ أَهْلِ الدُّنْيَا: كَيْفَ يَبْحَثُونَ فِي طَلَبِ اللَّذَاتِ، وَيَتَوَهَّمُونَ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَتْ هِيَ مَوْجُودَةٌ؟! فَتَبَيَّنَ أَنَّ النَّاسَ يَطْلُبُونَ فِي الدُّنْيَا مَا لَيْسَ فِيهَا.

(1) مثني طمر، وهو: الثوب الخلق، ويجمع على أطمار. م. [م].

(2) أي: رغيفيه.

(3) انظر «شرح نهج البلاغة» (16/ 205).

(4) كتاب «زجر النفس» لهرمس الحكيم: خطاب مع النفس؛ لتنبيهها من الانغماس في العالم الدنيوي والحذر منه، وعدم الركون إليه والاعترا به.

المبحث الثاني: في التفنيذ

وَيُسَمَّى أَيْضًا: التَّقْضُ، **وهو في اللغة:** التَّكْذِيب والتَّجْهِيل.

وفي الاصطلاح: هو قِسْمٌ مِنَ الْخُطَابَةِ يُخَطَّى بِهِ الْمُتَكَلِّمُ رَأْيَ خَصْمِهِ، وَيُرَدُّ عَلَى حُجَجِهِ.

وليس للتفنيذ وَقْعٌ حَسَنٌ فِي كُلِّ أَصْنَافِ الْخُطْبِ؛ فَإِنَّ الْإِضْرَابَ عَنْ حُجَجِ الْخَصْمِ فِي بَعْضِ الْمَقَامَاتِ قَدْ يَكُونُ أَوَّلَى مِنْ نَقْضِهَا؛ لِقِلَّةِ اكْتِرَاثِ السَّامِعِ لَهَا.

هذا إِلَى أَنَّ اعْتِرَاضَاتِ الْخَصْمِ رُبَّمَا حُلَّتْ بِمَجْرَدِ إِثْبَاتِ الْخُطِيبِ لِقَضِيَّتِهِ، فَلَا تُمَسُّ الْحَاجَةُ إِلَى تَفْنِيدِهَا؛ لِأَنَّ الْأُضْدَادَ ثَلَازِمَ بَعْضُهَا، فَيَكُونُ تَحَقُّقُ الشَّيْءِ نَفْيًا لِنَقِيضِهِ.

والحجج المقتضى تفنيدها على ثلاثة أصناف؛ فمنها: ما يَسْبِقُ إِلَيْهِ وَهُمْ السَّامِعُ، وَالْأَغْلَبُ أَنْ يُفْنِدَهَا الْخُطِيبُ فِي صَدْرِ خُطَابِهِ؛ كَمَا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَ الْجُنْدَ عَلَى الْجِهَادِ، فَإِنْ تَوَهَّمَ الْجُنْدُ خَوْفَهُمْ مِنَ الْعَدُوِّ، فَلَا يَنْجِعُ كَلَامُهُ فِيهِمْ مَا لَمْ يُبْطَلْ خَوْفُهُمْ مِنْهُ فِي بَدْءِ خُطَابِهِ بِبَيَانِ فَضْلِهِمْ عَلَيْهِ، وَلَوْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ.

ومنها: مَا يَفْتَرِضُهَا الْخُطِيبُ؛ لِتَوَاتُرِ وَقُوعِهَا، وَيَعْرِضُهَا عَلَى نَفْسِهِ،



وَيُبْطِلُهَا؛ كَتَفْنِيدِ حُجَجٍ مَنْ يَتَهَاوَنَ بِالْمَعَاصِي؛ اتَّكَالًا عَلَى حِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ، أَوْ مَنْ يُوجِّلُ التَّوْبَةَ؛ رَجَاءً أَنْ يُنِيبَ إِلَى رَبِّهِ فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ.

ومنها: ما يَأْتِي بِهَا الْخُصْمُ فِي الْمُقَاضَاةِ، وَالْمُشَارَعَةِ فِي الدَّعَاوَى.

وَمِنْ أَحْسَنِ أَمْثَلَةِ التَّفْنِيدِ فِي بَابِ الْخُطَابَةِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْمَدَائِنِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: «كَانَ عَمْرُو فِي مَوْسِمٍ مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، فَأَطْرَى مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ، وَذَكَرَ مَشَاهِدَهُ بِصِفِّينَ، وَاجْتَمَعَتْ قَرِيشٌ، وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَلَى عَمْرٍو، فَقَالَ: يَا عَمْرُو، إِنَّكَ بَعْتَ دِينَكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ، وَأَعْطَيْتَهُ مَا بِيَدِكَ، وَمَنَّاكَ مَا بِيَدِ غَيْرِكَ، وَكَانَ الَّذِي أَخَذَ مِنْكَ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَالَّذِي أَخَذَتْ مِنْهُ دُونَ الَّذِي أُعْطِيتَ، وَكُلُّ رَاضٍ بِمَا أَخَذَ وَأُعْطِيَ، فَلَمَّا صَارَتْ مِصْرُ فِي يَدِكَ كَدَّرَهَا عَلَيْكَ بِالْعَزْلِ وَالتَّنْقِيصِ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ فِي يَدِكَ أَلْقَيْتَهَا، وَذَكَرْتَ مَشَاهِدَكَ بِصِفِّينَ، فَوَاللَّهِ مَا ثَقُلْتَ عَلَيَّ وَطَأْتُكَ، وَلَقَدْ كَشَفْتَ فِيهَا عَوْرَتَكَ، وَإِنْ كُنْتَ فِيهَا لَطَوِيلُ اللِّسَانِ، قَصِيرُ السِّنَانِ، آخِرُ الْخَلِيلِ إِذَا أَقْبَلْتَ، وَأَوَّلُهَا إِذَا أَدْبَرْتَ.

لَكَ يَدَانِ؛ يَدٌ لَا تَبْسُطُهَا إِلَى خَيْرٍ، وَأُخْرَى لَا تَقْبِضُهَا عَنْ شَرٍّ، وَلِسَانٌ غَرُورٌ ذُو وَجْهَيْنِ؛ وَجْهٌ مُوَحِّشٌ، وَوَجْهٌ مُؤْنِسٌ. وَلَعَمْرِي إِنَّ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ لَحَرِيٍّ أَنْ يَطُولَ عَلَيْهِ نَدْمُهُ. لَكَ لِسَانٌ، وَفِيكَ خَطْلٌ⁽¹⁾. وَلَكَ رَأْيٌ، وَفِيكَ نَكْدٌ⁽²⁾. وَلَكَ قَدَرٌ وَفِيكَ حَسَدٌ، وَأَصْغَرُ عَيْبٍ فِيكَ أَعْظَمُ عَيْبٍ فِي غَيْرِكَ.

(1) خَطْلٌ فِي مَنْطِقِهِ وَرَأْيُهُ، مِنْ بَابِ تَعَبٍ: أَخْطَأَ. [م].

(2) فِي الْقَامُوسِ: نَكْدٌ زَيْدٌ حَاجَةٌ عَمْرٍو: مَنَعَهُ إِيَّاهَا. [م].

فأجابه عمرو بن العاص: والله ما في قُرَيْشٍ أَثْقَلُ عَلَيَّ مسألة ولا أَمَرٌ جَوَابًا مِنْكَ، ولو استطعتَ أَلَّا أُجيبَكَ لَفَعَلْتُ، غيرَ أَنِّي لم أَبْغِ ديني مِن معاويةَ، ولكن بعثَ اللهُ نفسي، ولم أَنَسْ نصيبي من الدنيا.

وَأَمَّا مَا أَخَذْتُ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَعْطَيْتُهُ فَإِنَّهُ لَا تُعَلِّمُ الْعَوَانَ الْخِمْرَةَ (1).

وَأَمَّا مَا أَتَى إِلَيَّ مُعَاوِيَةَ فِي مِصْرَ فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُغَيِّرْنِي لَهُ.

وَأَمَّا خِفَّةُ وَطْأَتِي عَلَيْكُمْ بِصِفِّينَ فَلِمَ اسْتَثْقَلْتُمْ حَيَاتِي وَاسْتَبْطَأْتُمْ وَفَاتِي؟

وَأَمَّا الْجُبْنُ فَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ أَنِّي أَوَّلُ مَنْ يُبَارِزُ وَآخِرُ مَنْ يُنَازِلُ.

وَأَمَّا طُولُ لِسَانِي فَإِنِّي - كَمَا قَالَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ:

لِسَانِي طَوِيلٌ فَاخْتَرِسْ مِنْ عَلَيْكَ وَسَيْفِي مِنْ لِسَانِي أَطْوَلُ

وَأَمَّا وَجْهَائِي وَلِسَانَايَ فَإِنِّي أَلْقَى كُلَّ ذِي قَدَرٍ بِقَدْرِهِ، وَأُرْمِي كُلَّ نَابِجٍ بِحَجَرِهِ؛ فَمَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ كَفَانِي نَفْسُهُ، وَمَنْ جَهِلَ قَدْرَهُ كَفَيْتُهُ نَفْسِي.

وَلَعَمْرِي مَا لِأَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ مِثْلَ قَدْرِكَ مَا خَلَا مُعَاوِيَةَ، فَمَا يَنْفَعُنِي ذَلِكَ عِنْدَكَ، وَأَنْشَأَ عَمْرُو يَقُولُ:

بَنِي هَاشِمٍ مَا لِي أَرَاكُمْ كَأَنَّكُمْ بِي الْيَوْمَ جُهَّالٌ وَلَيْسَ بِكُمْ جَهْلٌ

(1) الْعَوَانُ: الْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَ لَهَا زَوْجٌ، وَالْخِمْرَةُ بِكَسْرِ فَسْكَوْنٍ: هَيْئَةُ لِبَسِ الْخِمَارِ، وَهُوَ ثَوْبٌ تُعْطِي بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا. وَالْجُمْلَةُ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ اسْتَغْنَى بَعْلِهِ وَتَجَارَبَهُ عَنِ الْإِسْتِعَانَةِ بِرَأْيِ غَيْرِهِ. م. [م].

(2) الشَّدَاةُ: مَا كَثُرَ مِنَ الْعُودِ. جَمْعُهَا: شَذَى، كَحِصَاةٍ، وَحَصَى. [م].



أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي سَرِيعٌ إِلَى الْوَعْيِ سَرِيعٌ إِلَى الدَّاعِي إِذَا كَثُرَ الْقَتْلُ
وَأَوَّلَ مَنْ يَدْعُو نِزَالَ طَبِيعَةٍ جُبِلْتُ عَلَيْهَا وَالطَّبَّاعُ هِيَ
وَأَنِّي فَصَلْتُ الْأَمْرَ بَعْدَ اشْتِبَاهِهِ بِدُومَةٍ إِذْ أَعْيَا عَلَى الْحُكْمِ
وَأَنِّي لَا أَعْيَا بِأَمْرٍ أُرِيدُهُ وَأَنِّي إِذَا عَجَّتُ بِكَارِكُمُو
وما يحتاج إليه الخطيب - أيضًا -: المغالطة لإِفْحَامِ الْخَصْمِ.

وهي في اللغة: النسبة إلى الغلط.

وعند المنطقيين هي: صناعة يُعرف بها القياسُ الفاسدُ؛ إمَّا من جهة الصورة، أو من جهة المادَّة، أو منهما معًا.

وموادُّها: المقدمات الشبيهة بالحقِّ، وليست به.

ثم إنَّها تنقسم إلى ما يتعلَّق بالألفاظ بأن تكون مختلفة الدلالة، فيقع الاشتباه بين ما هو المراد، وبين ما هو غيره، ويدخل فيه الاشتراك، والتَّشْبِيهُ، والمَجَازُ، وإلى ما يتعلَّق بالمعاني وتأليف القياس، كعدم صحَّة مقدماته، أو مغايرة النَّتِيجَةِ لِإِحْدَى الْمُقَدِّمَتَيْنِ.

مثال المغالطة المعنويَّة: قول الإمام عليٍّ - يردُّ على معاوية، وكان نسب إليه أشياء -: «وزعمت أني لكلِّ الخلفاء حسدٌ، وعلى كلِّهم بغيتُ، فإن يكن

(1) الجُبْلُ بضم فسكون: الشَّجَرُ الْيَابِسُ. اهـ. م. [م].

(2) يُشِيرُ إِلَى حَادِثَةٍ تَحْكِيْمُهُ هُوَ وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فِي نِزَاعِ عَلِيٍّ وَمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ أَجْمَعِينَ، وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ. م. [م].

(3) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه (4 / 97).

ذلك كذلك فليست الجناية عليك، فيكون العذر إليك؛ و(تلك شكاةٌ ظاهرٌ
عَنكَ عَارُهَا) (1).

وقلت: إني كنتُ أَقَادُ كما يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ (2) حتى أبايع.

وَلَعَمْرُ اللَّهِ لقد أردتُ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ، وما على
المسلم مِنْ غَضَاةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا ما لم يكن شاكًا في دينه، ولا مرتابًا
ببقيته، وهذه حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ قَصْدُهَا، ولكني أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدَرِ مَا سَنَحَ
مِنْ ذِكْرِهَا، ثم ذكرتُ ما كان مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تَجَابَ عَنْ هَذِهِ
لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيْنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ وَأَهْدَى إِلَى مِقَاتِلِهِ؛ أَمِنْ بَدَلٍ لَهُ نُصْرَتُهُ
فَاسْتَفْعَدَهُ وَاسْتَكْفَفَهُ أَمْ مَنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاحَى عَنْهُ، وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ. حتى أتى
قَدْرُهُ عَلَيْهِ؟

كلا - والله - لقد عَلِمَ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ: هَلُمَّ
إِلَيْنَا، وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا، وما كنتُ لَأَعْتَذِرُ مِنْ أَنِّي كُنتُ أَنْقَمَ عَلَيْهِ
أَحَدًا إِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهْدَايَتِي لَهُ، قَرَّبَ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَقَدْ
يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةُ (3) الْمُتَنَصِّحُ، وما أردتُ إِلَّا الإِصْلَاحَ ما اسْتَطَعْتُ، وما توفيقِي
إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (4).

(1) عَجَزَ بَيْتٌ لِأَبِي ذُؤَيْبٍ الْهَذَلِي صَدْرَهُ: وَعَبَّرَهَا الْوَاشُونَ أَنِّي أَحْبَبُهَا...

(2) الْمَجْعُولُ فِيهِ الْخُشَاشُ، وَهُوَ عُودٌ يُجْعَلُ فِي عِظَمِ أَنْفِ الْبَعِيرِ. م. [م].

(3) الظَّنَّةُ بِالْكَسْرِ: التُّهْمَةُ. وَالْمُتَنَصِّحُ: مَاخُذٌ مِنَ التَّنَصُّحِ، وَهُوَ التَّنَصُّحُ، قَالَ أَكْثَمُ: «يَا بَنِي،
إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ التَّنَصُّحِ؛ فَإِنَّهُ يُورِثُ التُّهْمَةَ». م. [م].

(4) انظر «التذكرة الحمدونية» (7/ 165، 166)، و«شرح نهج البلاغة» (15/ 182، 183).



وللخطيب وسائل أخرى لمناقضة الخصم، منها:

التنديد: بأن يُعرّض بمعايب الخصم؛ لإبطال حجّته، كما جاء في كتاب «إخوان الصفا» على لسان البغاء - تردّد على الإنس، وكانوا تفاخروا بمُلوكهم وساستهم، وتنتصر للحيوان - : «خذ الآن أيّها الإنسيّ بإزاء ما ذكرتِ وافتخرتِ به واحدًا مذمومًا، وبَدَل كُلِّ جنسٍ حسنٍ مَليحٍ جنسًا قبيحًا سمجًا، ونحن بمعزلٍ عنها؛ وذلك أنّ منكم الفراعنة، والنّماردة، والفسقة، والمنافقين، وقُطّاع الطُّرق، واللُّصوص، ومنكم - أيضًا - الدّجالون، والكذّابون، والغمازون، والمشاءون، وكَيْتَ وكَيْتَ مِن كُلِّ أخلاقِ بني آدم المذمومة، ونحن بمعزلٍ عنها، ونُشارككم في أكثر الخصال المحمودة والسّنين العادلة، ولنا ملوكٌ خَيْرٌ مِن مُلُوكِكُمْ.

أومّا علمت أنّ لجماعة النّحلِ والتّملِ والسّباع والطّيور رؤساء، وجنودًا، وأعوانًا، ورعيّة، وأنّ رؤساءها أحسنُ سياسةً وأشدُّ رعايةً وتحنُّنًا عليها مِن رؤسائكم؟

ذلك أنّ رئيس الإنس لا ينظر في أمور رعيّته إلا لجلبِ المنفعة لنفسه، أو لدفعِ المضرة عنه، أو من يهواه لشهواته كائنًا من كان، من بعيدٍ أو قريبٍ، وليس هذا من فعل الرؤساء العقلاء، ولا أمل ذوي السياسة الرّحماء؛ فإنّ من سياسة المَلِكِ وشرائطه وخصال الرّياسة أن يكون الرّئيس رحيماً، رءوفاً برعيّته، مُشفقاً، حناناً على جنوده وأعوانه؛ اقتداءً بسنة الله الرّحيم الرّحمن

الودود بخلقه، كائنًا من كان، وهو رئيس الرؤساء⁽¹⁾، ومَلِك المُلوك.

وأما أجناس الحيوانات ومُلوكها ورؤساؤها فهم أكثر اقتداءً بسنة الله تعالى؛ ذلك أن مَلِك التَّحَل ينظر في أمور رعيته، ويتفقد أحوالها، وهكذا بقيّة مُلوك الحيوانات التي لها رؤساء ومُدبِّرون، لا يطلبون من رعاياهم عَوْضًا ولا جزاءً فيما يسوسونهم به، ولا يَطْلُبُون مِن أولادهم بِرًّا ولا مكافأةً في تربيتهم، بل تُرَبِّي أولادها تَحَنُّنًا عليها، ورأفةً بها، كل ذلك اقتداءً بسنة الله؛ إذ خَلَق عبده وأنشأهم، وربَّاهم، وأنعم عليهم، وأحسَن إليهم، وأعطاهم من غير سؤالٍ منهم، ولم يطلب على ذلك جزاءً ولا شكورًا.

وإليكم يُوجّه الأمر، والتَّهْيِي، والوعد، والوعيد - مَعَشَرَ الإنس - دوننا؛ لأنكم عبيدُ سُوءٍ، يقع منكم الخلافُ، والكفر، والعصيان، والطُّغْيَان، وأنتم بالعبودية أولى منّا، ونحن بالحرِّيّة أولى منكم؛ فَمِن أينَ زَعَمْتُمْ أنكم أربابٌ لنا، ونحن عبيدٌ لكم».

ومنها: الاستدراك: بأن يُقَابِل اعتراضاتِ الخصمِ باعترافاتٍ مثلها، تُوهن قُوَّاهَا، وتُفَكِّكُ عُرَاهَا، كقول أبي حَمْزَةَ الخَارِجِي - وقد بلغه أَنَّ أَهْلَ المدينة يعيبون أصحابَهُ لحدائِة أسنانهم، وَخِفَّة أحلامهم، فصعد المنبر وعليه كساءٌ غليظٌ، وهو⁽²⁾ مُتَنَكِّبٌ قوسًا عربيًّا، فقال:- «يا أَهْلَ المدينة بَلِّغْنِي أنكم تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي، قلتُم: هم شبابٌ أحداثٌ، وأَعْرَابٌ جُفَاءٌ، ولولا

(1) بالطبع لا يجوز وصف الله بهذا.

(2) تَنَكَّبَ قَوْسُهُ: وَضَعَهُ عَلَى مَنْكِبِهِ، وهو مجمعُ رأسِ الكَتِفِ والعَضُد. م. [م].



مَعْرِفَتِي بضعف رَأْيِكُمْ، وَقِلَّةِ عُقُولِكُمْ لأحسنتُ آدابكم، وَيَحْكُم يا أَهْلَ المدينة، وهل كان أصحابُ نَبِيِّنا المذكورون في الخبر إلا أحيانًا شبابًا، شبابٌ - والله - مُكْتَهِلُونَ في شبابهم، عَفِيفَةٌ عن الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ، ثَقِيلَةٌ عن الباطل أقدامُهُمْ، قد باعوا أَنْفُسًا تَمُوت غداً بِأَنْفُسٍ لا تَمُوتُ أَبَدًا، فَطُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مآبٍ»⁽¹⁾.

ومنها التَّهَكُّمُ: بَأَن يُبَيِّنَنَّ أَنَّ ما جاء به الخصمُ مِنَ الأدلَّةِ لا قيمة له، كقول الإمام عليٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** لمعاوية **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وكان تَهَدَّدَهُ بالحرب: «وذكرتُ أَنَّهُ ليس لي ولأصحابي إلا السَّيْفُ، فلقد أضحكت بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ⁽²⁾، متى أَلْفَيْتَ بني عبد المَظْلَبِ عن الأعداءِ ناكِلينَ، وبالسُّيُوفِ مُحَوِّفِينَ؛ (فَلَبَّثْتُ قَلِيلًا يَلْحَقُ الهَيْجَا حَمَلٌ)⁽³⁾، فسيطلبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، ويقربُ منك ما تَسْتَبْعِدُ، وأنا مُرْقِلٌ⁽⁴⁾ نحوك في جَحْفَلٍ⁽⁵⁾ من المهاجرين والأنصار والتَّابِعِينَ لهم بإحسان، شديدٌ

(1) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (4/ 385).

(2) استعبر فلان: حَزَنَ، جَرَتْ دَمْعَتُهُ.

(3) هو حَمَلُ بن بدر الفزاري، أغاروا على إبله في الجاهلية فلحقهم مُرْتَجَرًا:

لَبَّثْتُ قَلِيلًا يَلْحَقُ الهَيْجَا حَمَلٌ
لا بأسَ بِالْمَوْتِ إِذِ الْمَوْتُ نَزَلَ

انظر «شرح كتاب الأمثال» للبكري (ص 440).

(4) مأخوذ من أَرْقَلْتُ النَّاقَةَ إِرْقَالًا، وهو نَوْعٌ من السَّيْرِ السَّريِعِ. [م].

(5) الجَعْفَلُ كجعفر: الجيش الكثير. [م].

زَحَامُهُمْ، سَاطِعٌ قَتَامُهُمْ⁽¹⁾، مُتَسَرِّبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ، أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، قَدْ صَحَبْتَهُمْ ذُرِّيَّةً بَذْرِيَّةً، وَسَيُوفُ هَاشِمِيَّةً، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نَصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدَّكَ وَأَهْلَكَ، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٣﴾ [هود: 83] (2).

وَيَنْبَغِي لِلخَطِيبِ أَنْ يَحْتَرِزَ فِي تَفْنِيدِ حُجَجِ الْخَصْمِ، وَيَصُونَ نَفْسَهُ مِنْ أَرْبَعِ خَصَالٍ:

الأولى: أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ رَدِّهِ أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ حُجَّةِ خَصْمِهِ، يَجْهَلُ قُوَّتَهَا، أَوْ يَتَجَاهَلُ بِهَا.

الثانية: أَنْ يَكُونَ جَوَابُهُ مُلْتَبَسًا ضَعِيفًا، أَقْرَبَ إِلَى التَّكَلُّفِ لِمُنَازَرَةِ الْخَصْمِ مِنْهُ لِتَقْرِيرِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ الصَّوَابِ.

الثالثة: أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الْمَوْضُوعِ، فَيَتَشَاغَلَ بِجَلٍّ مَا لَمْ يُكَلِّفْهُ الْخَصْمُ حَلَّهُ، فَيَكُونُ كَالرَّاقِمِ عَلَى صَفْحَاتِ الْمَاءِ.

الرابعة: أَنْ يَخْرُجَ عَنْ مَحَجَّةِ الْآدَابِ الْمَأْنُوسَةِ، وَيَذْهَلْ عَنْ سَنَنِ الْأُلْفَةِ وَالْإِخَاءِ، مَتَى كَانَتْ الْغَايَةُ نُصْرَةَ الْحَقِّ، وَالْأَخْذُ بِيَدِ الْفَضِيلَةِ.



(1) الْقَتَامُ وَزَانُ كَلَامٍ: الْغُبَارُ الْأَسْوَدُ. اهـ. م. [م].

(2) انظر «شرح نهج البلاغة» (15/ 182 - 184).



الفصل الثالث: في الختام

هو آخر ما ينتهي إلى أُذُنِ السَّامِعِينَ مِنْ كلام الخطيب، وهو ما يشترك فيه الخطيبُ والأديبُ، ويُسمَّى حُسْنَ الانتهاء، وحُسْنَ المَقْطَعِ، وكما يجب التأقُّق في المَطْلَعِ تَجِبُ البرَّاعَةُ في المَقْطَعِ؛ إذ هو الأثر الباقي في نفوس السَّامِعِينَ بعد الإتمام، وآخر ما يتردَّد صداه في قلوبهم، وبه تتمُّ الفائدة، ولأنَّه قد يَستَرِ عوار ما قبله عند النفوس التي لا تتعمد التَّقْد.

قال الحموي: «لا بُدَّ أَنْ يُحَسِّنَ الْمُتَكَلِّمُ غايةَ الإحسان في الختام؛ لأنَّه آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حُفِظَ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فلا يحسن الشُّكوت على غيره»⁽¹⁾.

وأمثلة حُسْنِ الختام كثيرةٌ في القرآن الكريم، وخطبِ البُلغاء، من ذلك: خاتمة البقرة، وآل عمران، والنساء، وبراءة؛ فانظُرْ تَرَهَا غايةً في الحُسْنِ، ونهايةً في الإبداع؛ فإنها بين أدعيةٍ، ووصايا، وفرائض، ووصف رسول الله ﷺ، ومدحه، وتسليته، ووصيته بالثقة بالله تعالى، والتَّهليل، والتفويض إليه سبحانه.

(1) انظر «خزانة الأدب» (2/ 493).

والغاية من حُسن المقطع أمران: أن يتم إقناع السامعين، حتى لا يبقى للنفوس بعده تطلُّعٌ.

وهذا يكون بذكر مجمل ما أتى به مُفصَّلاً، وأن يهيج بهم الميل إلى العمل بما أذعنوا له، وذلك يكون بالمبالغة في تحريك العواطف والمهارة في التأثير.

وعلى الخطيب إذا لخص الخطبة أن يكتفي بذكر أهم ما جاء فيها من البَيِّنات؛ فيبرزها على صورة جديدة، وأسلوب رشيق؛ لئلا تذهب طلاوة الكلام.

مثال ذلك: ختام الشيخ جمال الدين الأفغاني **رَحِمَهُ اللهُ** لمقالته في مذهب الطبيعيين، قال: «فَتَبَيَّنَ مِمَّا قَرَّرْنَا أَنَّ الدِّينَ - وَإِنْ جَفَاهُ أَهْلُهُ - فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ طَرِيقَةِ الدَّهْرِيِّينَ، وَأَمْسُ بِالْمَدَنِيَّةِ، وَنِظَامِ الْجُمُعِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَجْمَلُ أَثَرًا فِي عَقْدِ رَوَابِطِ الْمُعَامَلَاتِ، بَلْ فِي كُلِّ شَأْنٍ يَفِيدُ الْمُجْتَمَعَ الْإِنْسَانِيَّ، وَفِي كُلِّ تَرَقُّقٍ بَشَرِيٍّ إِلَى آيَةِ دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْأُولَى.

وَلَمَّا كَانَ نِظَامُ الْأَكْوَانِ قَدْ بُنِيَ عَلَى أُسَاسِ الْحِكْمَةِ، وَنِظَامُ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ مِنَ النِّظَامِ الْكُونِيِّ - أَلْهَمَ اللهُ نَفُوسَ الْبَشَرِ أَنْ تَفْزَعَ إِلَى مُقَاوَمَةِ أَوْلَئِكَ الْمُفْسِدِينَ (الدَّهْرِيِّينَ) فِي أَيِّ زَمَانٍ ظَهَرُوا، أَوْ مُدَافِعَةٍ مَا يَعْضُ مِنْ شَرِّهِمْ، كَمَا أَلْهَمَهُمُ الْفَرْعَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرِسَةِ، وَالتُّفْرَةَ مِنَ الْأَغْذِيَةِ السَّامَةِ، وَأَنْهَضَ حُقَاقِ النَّظَامِ الْمَدْنِيِّ الْحَقِيقِيِّ (وَهُوَ الدِّينُ) لِبَذْلِ الْجُهْدِ، وَإِفْرَاقِ الْوُسْعِ فِي مَحْوِ آثَارِهِمْ، وَاسْتِئْصَالِ مَا يَغْرُسُونَ فِي تَعَالِيمِهِمْ، فَكَانَ عَارِضُ الشُّوْءِ مِنْهُمْ كَسَحَابَةِ الصَّيْفِ، كُلَّمَا ظَهَرَ تَقَشَّعَ، وَالنِّظَامُ الْحَقِيقِيُّ لِنَوْعِ الْإِنْسَانِ (وَهُوَ الدِّينُ) لَمْ يَزَلْ قَارًّا رَاسِحًا فِي جَمِيعِ الْأَجْيَالِ وَعَلَى أَيِّ الْأَحْوَالِ.



فلم تبق ريبه أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق ولم يُخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سبباً في السعادة الثامة والتعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها، بل يُفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والتفسي ما يُظفرهم بسعادة الدارين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ولا يمكن للخطيب أن يصل إلى تمام التأثير إلا إذا أفرغ كنانة مجهوده في تحريك الأهواء، فيلتجئ تارة إلى التحذير والترهيب، وأخرى إلى الوعد والترغيب، وأونة يحمل السامعين على الرجاء، وأخرى على الخوف والحياء.

وصفة القول: عليه ألا يترك باباً من أبواب التأثير إلا ويقرعه، ولا مسلكاً إلا وينهجه؛ ليغرس الفضيلة، ويقلع الرذيلة، وبالله تعالى التوفيق.



الأصل الثالث: في التعبير

غير خاف أن للتعبير شأنًا عظيمًا في الخطابة؛ لأنه كساء الكلام، به تنال الخطبة رونقها وبهاءها، كما يُزين الثوب لابسهُ، فإذا حُرِمَ الخطيبُ حُسْنَ التعبير فلا أثر له في إرادة السامع، ولا سلطان له على قلبه، بل تبقى عواطفه جامدةً باردةً، ولا يندفع إلى العمل بما يقصده منه.

ويُستحب فيه - فضلًا عن وضوحه وفصاحته - أن يكون غزير المادّة، مُنَمَّقًا بالأشكال البديعة الملائمة، آخذًا بِمَجَامِعِ القلوب، تَحِنُّ الجوارحُ إلى استماعه لما فيه من الانسجام والتفنُّن.

وإنَّ التعبير يدخل في فنِّ الإنشاء، ولما كان المنشئ والخطيب بمنزلةٍ واحدةٍ، من حيث توجيهُ الكلام نحو الغير لم تكن للخطيب حاجة إلى قواعد خاصة لتأدية مراده، أكثر مما يعلم من فنِّ الإنشاء.

وإنا نذكرك الآن ما يهمُّ الخطيب منه، وهو أمور:



الأول: التفنن

وهو أن يأخذ بأنواعٍ من الكلام وأفانين من القول، ويذهب فيه إلى طُرُقٍ شتى وأساليب متنوعة، فيُلَبِّس المعنى الواحد عدَّةَ أثوابٍ، ويكسو غَرَضَهُ حُلَلًا مختلفةً من الجُمْل والتراكيب، فيكون قد أتى بشيءٍ يجذب النُّفُوسَ إلى استماعه؛ فإنها ميَّالةٌ إلى حُبِّ الجديد، بخلاف ما إذا التزم أسلوبًا واحدًا من الكلام، فإنَّه بذلك يُوقِع السَّامِعِينَ في الملل والسَّامة.

والقرآنُ الكريمُ شاهدٌ على التَّفَنُّنِ مع حُسْنِ الأسلوب، ومتانةِ السِّياق، وعُدُوبةِ الألفاظ، ودِقَّةِ المعاني، وبُعْدِها عن مِظَنَّةِ التكرار، وذلك كما في قصَّةِ آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وأكَلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وهبوطِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، وكما في قصَّةِ إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مَعَ ضَيْفِهِ، وقصَّةِ موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مَعَ فِرْعَوْنَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، مَعَ تَفَنُّنٍ فِي الْعِبَارَةِ؛ مِمَّا يَظُنُّهُ الْجَاهِلُ بِأَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ تَكْرَارًا وَلَيْسَ بِهِ، بَلْ هُوَ غَايَةُ الْإِبْدَاعِ، وَنَهَايَةُ الْإِعْجَازِ.

الثاني: متانة الأسلوب

ومما ينبغي رعايته أن يَعْمَدَ الخطيبُ بعد استحضارِ المعاني إلى الألفاظ التي يريدُ أداءَها بها، فيُفْرغَ المعنى في قالبٍ يناسبه، فالمعاني الجزلة لا بُدَّ لها من جُمْلٍ وتراكيب في غاية الضَّخامة والفَخامة، والمعاني الرِّقِيقَة المُسْتَمْلَحَة لا بُدَّ لها من ألفاظٍ تُناسبها رِقَّةٌ وسلاسةٌ؛ ليحصل التَّشاكُلُ في التَّوعين، وتكون المعاني مع الألفاظ كالعروس المجلوة في الثوب القشيب.

وأصدقُ شاهدٍ على ذلك: ما تراه في قَوَارِعِ القرآن الكريم، من جزالة المعاني، وفخامة التراكيب، عند ذكر مُفارقة الدُّنيا، والحساب، والعذاب، وأهوال يوم القيامة.

وما تراه - أيضاً - عند ذكر الرَّحمة، والمغفرة، وما يدلُّ على البشارة والملاطفات في خطابات الأنبياء، والمرسلين، والتائبين، والمُنيبين من العباد، وغير ذلك مما استعمل فيه رقيق العبارة مع تمام الانسجام بين المعاني والألفاظ.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ إلى: ﴿فَبُئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ [الزمر: 68-72].



فهذه الآيات الكريمة المتضمنة ذكر المحشر على تفاصيل أحواله، وشديد أهواله، وذكر النار والعذاب، لا تجد فيها كلمة إلا وهي جزلة مُستَعَذِّبةٌ، على ما بها من الضخامة الملائمة لجزالة المعنى المقصود منها.

وكذلك كل آية سيقت للإرهاب والتخويف والإنذار والوعيد - تراها في منتهى الجزالة وضخامة التراكيب ومتانة الأساليب البالغة حد الإعجاز.

والثاني: كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝٧٣﴾ إلى آخر السورة [الزمر: 73 - 75]، فإنها لاشتغالها على دخول الجنة، والتمتع بما فيها من النعيم المقيم، والحصول على ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين - قد اشتملت على رقيق الألفاظ، ولطيف المعاني المسوقة للتشويق إلى نيل تلك المنزلة العالية الرفيعة.

وانظر إلى حسن الملاحظة ولطف الملاينة في أدق معانيها، وأرق مبانيها في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا دَعَاكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ السورة، فإنك تجدها تشف عن تمام العطف عليه والرضا عنه صلوات الله وسلامه عليه.

وانظر إلى تقديم العفو قبل العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ۝٤٣﴾ [التوبة: 43] - فإنها على وجازتها دلت على عدم المؤاخذة وكمال الملاطفة وتام الرضا عنه صلى الله عليه وسلم.

وبالتأمل نرى سبيل القرآن الكريم في كلتا الحالتين من الجزالة والرقّة على هذا الأسلوب الحكيم الذي أعجز أساطين البلاغة عن مُعَارَضَتِهِ والإتيان بأقصر سورةٍ من مثله (1).

وكذلك سبيل قُدَمَاءِ الْعَرَبِ قبل الإسلام، كما كان من قَبِيصَةِ بَنِ نَعِيمٍ لَمَّا قَدِمَ عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ فِي أَشْيَاخِ بَنِي أَسَدٍ وَأَشْرَافِهِمْ، يَسْأَلُونَهُ الْعَفْوَ عَنْ دَمِ أَبِيهِ حَجَرٍ، وَكَانَ قَبِيصَةُ ذَا بَصِيرَةٍ بِمَوَاقِعِ الْأُمُورِ وَرَدًّا وَإِصْدَارًا (2)، فَلَمَّا عَلِمَ امْرُؤُ الْقَيْسِ بِمَكَانِهِمْ أَمَرَ بِإِنْزَالِهِمْ، وَتَقَدَّمَ بِإِكْرَامِهِمْ، وَالْإِفْضَالَ عَلَيْهِمْ، وَاحْتَجَبَ عَنْهُمْ ثَلَاثًا، فَسَأَلُوا عَنْهُ، فَقِيلَ لَهُمْ: هُوَ فِي شُغْلٍ بِإِخْرَاجِ مَا فِي خَزَائِنِ

(1) الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: كَلَامُ اللَّهِ الْمَحْفُوظِ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ؛ لِأَنَّهُ مُبْرَأٌ مِنَ الْقُصُورِ وَالضَّعْفِ الْبَشَرِيِّ، وَهُوَ يَعْلُو وَلَا يُعَلَى عَلَيْهِ كَلَامٌ آخَرُ، وَقَدْ تَحَدَّى الْعَرَبُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَهُمْ فِرْسَانُ الْفَصَاحَةِ وَاللِّسَانِ، وَأَسَاطِينُ الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ - فَعَجَزُوا عَنْ مُجَارَاتِهِ هُمْ وَشُرَكَائِهِمْ مِنَ الْجِنِّ؛ قَالَ **جَلَّ جَلَالُهُ**: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

وَتَحَدَّاهُمُ اللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ؛ فَقَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: 34] - فَعَجَزُوا.

وَتَحَدَّاهُمُ **عَزَّجَلَّ** عَنِ الْإِتْيَانِ بِعَشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ فَقَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) [هود: 13] - فَعَجَزُوا.

وَتَحَدَّاهُمُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ؛ فَقَالَ **جَلَّ وَعَلَا**: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) [البقرة: 23] - فَعَجَزُوا.

(2) يعني: كيف يدخل فيها، وكيف يخرج منها معافي؟



أبيه حَجَرَ من السَّلاح والعدَّة، فقالوا: «اللَّهُمَّ غُفْرًا، إِنَّمَا قَدِمْنَا فِي أَمْرٍ نَتَنَاسَى بِهِ ذِكْرَ مَا سَلَفَ، وَنَسْتَدْرِكُ بِهِ مَا فَرَطَ، فَلْيَبْلُغْ ذَلِكَ عَنَّا، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فِي عِمَامَةٍ سَوْدَاءَ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ لَا تَلْبَسُهَا إِلَّا فِي الثَّرَاثِ، فَقَامُوا لَهُ، وَبَدَرَ إِلَيْهِ قَبِيصَةٌ، فَقَالَ لَهُ - مُسْتَعْظَفًا -: إِنَّكَ فِي الْقَدْرِ وَالْمَحَلِّ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِتَصَرُّفِ الدَّهْرِ وَمَا تُحْدِثُهُ أَيَّامُهُ، وَتَتَنَقَّلُ بِهِ أَحْوَالُهُ، بِحَيْثُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَذْكِيرٍ مِنْ وَاعِظٍ، وَلَا تَبْصِيرٍ مِنْ مُجَرِّبٍ، وَلَكَ مِنْ سُودَدِ مَنْصِبِكَ، وَشَرَفِ أَعْرَاقِكَ، وَكَرَمِ أَصْلِكَ فِي الْعَرَبِ مُحَدَّدٌ⁽¹⁾ يَتَحَمَّلُ مَا مُحْمَلٌ عَلَيْهِ مِنْ إِقَالَةِ الْعَثْرَةِ، وَالرَّجُوعِ عَنِ الْهَفْوَةِ، وَلَا تَتَجَاوَزُ الْهِمَمُ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَيْكَ، فَوَجَدْتَ عِنْدَكَ مِنْ فَضِيلَةِ الرَّأْيِ وَبَصِيرَةِ الْفَهْمِ وَكَرَمِ الصَّفْحِ مَا يُطَوِّلُ رَغْبَائُهَا، وَيَسْتَغْرِقُ طَلِبَائُهَا، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْخَطْبُ الْجَلْلُ الَّذِي عَمَّتْ رَزِيَّتُهُ نِذَارًا وَالْيَمَنُ، وَلَوْ كَانَ هَالِكٌ يُفْدَى بِالْأَنْفُسِ الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ لَمَا بَخَلْتَ كَرَامُنَا بِهَا عَلَى مِثْلِهِ، وَلَكِنَّهُ مَضَى بِهِ سَبِيلٌ لَا تَرْجِعُ أُخْرَاهُ عَلَى أَوْلَاهِ، وَلَا يَلْحَقُ أَفْصَاهُ أَذْنَاهُ.

فَأَحْمَدُ الْحَالَاتِ فِي ذَلِكَ: أَنْ تَعْرِفَ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ فِي أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَخْتَارَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا، وَأَعْلَاهَا فِي بِنَاءِ الْمَكْرَمَاتِ صَوْتًا، فَتَقُودَهُ إِلَيْكَ بِنِسْعَةٍ⁽²⁾ تَقْتَضِ مِنْهُ كَمَا تَشَاءُ، فَتَقُولُ: رَجُلٌ امْتَحَنَ بِهَالِكٍ عَزِيزٍ فَلَمْ يَسْتَلِّ سَخِيمَتَهُ⁽³⁾، أَلَا نُمَكِّنُهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ؟ وَإِمَّا أَنْ نَفْتَدِيَهُ بِمَا تَرْضَاهُ مِنْ نَعَمِ بَنِي

(1) المحتد: الأصل والطبع.

(2) هي القطعة من النَّسْعِ بالكسر، وهو سَيْرٌ تُشَدُّ بِهِ الرِّحَالُ. [م].

(3) السَّخِيمَةُ: الحقد. [م].

أَسَدٍ؛ فَهِيَ أُلُوفٌ، فَيَكُونُ ذَلِكَ فِدَاءً تَرْجِعُ بِهِ الْقُضْبُ (1) عَلَى أَجْفَانِهَا.

فَبَكَى أَمْرُ الْقَيْسِ طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: لَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنَّ لَا كُفَّاءَ لِحَجَرٍ فِي دَمٍ، وَأَنِّي لَنْ أَعْتَاضَ مِنْهُ جَمَلًا وَلَا نَاقَةً؛ فَأَكْتَسَبَ بِذَلِكَ سُبَّةَ الدَّهْرِ وَفَتًّا فِي الْعَصْدِ (2)، وَسْتَرُونَ طَلَائِعَ كِنْدَةَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، تَحْمِلُ فِي الْقُلُوبِ حَنْقًا، وَفَوْقَ الْأَسْنَةِ عِلْقًا (3).

إِذَا جَالَتِ الْحَرْبُ فِي مَازِقٍ تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَايَا النُّفُوسَا
أَتَقِيمُونَ أَمْ تَنْصَرِفُونَ؟

قَالُوا: بَلَى، نَنْصَرِفُ بِأَسْوَأِ الْإِخْتِيَارِ، وَأَبْلَى الْاجْتِرَارِ، بِمَكْرُوهِ وَأَذْيَةٍ، وَحَرْبٍ وَبَلِيَّةٍ، ثُمَّ نَهَضُوا عَنْهُ، وَقَبِيصَهُ يَتَمَثَّلُ قَوْلُهُ:

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخِمَ الْوَرْدَ (4) إِنْ كَتَأْتَبْنَا فِي مَازِقِ الْحَرْبِ تَخْطُرُ
فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنِّي أَسْتَعِذُّهُ، فَرُؤِيدًا يَنْفِرُجُ لَكَ دُجَى الْأَمْرِ بِفَرَسَانِ
كِنْدَةَ وَكَتَائِبَ حِمِيرٍ، وَلَقَدْ كَانَ ذِكْرُ غَيْرِ هَذَا أَوْلَى بِكَ؛ إِذْ أَنْتَ نَازِلٌ بِرَبْعِي (5).
فَقَالَ قَبِيصَةُ: نَعَمْ، وَلَكِنَّكَ قُلْتَ فَأَوْجِبْتَ.

(1) جَمْعُ قَضِيبٍ، وَهُوَ السَّيْفُ. وَالْأَجْفَانُ: جَمْعُ جَفْنٍ، وَهُوَ غِمْدُهُ. م. [م].

(2) قَتَّه: كَسَرَهُ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ.

(3) أَي: دَمًا.

(4) أَي: تَجِدُهُ وَخِيَمَ الْعَاقِبَةِ.

(5) الرَّبْعُ: الْمَنْزِلُ.



فقال امرؤ القيس: هو ذاك» (1).

فانظر إلى كلام قبيصة في استعطافه امرئ القيس، وما حواه من الرقة، وحسن الاستعطاف في استنزال امرئ القيس عما صمم عليه من سوء الانتقام، بإثارة غبار الحرب؛ لأخذ الثأر من قتلة أبيه، فإنك ترى ألفاظه رقيقة سهلة متناسبة مع المعنى الذي يقصده، بخلاف كلام امرئ القيس، فإنه - على جزالة ألفاظه وضخامتها - قد اشتمل على الشدة والإنذار بسوء العاقبة، وشر المنقلب، حتى أخرج صدر قبيصة، فقابل الشدة بالشدة والخشونة بمثلها.

وعلى الجملة: فلكل مقام مقال، يتسق مع معنى.

والقرآن الحكيم، وأحاديث رسول الله **صلى الله عليه وسلم**، وأقوال السلف الصالح في الوعظ والإرشاد والخطب والرسائل أعظم مُرشد يهديك إلى الغاية المقصودة، وبالله تعالى التوفيق.

(1) انظر «صبح الأعشى» للقلقشندي (2/ 208)، و«المثل السائر» (1/ 187 - 189).

الثالث: الاقتباس

وهو أن يأخذ المتكلم شيئاً من كلام غيره، فيدرجه في كلام نفسه بعد التمهيد له؛ لتأكيد ما أتى به من المعنى، فإن كان قليلاً فهو إبداع، وإن كان كثيراً فهو تضمين، وعلى كل فإنه يكون من كلام الله **عَزَّوَجَلَّ**، أو من كلام رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، أو من كلام البلغاء وغيرهم.

وقد رَخَّصَ بعض العلماء في تضمين بعض آيات القرآن في الخطب والمواعظ، حتى استعمله كثير من الناس، ما لم يخرج القرآن في التضمين عن الغرض المسوق له، وكان يُعطي الكلام حلاوةً وطلاوةً، وإلا مُنِعَ منه؛ فمن الجائز قول بعضهم ⁽¹⁾:

أَيُّهَا السَّائِلُ قَوْمًا	مَا لَهُمْ فِي الْخَيْرِ مَذْهَبٌ
أَتُرْكِي النَّاسَ جَمِيعًا	﴿وَالِإِيَّاكَ فَارْغَبْ﴾

فإنه لا إفراط فيه.

وقول الحريري- في صفة عبدٍ أرادَ شِراءَهُ-: «وَقَدْ لَبَسَ ثَوْبًا مِنَ الْجَمَالِ، وَحُلَّةً مِنَ الْكَمَالِ، فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ خَلَقَهُ الْقَوِيمَ، وَخُلِقَهُ الصِّمِيمَ خِلْتُهُ مِنْ وَلَدَانِ

(1) القائل: الإمام السيوطي. انظر «شذرات الذهب» لابن العماد (10/ 78).



جَنَّةِ النَّعِيمِ، وقلت: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾⁽¹⁾.

هذا والتَّضْمِينُ لا غِنَى للخطابة عنه، لكن على الخطيب أن يكون فيه حَكِيمًا، يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَحَلِّهِ، واللَّهُ الهادي إلى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

(1) انظر «مقامات الحريري» (ص 359)، وعنده: «وَحُسْنُهُ الصَّمِيمُ».

الرابع: الفصل والوصل

غير خاف أن ذلك من أسرار البلاغة، وربما لا يهتدي لتمام الصواب فيه ومعرفة كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، واستئناف الجملة بعد تاليتها إلا المَطْبُوعُونَ على البلاغة بِأَصْلٍ فِطْرَتِهِمْ، حتى قال بعضهم في حدّ البلاغة: «إنها معرفة الفصل والوصل»⁽¹⁾؛ وذلك لغموض مسلكها، ولأنّه من أحرز الفضيلة فيهما فقد سهّل عليه أن يُحرّزها في سائر أبواب البلاغة.

وقد ذكر علماؤها للفصل ستّة مواضع، وللوصل ثلاثة، وأمثلتها مبيّنة في كتبهم أتمّ بيان.

والخطيب في حاجة إلى تعرّف تلك المواضع، والاسترشاد بكتب البلاغة⁽²⁾، وتتبع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وكلام البلغاء؛ ليكون في هذا الباب على بصيرة، ويعرف كيفية العطف والاستئناف، فيصل في موضع الوصل، ويفصل في موضع الفصل؛ فارجع إلى كتّيب البلاغة، فالأمر في ذلك هينٌ عليك.

(1) ذكر ذلك أبو هلال العسكري عن الفارسي. انظر «الصناعتين» (ص 438).

(2) ومن أسير الكتب المعنية على ذلك كتاب «شرح دروس البلاغة» للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.



الخامس: الأداء الخطابي

وهو إلقاء الخطبة بما يليق بها من حسن اللفظ، وموافقة الصوت، وحركات الجسم.

وشأنه في الخطابة عظيم؛ لأنه بحسن الأداء يجيز في نفس السامع شواعره، ويحرك أهواءه، ويجيز به إلى حيث يقصد من الغاية.

فالخطبة دون الأداء جسم بلا روح، وسيئ مُعمد لا يُحسن حامله الضرب به.

ويدخل تحت حكم الأداء ثلاثة أشياء: الذاكرة، ثم الصوت، ثم الإشارة.

فالذاكرة، وتسمى الحافظة: قُوَّةٌ تُمْكِّنُ النَّفْسَ مِنْ حِفْظِ الْمَعَانِي الَّتِي يُدْرِكُهَا الْعَقْلُ، ثُمَّ مِنْ تَأْدِيَتِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَلَيْسَ لِلْخَطِيبِ غِنًى عَنْ هَذِهِ الْقُوَّةِ؛ لِأَنَّ الْخُطْبَ عَادَةً تُلْقَى عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ، فَإِنْ خَانَتْهُ ذَاكِرَتُهُ تَلْعَثَ وَأَدْرَكَهُ الْحَصْرُ⁽¹⁾، فَسَقَطَ حُجَّتُهُ، وَإِنْ ارْتَجَلَ خُطْبَتَهُ لَا بُدَّ لَهُ - أَيْضًا - مِنْ إِتْقَانِ رَسْمِهَا، وَتَقَاسِيمِهَا، وَأَدَلَّتِهَا، وَمَعَانِيهَا؛ لِئَلَّا يَخْرُجَ عَنِ الْمَوْضُوعِ أَوْ يَرْتَجَّ عَلَيْهِ،

(1) الحصر: ضيق الصدر عند النطق. وقد تقدّم بيانه.

ولا يتم ذلك إلا بحسن الذاكرة.

وأقرب وسيلة إلى تقويتها الممارسة؛ بأن يستظهر الخطيب طرقاتاً من نظم القدماء، وملحاً من أقاويل البلغاء، ويجهد ذاكرته على حفظها ومراجعتها والتّمرين على إلقائها بصوت عالٍ دون عيٍّ، ولا لكثرة ولا تمتمّة، ففي الحكم الماثورة: «مَنْ وَقَفَ حَيْثُ يَكْرَهُ وَقَفَ حَيْثُ يُحِبُّ».

ومن آداب التأديّة: أن يتمهل قليلاً بعد الوقوف قبل التّكلم؛ ليستجمع حواسه وفكره.

وللصّوت في الخطابة أطيّب موقع، وأحسن أثر؛ لأنّه الطريق إلى قلب السّامع، فإن نقر منه ذهب مساعي الخطيب سدى؛ فيراعى الخطيب من جهة الصّوت حسن اللفظ، واعتدال الصّوت، والثّقن فيه.

والمراد بحسن اللفظ: أن يُعطي كلّ حرف حقّه من الوضع المتعارف بين الأدباء، مع اجتناب لهجة العامّة المُبتدلة، وضبط الألفاظ بحركاتها المقبولة.

ولا بأس إن تكلم بين جمهور من الشعب أن يتقرّب منهم، ويتقلّد نوع كلامهم، دون ركة ووحشية.

واعتدال الصّوت: موافقته للظروف؛ فإنّ الصوت يختلف باختلاف الحضور، والمكان، والزّمان، وموضوع الكلام.

فالخطيب لا يتكلم أمام الرّؤساء كما يتكلم أمام المرءوسين.

كذلك يحتاج المكان الرّحب ووفرة السّامعين إلى صوت أدقّ وأجهر.



وليس صوتُ الخطيبِ في أَوَانِ الفَرَحِ كما يكون في أَوَانِ الحُزْنِ.

وبعضُ المواضعِ يَسْتَدْعِي صَوْتًا فَخِيمًا، وبعضُها يستدعي صوتًا بسيطًا.

وَيَتَفَنَّنُ الخطيبُ بصوته إذا راعى أقسامَ خُطْبَتِهِ؛ من افتتاح الكلام، وتأدية البراهين، وتحريك الأهواء، وحُسن الختام؛ فأعطى كُلَّ قِسْمِ الصَّوْتِ اللائقَ به على مُقتضى الحال.

وكذلك إذا طَبَقَ صوته مع العواطف التي يُبرِّزُها، فَلِكُلِّ عاطفةٍ صوتٌ خاصٌّ بها يتناسب معها؛ ألا ترى أَنَّ صوتَ الغضبِ يُخالف صوتَ الرِّقَّةِ والحنان، ولِلرَّجاءِ صوتٌ يُباينُ صوتَ القُنُوطِ، ولسانُ الخَوْفِ ينطق بصوتٍ ضعيفٍ خافتٍ، بخلاف صوت البطش والثَّوْرَةِ، وَقَسَّ عَلَيْهِ بَقِيَّةَ العَوَاطِفِ.

ولزيادة البيان نقول:

يَنْبَغِي للخطيبِ أَنْ يَسْتَفْتِحَ خُطْبَتَهُ بصوتٍ مُتَوَسِّطٍ، لا خافت ولا جهيرٍ، إلى أَنْ تدعوه الحالةُ إلى الجهرِ شيئًا فشيئًا، وَأَنْ يُعْطِيَ ألفاظَ الاستفهام والتعجب والتوبيخ واللوم والتقريع والزجر والتفخيم والتّهويل والتّحسُّر والتّحزُّن والتّندم والحيرة والبشارة والتّذارّة، ونحو ذلك - حَقَّهَا في التُّنْقِ، فَيُكَيِّفُ الصَّوْتِ فيها بكيفيّاتٍ خاصة، وانفعالاتٍ تتناسب مع المعنى الذي يقصده حتى يُؤثِّرَ ذلك في نفس السّامع؛ الخوف والرّهبة والانزعاج والتّندم، ويُحْدِثُ فيها هِزَّةَ الفرح والارتياح والنشاط؛ تبعًا لسير المعنى الذي يتكلم فيه، وَأَنْ يَخْفِضَ صوته في موضع الحُفْضِ واللّين، وَيَشْتَدَّ في موضع الشّدَّةِ، وَيَتَأَفَّفُ في موضع التّأَفُّفِ، وَيَتَطَامِنُ في موضع التّطَامُنِ؛ كالاستعطاف والاسترحام

واستنداء الأكف عند جمع المال للأعمال النَّافعة، أو الإنفاق على بيوتات مجد أحنى عليها الذَّهْر⁽¹⁾، أو نحو ذلك، وأن يَشْمَخَ بأنفه، ويُظْهِرَ العِزَّةَ وعُلُوَّ النَّفْسِ في مواضع الفخر والحماسة وذكُرِ شرف العلم والتقوى، وأن يتأثّر حتى يظهر أثر الانفعال المُعتدل في صوته وإشاراته وملامح وجهه؛ عند ذكر حادثة مؤلمة، أو حكاية خُطِبَ فطِيع، أو ندِمَ على فوات مطلب عزيز.

بحيث تكون لهجته في جميع ذلك لهجة خطابة، لا لهجة تلاوة يسرد فيها الكلام سرّداً، أو لهجة ترثيية تُخْرِجُها عن المألوف إلى نوع من الأغاني.

وعلى الجملة: ينبغي للخطيب أن يُعطي الموضوع حَقّه من حسن العبارة، وقُرْبِها من الأفهام، وجودة الإلقاء، والتّشخيص لمقامات الخطابة، حتى يَبْكِ أو يَتَبَاكَى عندما تدعو إلى ذلك حاجة، مراعيًا ما يُناسب الخطب الدّينية وغيرها، من غير أن يظهر عليه أثر التّصنُّع أو التّكلّف، وإلا سَقَطَ من العيون، وانصرفت عنه الأسماع، وكان موضعاً للنّقد والسّخرية، كما يلزمه أن يتجنّب التزام السّجع البارد الممقوت والجناس المتكلّف، بل عليه أن يُرْسِلَ الكلام إرسالاً من غير تَقَعُّر ولا تكلّف، فإن أتى السّجع أو الجناس عفواً وكان قارّاً في موضعه، غير نادٍّ عن الدّوق ولم تظهر عليه مسحة التّكلّف - فذاك، وإلا فقد أساء حيث يريد الإحسان.

أما الإشارة الخطابية: فهي حركات تبدو من جسم الخطيب ووجهه ورأسه وجوارحه، من شأنها تأييد الكلام الذي يفوه به.

(1) أي: أصابها بأمور عظام شديدة.



وأفضل الإشارات: المبنية على درس الفطرة، المَهَذَّبة بالتثقيف والأدب، المتوسطة بين غلظة العامة ومبالغة المتصنعين.

وأما الوقفة الموافقة للجسم فهي الوقفة الطبيعية، دون تؤثر في الجسم ولا تَحْتُثُّ؛ بحيث يبعد الخطيب فيها عن عَظَمَةِ الْمُتَجَبِّرِينَ واضطراب المُلَهَّوجِينَ.

ويَحْسُنُ بالرَّأْسِ أَنْ يَحِيدَ عَنِ الانْتِصَابِ الزَّائِدِ، وَالْإِنْجَنَاءِ الْمُفْرِطِ، وبالوجه والتَّظَرُّ أَنْ يَكُونَ كَمِرَاةٍ لِلنَّفْسِ فِي بَيَانِ عَوَاطِفِهَا.

ولليدين حركاتٌ خاصَّةٌ، ولاتقانها فنٌّ يَدْرُسُهُ بَعْضُ الْخُطَبَاءِ وَالْمُمَثِّلِينَ لَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ.

والذي يَهْمُنَا أَلَا تُرْخِيَانِ مُهْمَلَتَيْنِ، وَلَا تُمْدَانِ بِإِفْرَاطٍ، أَوْ تُلْصَقَانِ بِالصَّدْرِ، وَإِنْ تَحَرَّكَتْ إِحْدَاهُمَا - وَلَا سِيَّما الْيُمْنَى، الَّتِي لَهَا فِي الْحَرَكَاتِ النَّصِيبُ الْأَوْفَى - فَلَا بُدَّ أَنْ تُشِيرَ بِإِشَارَاتٍ أُنِيقَةٍ حَسَنَةِ الدَّلَالَةِ.

هذا، وَإِنَّ الْارْتِيَاضَ مَعَ مُرَاقَبَةِ الْخُطَبَاءِ الْبُلْغَاءِ أَحْسَنُ مُعَلِّمٍ لِهَذَا الْفَنِّ.

ويجب على الخطيب أن يُراعي طبقات السَّامِعِينَ؛ فَيَسْبُكُ كَلَامَهُ عَلَى مَا يَلَائِمُ أَحْوَالَهُمْ، فَيَعْدِلُ إِلَى السَّدَاجَةِ مَعَ الْعَامَّةِ، وَيَتَأَنَّقُ فِي الْكَلَامِ مَعَ الْخَاصَّةِ، وَيَلْتَجِئُ إِلَى أَفَانِينَ الْكَلَامِ مَعَ الْمُسْتَرَشِدِ، وَيُسْهَبُ فِي الْعِبَارَةِ مَعَ مُحِبِّ الْإِكْثَارِ، وَيُوجِزُ مَعَ مَنْ يُؤْثَرُ الْإِقْلَالِ، وَأَنْ يَنْظُرَ إِلَى نَفْسِ السَّامِعِ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِ مِنْ حَدَاثَةٍ، أَوْ كُهُولَةٍ وَحِنْكَةٍ فِي أُمُورِهِ، أَوْ غَرَارَةٍ، وَهَلَمَّ جَرًّا، كَمَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

القسم الثاني: في فنون الخطابة، وفيه فصول

تَقَدَّمَ أَنَّ قَوَانِينِ الخطابة قسمان: أُصُول، وَفُنُون، وقد مرَّ بيانُ الأُصول، فَبَقِيَ الكلامُ على الفُنُون؛ فنقول:

فُنُونُ الخطابة وأنواعها أربعة: حُطْبُ التَّثْبِيتِ، والمَشُورَةِ، والمُشَاجِرَةِ، والوَعْظِ.

وَمَبْنَى هذا التَّقْسِيمِ على أَجْنَاسِ السَّامِعِينَ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ المقصودُ إفادَتَهُمْ فهو القول التَّثْبِيتِي، أو مُنَاطَرَتُهُمْ فهو القول المَشُورِي، أو مُحَاكَمَتُهُمْ فهو القول المُشَاجِرِي، أو إِرْشَادُهُمْ وَإِنْدَارُهُمْ بإيضاح الحقائق الدِّينِيَّةِ وَحَمَلُهُمْ على السَّيرَةِ الصَّالِحَةِ؛ فَذَلِكَ بالوعظ.

والغايةُ مِنَ الْقَوْلِ التَّثْبِيتِيِّ: المَدْحُ أو الذَّمُّ؛ فَيَمْدَحُ الحَسَنَ لِلتَّحْلِيِّ بِهِ، وَيَذُمُّ القَبِيحَ لِلتَّحْلِيِّ عَنْهُ، وهو مختصٌّ - عموماً - بِالزَّمانِ الحَاضِرِ.

ومن القول المشوري: الإِذْنُ والمَنْعُ، بحمل السامع على ما فيه النَّفْعُ، والعدول به عما فيه الضَّرَرُ، وهو مُحْتَصٌّ بالمستقبل.

والغايةُ مِنَ الْقَوْلِ المُشَاجِرِيِّ: العدلُ أو الجورُ، بمقاضاة المدعى عليه؛ فَيُبَرِّأُ، أو يُقَرَّرُ عليه الذَّنْبُ، فيلزمه الحكمُ، وهو يَنْظُرُ إلى الماضي.



أما الوعظ: فغايتُهُ الحقيقةُ الدِّينِيَّةُ، وإثباتُها في عقول السامعين، وحُصْنُهم على السَّيرةِ الفُضلى والطريقةِ المُثلى، ولا يختصُّ بوقتٍ.

ثم إنَّ أرسطو في كتاب «الخطابة» قد اقتصر على الثلاثة الأول؛ لأن الخطب الدينية لم تظهر إلا في عهد المسيح **عليه السَّلام**، ثم شاعت بعده.

وأنواع الخطابة في هذا العصر خمسة:

خُطَب التَّوادي العِلْمِيَّة.

الخطب السِّياسِيَّة.

الخُطَب العسْكَرِيَّة.

الخُطَب القَضائِيَّة.

الخُطَب الدِّينِيَّة.

وترجع إلى ما تقدَّم؛ فإنَّ الخطب السِّياسِيَّة والعسْكَرِيَّة من النوع المَشوري، والخطب القَضائِيَّة هي القولُ المَشاجِرِي.

الفصل الأول: في القول التشبثي

عرفت أنّ المقصودَ منه الإفادَةُ، وأنَّ الغايةَ منه المدحُ أو الذمُّ، والحثُّ على الفضيلة، والتَّنفير من الرَّذيلة.

ويشمل حُطْبَ المَدِّح، والتَّأبِين، والتَّهْنِئَة، والشُّكْر، وما شاكل ذلك مما يُلاحظ فيه المدحُ والذمُّ.



المبحث الأول: في الخطب المذحجية

هي التي يُثنى فيها على عظيم، أو صاحب فضل، ومَرَجُعُهَا الأَعْلَى الفُضِيلَةُ لا غير؛ فَإِنَّ بِهَا يَمْتَارُ الْإِنْسَانُ.

فَيُبَيِّنُ الْخَطِيبُ فِيهَا مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، وَالصِّفَاتِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا بِجَدِّهِ، وَحُسْنِ عَمَلِهِ.

أَمَّا مَا سِوَاهَا مِنَ الْقُوَّةِ وَالثَّرْوَةِ وَمَآثِرِ الْأَبَاءِ، وَكَرَمِ الْأَرْوَمَةِ⁽¹⁾ فَلَا يُمْدَحُ بِهِ إِلَّا تَبَعًا لِلْفُضِيلَةِ؛ لَكُونَهُ مُظْهِرًا لَهَا.

ولهذه الخطب منها جان: علمي، وتاريخي:

فالعلمي: أَنْ تُصَدَّرَ خِطَابُكَ بِالثَّنَاءِ عَلَى بَعْضِ الْفَضَائِلِ أَوْ الْمَزَايَا، ثُمَّ تَتَخَلَّصَ إِلَى أَنَّهَا حَازَتْ كَمَالَهَا فِي الْمَمْدُوحِ، كَمَا لَوْ أَتَيْتَ بِالشَّجَاعَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالِاِقْتِصَادِ، ثُمَّ بَيَّنْتَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** - جَرَى مَدْحُكَ عَلَى هَذَا الْمِنْهَاجِ الْعِلْمِيِّ، وَمِنْ هُنَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْمِنْهَاجَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِقَيْدِ الزَّمَانِ.

(1) أي: الأصل. فأرومة الشجرة: أصلها، وما يبقى منها في الأرض بعد القطع.

أما المنهاج التاريخي: فهو ما يتتبع أطوار حياة الممدوح، فيذكر ما يرفعه في كل منها من الأمور الحميدة على مقتضى زمن ظهورها.

والمنهاج العلمي أفضل؛ فإنه أوقع في قلوب السامعين، وأدّل على اقتدار الخطيب، أما الثاني فأقرب وأسهل.

وينقسم إلى أزمنة ثلاثة: الزمان الذي يتقدم حياة الممدوح، وزمان حياته، والزمان الذي يلي وفاته.

ففي الأول يُنظر إلى ثلاثة أمور:

الأول: كرم المحدث، فإن كان الممدوح شريف العنصر يُثنى عليه بذكر مآثر آبائه، وتعداد مفاخر أجداده؛ لأن تلك المآثر بُدور للفضيلة نبئت في ثربة النفوس الشريفة.

وقد يؤخذ المدح من دناعة الحسب، فيمدح من وصل بنفسه إلى درجة عالية، رغماً من حمل آبائه، كما قال الأديب:

إن الفتى من يقول: ها أنا ذا ليس الفتى من يقول: كان أبي

الثاني: الوطن، إذا كان منشأ لقوم مشاهير، لهم في الفضيلة قدم، وبالمعروف صلة.

الثالث: الظروف التي تتقدم ولادة الممدوح به، ولك فيها مجال فسيح.

فإذا ساعدك الحال تصف - مثلاً - أحوال العصر من جهة الدين، والعلم، والأخلاق، والسياسة، وما أشبه ذلك، ثم تبين ما كان من الملاءمة بين ولادة



الممدوح والظروف المذكورة؛ كأن تصف أحوال العرب قبل ظهور النبي **صلى الله عليه وسلم**؛ ليتبين حاجة الناس إلى من يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الفوضى إلى النظام، وإذا كان قد جرى شيء من الخوارق والمعجزات المستعرة بما سيكون من أمره، وأن له شأنًا عظيمًا، فعلى المادح - أيضًا - ألا يغفل ذكره؛ مثال ذلك ما حدث لأبوي رسول الله **صلى الله عليه وسلم**، وما كان في زمن حملِه، وليلة الولادة من الإرهاصات.

والأشياء التي يُمدح بها الإنسان في زمان حياته ثلاث: الفضائل، والعلوم، والارتياضات الصناعية.

وأولى الفضائل بالذكر: التمسك بجانب التقوى، ومحبة الوطن، والبر بالوالدين، من ذلك خطبة أبي حمزة بمكة، يمدح بها أصحاب رسول الله **صلى الله عليه وسلم** من جهة تقواهم وتديبهم، قال: «يا أهل المدينة، قد بلغني مقاتلكم في أصحابي وما عبتموه من حادثة أسنانهم.

ويحكم! وهل كان أصحاب رسول الله المذكورون في الخير إلا أحداتًا شبابًا؟!

شبابٌ مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنصاء⁽¹⁾ عبادة، قد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الله شقق خوفًا، كأن زفير جهنم بين أذنيه، قد أكلت الأرض جباههم ورؤسهم، ووصلوا كلال

(1) جمع نضو، بكسر فسكون، وهو في الأصل: البعير المهزول. [م].

الليل (1) بكلال النَّهَار، مُصْفَرَّة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام (2).

ومنها: العدل، والحلم، والرحمة بالضعفاء، كما قال بعضهم - في صلاح الدِّين: «قد كان عادلاً، رعوفاً، رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته، وكشف قضيتته، وأخذ قصته» (3).

ومنها: الكرم والسَّخاء، وأن يكون المرء عالي الهمة، متوفر النخوة، شجاعاً، مقدماً على عظام الأمور، وما شاكل ذلك من أصناف المروءات، من ذلك ما جاء في وصف صلاح الدِّين: «لقد كان صلاح الدِّين من أعظم الشُّجعان، قوي النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، وكان إذا اشتدَّ الحُرْب يطوف بين الصَّفيين، ويخترق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتب الأطلاب (4)، ويأمرهم بالتقدم، والوقوف في مواضع يراها» (5).

(1) الكلال: هو الإعياء والتعب. اهـ. م. [م].

(2) أخرج خطبة أبي حمزة الفاكهي في «أخبار مكة» (3/ 118).

(3) هذا قول ابن شداد. انظره في كتابه «التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، وهو يتكلم عن

عدل صلاح الدِّين الأيوبي رَحِمَهُ اللهُ (ص 41، 42).

(4) جمع طالب. كما في «الأساس»، وهم جماعة الجيش الذين يطلبون أعداءهم. اهـ. م. [م].

(5) انظر «التوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» (ص 50، 51).



وقال أبو حمزة في خطبة له، مَدَحَ بها أصحاب رسول الله ﷺ: «إذا رأوا سهامَ العدوِّ قد فُوقَتْ (1)، ورِمَاحَهُم قد أشرَعَتْ، وسيوفَهُم قد انْتَضَيْتْ، وبرَقَتِ الكَتِيبَةُ، ورعدت بصواعق الموت- استهانوا وعيدَ الكَتِيبَةِ لوعيدِ الله، فمضى الشابُّ منهم قُدُماً (2) حتى تَخْتَلَفَ رجلاه على عُنُقِ فَرَسِهِ، وقد رُمِلَتْ (3) محاسنُ وجهه بالدماءِ، وعُفِّرَ جبينُهُ بالثَّرى، وأسرعَ إليه سباعُ الأرض، وانْحَطَّتْ عليه طيرُ السماء، فكم من مُقْلَةٍ في منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كَفٍّ بانت عن مِعْصِمِهَا طالما اعتمد عليها صاحبُها في سجوده، وكم من خَدِّ عَتِيقٍ (4) وجبينِ رَقِيقٍ قد فُلِقَ بَعْدَ الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأَدْخَلَ أرواحَها في جَنَانِهِ» (5).

ويُثْنِي عليه؛ لصبره على البَلَايا وتواضعه، كما وصف المَسْعُودِيُّ الخليفة الأول أبا بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «كان أبو بكرٍ أَزْهَدَ النَّاسِ، وأكثرَهُم تَوَاضُعًا في أخلاقه، ولباسه، ومَطْعَمه، وكان لبسه في خلافته الشَّمْلَةَ والعباءة، وَقَدِمَ عليه زعماءُ العرب وأشرافُهُم وملوكُ اليَمَنِ، وعليهم الخُلَلُ والحِجَرُ» (6).

(1) قَوَّ السَّهْمُ: جَعَلَ الوترَ في فُوقِهِ عند الرَّمي. وأَشْرَعَ الرِمحُ: أَمَّالَهُ عند إرادة الطعن. وانتَضَى السَّيْفُ: سَلَّه مِنْ غِمْدِهِ. [م].

(2) معنى قُدُماً- بضمَّتَيْن: تَقَدَّمَ إلى الأمام ولم يَنْتَهِ. [م].

(3) لَطَخَتْ بِالْدَمِ. [م].

(4) العَتِيقُ: الجميل. اهـ. م. [م].

(5) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه (4 / 228).

(6) الحِجَرُ كعنب: جمع حَبْرَةٍ كعنبه، وهي بَرْدُ يَمَانٍ، والوشى: نوع من الثياب، وهو في الأصل مصدر وشيت الثوب: إذا نَشِئْتُهُ. [م].

وَبُرُودِ الوشي المَثَقَلِ بالذهب والتَّيجان؛ فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والتواضع والنُّسك، وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه، ونزعوا ما كان عليهم حتى إنَّه رُوي يوماً في أسواق المدينة على كتفه جِلْدُ شاةٍ؛ ففزعت عشيرته لذلك، وقالوا: قد فَضَحْتَنَا بين المُهاجرين والأنصار والعرب، قال: أَفَأَرَدْتُمْ مِنِّي أَنْ أَكُونَ مَلِكًا جَبَّارًا في الجاهلية، جَبَّارًا في الإسلام، لا والله لا تكون طاعة الرَّبِّ إلا بالتَّواضع لله، والزُّهد في هذه الدنيا» (1).

فهذه الفضائل وأمثالها يَذْكُرُها الخطيبُ بلا مبالغةٍ ولا تَزْلُفٍ إلى الممدوح، وإلا كان كاذبًا، أو مُتَمَلِّقًا، ولا يَلِيْقان بالخطيب الاجتماعي.

ويُمدح المرء بالعلوم والصَّنائع بِذِكْرِ ما كان عليه من سَعَةِ الْعَقْلِ وسُرْعَةِ الإدراك، والبراعة في الفنون على اختلاف أنواعها.

والمدح بالفضائل النفسيَّة أشرفُ وَأَصَحُّ، وبعده بالعلوم والصَّنائع، وإن أُضيف إلى ذلك كُلُّهُ لَوَاحِقُ عَرَضِيَّةٍ؛ كالثروة، أو صفاته الجِسميَّة؛ كالجمال - كان ذلك جيِّدًا؛ قال ابنُ عَبَّاسٍ في عليِّ بن أبي طالب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «أَلَا إِنَّ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَشْبَاهًا أَرْبَعَةً: الْأَسَدُ الْحَادِرُ (2)، وَالْبَحْرُ الرَّاخِرُ، وَالْقَمَرُ الْبَاهِرُ، وَالرَّيِّعُ الْفَاحِرُ.

فَأَمَّا الْأَسَدُ الْحَادِرُ فَأُشْبِهَ مِنْهُ صَوْلَتُهُ وَمُضَاءُهُ.

وَأَمَّا الْبَحْرُ الرَّاخِرُ فَأُشْبِهَ مِنْهُ جُودُهُ وَعَطَاءُهُ.

(1) انظر: «مروج الذهب» للمسعودي (1/ 289).

(2) الحادر: الرَّابِضُ في خِدره، وهو الشَّجَرُ الْمُلتَفُّ، يَسْكُنُهُ الْأَسَدُ، ويقال له: أَجْمَةٌ. اهـ. [م].



وأما القمر الباهر فأشبهه منه نُورَه وضياءَه.

وأما الربيع الفاخر فأشبهه منه حُسْنُه وبَهَاءُه» (1).

أما الزَّمان الذي يلي وفاة الممدوح فيُلاحظ فيه عند المدح أمران: نوعية

الموت، وسببُه، كما لو مات وهو يخشى الله تعالى، ولا يَرهب المَنِيَّةَ على ما يجدر بالرجل العاقل الفاضل، وكما لو مات دفاعًا عن الوطن، أو مجاهدًا في سبيل الله.

ومما ذكرنا من قوانين المَدح يَتَبَيَّن طريق الدِّمِّ؛ فالأشياء تُعرف بأضدادها.

(1) «العقد الفريد» (4/ 221).

المبحث الثاني: في الخطب التأيينية

وهي ما يُعَدُّ بها مآثر مَيِّتٍ يومَ مَأْتَمِهِ، أو يومًا آخر.

وأجزاؤها ثلاثة:

وفاء المَيِّتِ حَقَّهُ من الثَّناء على أعماله الصالحة الحسنة.

وتسليَّةُ الأهل والأحباء.

وحَثُّ السَّامعين على أن يَأْتُمُوا بفضائلِ المَيِّتِ.

وُتُسْتَهْلُ خُطبةُ التَّأيينِ ببعضِ أقوالٍ في زوالِ الدُّنيا، ودورانِ دوائِرها، كأن نقول: هي الدُّنيا لا يُعْجَبُ مِنْ طَوَارِقِهَا، ولا يُنْكَرُ هُجُومُ بَوَائِقِهَا، عطاؤها في ضمان الارتجاع، وحبائؤها في قِرانِ الانتزاع، ما الدنيا إلا دار النقلة، وما المقام فيها إلا للرحلة.

ثم يتصرف في الإثبات بذكر الأجزاء الثلاثة: مَدْحُ المَيِّتِ. وتسليَّةُ الأهل. وحَثُّ السَّامعين، وقد عرفت قوانين المدح.

وأما التَّسْلِيَةُ فَمِنْ أَقْوَى أسبابها: أن يُظْهَرَ الخطيبُ للمبتلى أَنَّهُ مُشَارِكُهُ في حُزْنِهِ ومُشَاطِرُهُ الأَسَى.



ومنها: أن يَصِفَ ما أبقى الفقيدُ لآله عند الخاصّة والعامة من الذّكرى الطيبة والآثار الجميلة.

ومنها: أن يُؤمِّلَ للسّامعين بوصول الفقيد إلى محلّ الرّحمة والرّضوان.

وقفَ محمدٌ⁽¹⁾ على قبر الحسَن بن عليٍّ وقد اغرُورِقت عيناه بالدموع، وقال: «رحمك الله يا أبا محمد؛ فلئن عَزَّتْ حياتُك، فلقد هَدَّتْ وفائُك، ولنعم الرُّوح رُوحٌ تَضَمَّنَهُ بدُّنُك، ولنعم الجَسَدُ جَسَدٌ تَضَمَّنَهُ كَفَنُك، ولنعم الكَفَنُ كَفَنٌ تَضَمَّنَهُ لَحْدُك، وكيف لا تكون كذلك وأنت سليلُ الهدى، وخامس أصحاب الكِساء⁽²⁾، وخَلَفَ أهلُ الثُّقي، غَذَتِكَ أَكُفُّ الحَقِّ، ورُبِّيتَ في حِجر الإسلام، ورضعتَ ثُدَيَّ الإيمان؛ فَطَبَّتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، فُلَّتْ كانت الأنفُسُ غيرَ طيبة لو فاتك إنها غيرُ شاكَّةٍ أن قد خَيرَ لك⁽³⁾، وإنَّك وأحاك لَسَيِّدًا شباب أهل

(1) أي: أخوه؛ محمد بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) يشير إلى ما أخرجه مسلم (2424) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ، مِن شَعْرٍ أَسْوَدَ، فجاء الحَسَنُ بن عليٍّ فأدخله، ثم جاء الحُسَيْنُ فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾» [الأحزاب: 33].

وأخرج أحمد في «مسنده» (298 / 6) (26592) عن أمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها دخلت معهم أيضًا في الكساء فيكون أصحاب الكساء خمسة.

ويستدلُّ الروافضُ بحديث الكِساء على أنَّ هؤلاء المذكورين فقط هم أهلُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا حُجَّةَ لهم في ذلك، وإنَّما هو أهلُه الذين حضروا وقتها، كما يقول الرجل لإحدى زوجاته أمامه: هذه أهلي. وليس معنى ذلك أنَّ زوجاته الأخريات لَسَنَ من أهلِه. أو أن هؤلاء مِن خاصّة أهلِه.

(3) يعني أنَّ الله قد اختار له الشهادة.

الحِجَّة؛ فَعَلَيْكَ مِنَّا يَا أَبَا مُحَمَّدٍ السَّلَامُ»⁽¹⁾.

ثُمَّ يَذْكُرُ أَنَّ أَهْلَ بَيْتِهِ وَرَثُوا عَنْهُ تِلْكَ الْخِصَالَ الطَّيِّبَةَ وَالسَّجَايَا الْحَمِيدَةَ؛ فَهِيَ لَا تَزَالُ بَاقِيَةً فِيهِمْ، مُتَوَفَّرَةً لَهُمْ.

وَإِذَا فَرَغَ مِنَ التَّسْلِيَةِ انْتَقَلَ إِلَى الْجُزْءِ الثَّالِثِ، وَرَغَّبَ السَّامِعِينَ فِي الْاِقْتِدَاءِ بِفَضَائِلِ الْفَقِيدِ.

وَيَخْتَمُ الْخُطْبَةَ مُبَيِّنًا أَنَّ فَضَائِلَ الْمُؤَبَّنِ تَبْقَى فِي الْقُلُوبِ ذِكْرًا مُسْتَمِرًّا، وَكَأَنَّ فَعْلَهُ لَمْ يَمُتْ.

(1) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (13 / 296، 397).



المبحث الثالث: في خطب الشكر

الشكر المتعارف بين الناس: هو إظهار التَّعْمة والتَّحْدُث بها، وبَسْط اللِّسان بِالْمَحْمَدَةِ والتَّعْظِيم لِلْمُنْعَمِ بها، والتَّنْوِيهِ بِذِكْرِهِ، ورفع قَدْرِهِ.

فَخُطْبَةُ الشُّكْرِ هي التي فيها يُثْنِي الخطيبُ على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ.

ويُحْسَنُ تقسيمُها إلى ثلاثة أقسام:

الأول- وبه تُصَدَّر غالبًا خُطْبَةُ الشُّكْرِ: أن تذكر صَنِيعَةَ المُحْسِنِ، وارتياح المُحْسِنِ إليه بقبولها.

الثاني: أن تُعْظَم قَدْرُ الإحسان، وعليه مُعْظَمُ كلام الخطيب في الإثبات.

الثالث- وبه تختتم الخطبة عادةً:- أن تُبين أَنَّ ذِكْرَ الصَّنِيعَةِ لن يَبْرَحَ عن بال المُنْعَمِ عليه؛ فيَشْكُرُهُ عليها طول حياته.

ويمكن تعظيمُ قدرِ الإحسان من أربعة أوجه:

الأول: مِن قَدْرِ المُحْسِنِ، كما لو كان مَلِكًا أو وزيرًا أو عَظِيمًا من عَظَمَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ قَدْرَ التَّعْمة على قَدْرِ مُسْئِدِهَا.

الثاني: بتعريف حالة المُنْعَمِ عليه، إذا نال التَّعْمةَ عَفْوًا من غير

استحقاق، وعلى حين حاجته إليها.

الثالث: ببيان قدر التَّعَمَّةِ في ذاتها؛ كقيمتها، وحُسنها، وصعوبة البلوغ إليها.

الرابع: من ظروفها، كما لو جاد بها المُنْعِمُ عن طيبِ خاطرٍ، ومن غير أن يسبقها التماسٌ، ومن غير أن تكون على سبيل المكافأة، وكونها معجَّلة؛ فإنَّ خَيْرَ البرِّ عَاجِلُهُ؛ كخطبة مُنْذِرِ بْنِ سَعِيدٍ بين يدي الخليفة، وقد استوفى فيها كلَّ شروط الشُّكر، فأظهر فَرْحَهُ بالنعمة، وارتياحه إلى شكر المُنْعِم، ثم تَطَرَّقَ إلى تعظيم قَدْرِ المُصْطَنع، ثم اتَّسَعَ بإطراء صنيعه - قال: «فأصغوا إليَّ - مَعَشَرَ المَلَأَ - بأسماءِكُمْ، والقِنُوا⁽¹⁾ عنيِّ بأفئدتكم: إِنَّ مِنَ الحق أن يُقال للمُحِقِّ: صَدَقْتَ، وللمُبْطِلِ: كَذَبْتَ، وإنَّ الله - تعالى في سمائه، وتقَدَّس بصفاته وأسمائه - أَمَرَ كليمه موسى أن يُذَكِّرَ قومه بأيام الله - جَلَّ وعَزَّ - عندهم، وإني أذكركم بأيام الله عندكم⁽²⁾، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لَمَّتْ شَعَثُكُمْ⁽³⁾، وآمَنْتِ سِرْبُكُمْ، وَرَفَعَتْ قُوَّتَكُمْ بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومُستضعفين فقوَّاكم، ومستذلِّين فنصركم، ولآه الله رعايتكم، وأسندَ إليه إمامتكم أيامَ ضَرَبَتِ الفتنَةُ سُرَادِقَهَا على الآفاق، وأحاطت بكم شُعْلُ النَّفَاقِ حتى صِرْتُمْ في مِثْلِ صَدَقَةِ البعير⁽⁴⁾ من ضَيْعَةِ الحالِ ونَكِيدِ العَيْشِ والتَّغْيِيرِ؛

(1) أَمْرٌ مِنْ لَقْنِ الكلام: فَهَمَهُ، وَزُنَّا وَمَعْنَى. [م].

(2) التَّلَافِي: التَّدَارُكُ. [م].

(3) الشَّعَثُ: الانتشار والتفرُّق، والمعنى: جمعت خلافتُهُ أَمْرَكُمْ. اهـ. م. [م].

(4) يريد تشبيهه حالهم بحال البعير الذي يُؤخذ في زكاة الإبل؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ طِيبِ الْعَيْشِ وَحُسْنِ



فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرّخاء، وانتقلتم بيّمين سياسته إلى تمهيد (1)
كَنَفِ العافية بعد استيطانِ البلاء.

أنشدكم بالله معاشِرَ المَلَأْ، أَلَمْ تكن الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَحَقَنَهَا، والسُّبُلُ
مُخَوِّفَةً فَأَمَّنَهَا؟ والأموالُ مُنْتَهَبَةً فحرزها وَحَصَّنَهَا؟ أَلَمْ تكن البلادُ خَرَابًا
فعمرها، وتُغور المسلمين مُتَهَضِّمَةً (2) فَحَمَاهَا ونصرها؟

اذكروا آلاءَ الله عليكم بخلافته وتلافيه، جَمَعَ كَلِمَتَكُمْ بعد افتراقها
بأمانته، حتى أذهب الله عنكم غيظَكُمْ، وَشَفَى صُدُورَكُمْ، وصرتُم يدًا على
عَدُوِّكُمْ بعد أن كان بِأُسُكُمْ بَيْنَكُمْ، فأنشدكم الله أَلَمْ تكن خلافته قُفْلَ
الفتنة بعد انطلاقها مِنْ عقَالِهَا؟ أَلَمْ يتلاف صلاحُ الأمورِ بِنَفْسِهِ بعد
اضطرابِ أحواله، ولم يَكِلْ ذلك إلى القُوَادِ والأجنادِ، حتى باشره بالقُوَّةِ
والمُهْجَةِ أو الأولادِ، وَرَفَضَ الدَّعَةَ - وهي محبوبَةٌ - وَتَرَكَ الرُّكُونَ إلى الراحة -
وهي مطلوبةٌ - بِطَوِيَّةٍ صحيحةٍ، وعزيمةٍ صريحةٍ، وبصيرةٍ ثابتةٍ نافذةٍ ثاقبةٍ،
وريح هابَّةٍ غالبَةٍ، ونصرةٍ مِنَ الله واقعةٍ واجبةٍ، وَسُلْطَانٍ قاهرٍ، وَجِدٍّ ظاهرٍ،
وَسَيْفٍ مَنْصُورٍ - تحت عدلٍ مَشْهُورٍ - مُتَحَمِّلًا لِلنَّصَبِ، - مُسْتَقْلًا لما ناله في
جانبِ الله مِنَ التَّعَبِ، حتى لانت الأحوالُ بعدَ شِدَّتِهَا، وانكسرت شوكةُ

=

العناية ما كان يجد عند صاحبه قبل أن يُسَلِّمَهُ لعامل الصدقات. [م].

(1) التمهيد: التَّسْوِيَةُ والإصلاح. والكنف: الجانب. واستيطان البلاء: اتَّخَاذُهُ مَوْطِنًا، والمراد: حمل

النَّفْسِ عَلَى الرِّضَا بالمقام على مَكْرُوهِهِ. [م].

(2) ضعيفة لا تقوى على رَدِّ غَارَةِ الأعداء. اهـ. م. [م].

الفتنة عند حَدَّتْهَا، ولم يَبْقَ لها غَارِبٌ ⁽¹⁾ إِلَّا جَبَّهْ، وَلَا نَجَمَ لِأَهْلِهَا قَرْنٌ إِلَّا جَدَّه. فأصبحتم بنعمة الله إخوانًا، وبلّم أمير المؤمنين لِشَعَثِكُمْ على أعدائكم أعوانًا، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفودُ الرُّومِ وافدةً عليه وعليكم، وآمالُ الأَقْصَيْنِ والأَدْنَيْنِ مُستخدمةً إليه وإليكم، يأتون من كُلِّ فَجٍّ ⁽²⁾ عَمِيقٍ، وبلدٍ سَحِيقٍ؛ لِأَخْذِ حَبْلِ بَيْنِهِ وبينكم جملةً وتفصيلاً؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولن يُخْلِفَ الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده.

وتلك أسبابٌ ظاهرةٌ بَادِيَةٌ تدلُّ على أمور خافية، وليلها قاتمٌ ⁽³⁾، وجَفْنُهَا غيرُ نائمٍ؛ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55]، وليس في تصديق ما وَعَدَ الله ارتيابً، ولكلِّ نَبَأٍ مُستقر، ولكلِّ أَجَلٍ كتابٌ.

فاحمدوا الله - أَيُّهَا النَّاسُ - على آلائه، واسألوه المَزِيدَ مِنْ نِعَمَائِهِ، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين - أَيَّدَهُ اللهُ بالعصمة والسِّدَادِ، وألهمه خالص التَّوْفِيقِ إلى سبيل الرِّشَادِ - أحسنَ الناس حالًا، وأنعمهم بالآ، وأعزَّهم قَرَارًا ⁽⁴⁾،

(1) الغارب: ما بين السنام إلى العنق. وَجَبَّهْ: قَطَّعه مُستأصلاً له، وكذلك جَدَّه. اهـ. م. [م].

(2) الفَجُّ بالفتح: الطريقُ الواسع بين الجبلين. والجمع: فِجَاجٌ بالكسر. والعَمِيقُ: البعيد والسَّحِيقُ مثله وَرُزْنَا وَمَعْنَى. [م].

(3) مُظْلَم. [م].

(4) القَرَار: المُستقر الثابت من الأرض. [م].



وَأَمْنَعَهُمْ⁽¹⁾ دَارًا، وَأَكْنَفَهُمْ جَمْعًا، وَأَجْمَلَهُمْ صُنْعًا⁽²⁾.

(1) أَعَزَّهُمْ وَأَقْوَاهُمْ، يقال: امتنع بقومه: تَقَوَّى بهم، وهو في مَنَعَةِ قومه - بفتح النون - أي: في عِزَّتِهِمْ، فلا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مَنْ يُرِيدُهُ. اهـ. م. [م].

(2) انظر «مطحح الأنفس» للفتح بن خاقان (ص 240 - 243)، و«نفح الطيب» للمقري التلمساني (1/ 369 - 371).

المبحث الرابع: في خطب التهنئة

هي الخطبة التي تُلقَى في مُحفلٍ؛ يُعرب الخطيبُ فيها عن فرجهِ لنعمةٍ أصابها الجمهورُ، أو أحدُ أشراف الناس.

ولا تختصُ بنعمةٍ حادثةٍ، بل تشتمل الحوادث القديمة؛ كاستقلال دولةٍ، والمواسم المدنيّة السنويّة، تذكّاراً لواقعةٍ جليّة؛ كمَوْلِدِ مَلِكٍ، أو توليةٍ خليفةٍ.

وأخصُّ أقسامها ثلاثة:

ففي القسم الأول: يُبيّن الخطيبُ الداعي لتلك الحفلة، والتّعمة الجزيّة التي احتشد القوم لتذكّارها، وسُرورهم العظيم بها.

وفي القسم الثاني: يُفيضُ في وصف تلك التّعمة، وتعظيم قدرها، ويتوسّع في سوابقها ولواحقها وعلائقها.

وفي القسم الثالث يُطلقُ لسانه بالمدح للمُهنّا، واستحقاقه لتلك التّعمة لفضله وفضيلته؛ كقول بديع الزّمان - يهنئُ المَلِكَ سُبُكْتِكَيْنَ بفتح بهاضيةٍ من بلاد الهند، فعظّم الانتصار بذكر وفرة مخاطر الحرب، وصعوبة مُباشرتها، وبيان حُسْن تصرف المَلِك في خوضها، وانتصاره الباهر على العدو على كثرة عَدَدِهِ وعُدَدِهِ وشِدَّةِ بَطْشِهِ: «وسنذكر من حديث الهند وبلادها، وغِلْظِ أكبادها،



وَشِدَّةَ أَحْقَادِهَا، وَقُوَّةَ اعْتِقَادِهَا، وَصِدْقَ جَلَادِهَا، وَكَثْرَةَ أَجْنَادِهَا - نُبْدًا؛ لِيَعْلَمَ السَّامِعُ أَيَّ غَزْوَةٍ غَزَاهَا الْأَمِيرُ السَّيِّدُ، فَنَقُولُ:

إِنَّهَا بِلَادٌ لَوْ لَمْ تَحْطُهَا السَّحَابُ بِدَرِّهَا لِأَهْلَكَتْهَا الشَّمْسُ بِحَرِّهَا! فَهِيَ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ، وَنُوبَةٌ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْأَمْطَارِ، تَقْدَمُهَا صَعَابُ الْجِبَالِ، وَتَحْجُبُهَا رِحَابُ الْقِفَارِ، وَيَعَصِمُهَا مُلْتَفُّ الْغِيَاضِ ⁽¹⁾، وَتَحْفُهَا طَوَاغِي الْأَنْهَارِ، حَتَّى إِذَا خُرِقَتْ هَذِهِ الْحُجُبُ خَلَصَ إِلَى عَدَدِ الْحَصَى وَالرَّمَالِ رِجَالًا، وَشَبَّهَ الْجِبَالُ أَفْيَالًا، وَأَنْزَاعَ الْمَخَاضِ جَلَادًا ⁽²⁾، وَمُسْنَفٍ ⁽³⁾ الْجَمَالَ طَعَانًا، وَأَرْكَانَ الْجِبَالِ ثَبَاتًا، ثُمَّ لَا يَعْرِفُونَ غَدْرًا وَلَا بَيَاتًا ⁽⁴⁾، وَلَا يَخَافُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً، وَلَا يُبَالُونَ عَلَى أَيِّ جَنْبِيهِ وَقَعَ الْأَمْرُ، وَيَنَامُونَ وَتَحْتَهُمُ الْجُمُرُ، وَرَبْمَا عَمِدَ أَحَدُهُمْ لَغَيْرِ ضَرُورَةٍ دَاعِيَةٍ، وَلَا حَمِيَّةٍ بَاعْتَةٍ؛ فَاتَّخَذَ لِرَأْسِهِ مِنَ الطِّينِ إِكْلِيلًا، ثُمَّ قَوَّرَ قَحْفَهُ ⁽⁵⁾ فَحِشَاهُ فَتِيلًا، ثُمَّ أَضْرَمَ فِي الْفَتِيلِ نَارًا، وَلَمْ يَتَأَوَّهْ وَالنَّارُ تَحْطِمُهُ عَضْوًا فِعْضْوًا، وَتَأْكُلُهُ جِزْءًا فَجِزْءًا.

فَأَمَّا مُحْرَقُ نَفْسِهِ وَمُغْرَقُهَا، وَآكِلُ لَحْمِهِ، وَمُفْصَلُ عَظْمِهِ، وَالرَّامِي بِهَا مِنْ شَاهِقٍ فَأَكْثَرُ مَنْ أَنْ يُعَدَّ.

-
- (1) الْغِيَاضُ: جَمْعُ غَيْضَةٍ، وَهِيَ الشَّجَرُ الْمُلْتَفُّ.
 (2) النَّاقَةُ النَّازِعُ: هِيَ الَّتِي تَحُجُّ إِلَى أَوْطَانِهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجَلَادُ: الْمَضَارِبَةُ، وَمِنْهُ: تَجَالَدُوا بِالسُّيُوفِ.
 (3) الْمُسْنَفُ: الْبَعِيرُ يُقَدِّمُ الرَّحْلَ لِقَوَّتِهِ.
 (4) الْبَيَاتُ بِالْفَتْحِ: اسْمٌ مِنْ بَيْتِ الْأَمْرِ: دَبَّرَهُ لَيْلًا. اهـ. م.
 (5) الْقَحْفُ: أَعْلَى الدِّمَاغِ.

وأقلهم مَنْ يَمُوتُ حَتَفٌ ⁽¹⁾ أَنفِهِ، فإذا مات هذه المِيتَةُ أَحَدُهُمْ سُبَّ بها أَعْقَابُهُ، وَعَظُمَ عندهم عقابُهُ.

بلادُ هذه حَالُهَا، وفيلةٌ تلك أهْوَها، وجبالُ في السَّمَاءِ قِلَالُهَا ⁽²⁾، وفَلَاةٌ يَلْمَعُ آلُهَا، وغياضُ ضِيقِ مَجَالُهَا، وأنهارٌ كثيرةٌ أَوْحَالُهَا، وطريقٌ طويلٌ مَطَالُهَا، ثم الهند ورجالُهَا، والهنداوينيَّةُ واستعمالُهَا.

زحم الأميرُ السَّيِّدُ - أدام اللهُ ظِلَّهُ - هذه الأهْوَالَ بِمَنْكِبِهِ مُحْتَسِبًا نَفْسَهُ، مُعْتَمِدًا نَصَرَ اللهِ وَعَوْنَهُ؛ فركب إليهم بعونٍ من الله لا بخذلٍ، وَمَدَدٍ من التَّوْفِيقِ لا يَفْتَرُ، وقلبٍ من الأهْوَالِ لا يَجْبُنُ، وحثٌّ على المَطْلُوبِ لا يَقْصُرُ، وسيفٌ على الضَّرْبَةِ لا يَثْقُلُ.

فَسَهَّلَ اللهُ لَهُ الصَّعْبَ، وَكَشَفَ بِهِ الخُطْبَ، وَرَجَعَ ثَانِيًا من عَنَانِهِ بِالْأَسْرَى، تَنظِمُهُمُ الأَغْلَالَ، وَالسَّبَايَا تَنقَلِبُهُمُ الجِمَالَ، والفِيلَةُ كَأَنَّهَا الجِبَالَ، والأَمْوَالُ وَلَا الرِّمَالَ، فَتَحَّ دَخَرَهُ اللهُ عَنِ المُلُوكِ السَّالِفَةِ الخَالِيَةِ، الجَبَابِرَةِ العَاتِيَةِ ⁽³⁾، حَتَّى وَسَمَهُ بِنَارِهِ، وجعلَهُ بَعْضَ آثَارِهِ ⁽⁴⁾.

وتُخْتَمُ هذه الخُطْبُ بالشُّكْرِ لله تعالى على النِّعَةِ المَمْنُوحَةِ، والدُّعَاءِ لِنَائِلِهَا؛ كي لا تَزَالَ حَيَاةً مَقْرُونَةً بِالْهِنَاءِ، ودَوَامَ الْبَرَكَاتِ.

⁽¹⁾ يقال: مات حَتَفٌ أَنفِهِ: إذا مات على فراشه، من غيرِ صَرْبٍ وَلَا قَتْلِ.

⁽²⁾ جمع قَلَّةٍ: وهي أعلى الجبل. اهـ. م.

⁽³⁾ أي: أبعدهم عن تحقيقه.

⁽⁴⁾ انظر «مسالك الأبصار» لشهاب الدِّين العمري (12/ 117، 118).



الفصل الثاني: في القول المشوري، وفيه مباحث

هو القول الذي يُشير به الخطيبُ إلى مباشرة أمرٍ، أو العدول عنه، فينقسم إلى: إذنٍ، ومنع.

والغايةُ منه: دفع السامع إلى النَّافع، أو إبعاده عن الضَّار.

ولمَّا كان للأمور النافعة درجاتٌ متفاوتةٌ؛ كالنَّافع، والأُنفع، والغاية في المنفعة - يُمكن الخطيب المشوري أن يُرجِّح نفعاً على نفع.

وكذلك للضَّار طبقاتٌ، فيستطيع الخطيب أن يحمل السامع على ما هو أقلُّ ضرراً.

وموضوع القول المشوري: الأمور الاختيارية.

أمَّا الاضطراريةُ فلا سبيلَ إلى المُفاوضة فيها، ومثلها الأمور البعيدةُ الحصول؛ لقلةِ الوسائل إلى العمل بها، فإنَّ الخطيبَ بإشارته إلى صنعيتها يضرب الهواءَ أو يَرْقُمُ على صفحاتِ الماء.

وأخصُّ الخطب الداخلية في القول المشوري: هي الخطبُ السَّياسيةُ والعسكريةُ، وخطبُ التَّحريض، والتَّقرير، والطلب، والوصية، والشفاعة.

المبحث الأول: في الخطب السياسية

وهي التي يُلقِيها الخطباء في مجالس الشورى، أو النوادي العمومية؛ لتدبير أحوال الدولة وسياسة أمورها؛ فيتباحث فيها أرباب الشورى في إصلاح شؤون الرعية، وترقية الوطن بسنّ الشرائع العادلة، وتنظيم الدوائر الرسمية من: مالية، ومعارف، وفنون، وزراعة، وما يناط بكلّ منها، وكالتنظر في الأمور الخارجية، وعلاقات الدولة مع الدول الأجنبية.

ولهذه الخطب أعظم شأن؛ لأنّ عليها مدار حياة الدولة ورقيّها مادياً وأدبياً، وتكون في الدول الدستورية، سواء أكانت جمهورية يُديرها نواب الأمة، أم ملكيّة يخضع ملكها للدستور؛ فيملك على الدولة ولا يسوسها؛ إذ الحكم فيها لمجلس العموم والأعيان، ومثلها الولايات المتحالفة أو الممتازة في تدبير شؤونها الخاصة، أما الدول ذات السلطة المطلقة حيث أزمّة الأمر في يد ملكٍ يأمر وينهى كما يشاء فلا تكون فيها.

ثم الخطب السياسيّة يختلف نفعها أو ضررها بحسب الأهواء التي ينقاد إليها الخطيب، فإن أعماه الغرض وسوّلت له نفسه تغليب آرائه الواهنة؛ فمؤة الحق على السامعين، وزخرف لهم الباطل، فقد طوّح بوطنه في المهالك، بحمل رصفائه على سنّ الشرائع الضارة بالبلاد أو مباشرة الحروب الجائرة، إلى غير



ذلك.

وعلى خلاف ذلك إذا نصر الحق وطلبَ لوطنه كُلَّ صلاحٍ، وضَحَّى لِرُقِيَّه بالتَّفْس والتَّفيس، فذلك هو السَّعيدُ المُوَفَّق الذي تَسعد به الأُمَّة، ويعلو به شأنُ الوطن.

لهذا يجب أن تتوفَّر في الخطيب السِّيَاسي الصِّفَات الآتية:

الأولى: أن يتعمَّق في درس الواجبات، والحقوق الشَّخصية والدولية التي عليها مَبْنى المجتمع الإنساني؛ لِيَتَسَنَّى له أن يُعْطِيَ كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ، دون أن يلحق بوطنه ضرراً ما.

الثانية: أن يَحِبَّ وطنه حُبًّا خالصاً مَجَرَّداً عن كُلِّ أنانيَّة، وعن كل غرض شخصيٍّ، أو تحزُّب لنصرة زيدٍ أو مناهضة عمروٍ، فلا يرى إلا خير الوطن العزيز.

الثالثة: أن يُحسِّن دَرَسَ الأمور التي يَبْتَاحُ فيها أربابُ الدَّولة، وينظر في كُلِّ وجوها؛ ليكون حكمه فيها عن بَصِيرَةٍ تامَّة بعيدةٍ عن الخطأ.

الرابعة: أن يكون رابطَ الجأش، لَسِناً، ذا عارضة؛ ليستطيع أن يقوم في وجه مُعارضيه، ويُجيبهم بداهةً دون أن تُفْشِلَه مناقضتُهم وتحاملُهم عليه، أو تُموِّه عليه سَفَسَطُتُهم؛ فما أحسنَ العلمَ، وما أحسنَ الشَّجاعةَ، وما أحسنَ الأمانة!

ثم إن الذي يشير بعمل الشيء فيأذن فيه، أو بتركه فيمنع عنه يحتاج

لدرك غايته إلى أدلة يدفع بها السامعين إلى الإقبال على ما يُرغَّبهم فيه، والإعراض عما يُنفَرُّهم عنه.

والأدلة في الإشارة بالعمل: هي أن يُبيِّن كَوْنَ الشيء المقصود صالحاً ونافعاً وضرورياً وسهلاً ولذيذاً.

وعلى عكس ذلك إذا أشار بالترك فيبين الوجوه المضادة للوجوه المذكورة، ويُبيِّن صلاح الشيء المقصود بذكر محاسنه الذاتية التي تُجَبِّه إلى القلوب، مع قطع النظر عن نفعه، والنافع ما يُطلب لخيرٍ يَنجُم عنه، سواء أكان ذلك النفع مقروناً بالصلاح؛ كرضا الخالق، والفضيلة، والشرف، أم غير مقرونٍ كصحة الجسم، وهناء العيش، والثروة، والأمان؛ كقول مُنذر بن سعيدٍ يحثُّ قومه على التزام الطاعة لخليفتهم: «فاسْتَعِينُوا عَلَى صَلَاحِ أحوَالِكُمْ بِالمُنَاصَحَةِ لِإِمَامِكُمْ، وَالتَّزَامِ الطَّاعَةِ لِخَلِيفَتِكُمْ؛ فَإِنَّ مَنْ نَزَعَ يَدًا مِنَ الطَّاعَةِ، وَسَعَى فِي تَفْرِيقِ الْجَمَاعَةِ، وَمَرَّقَ مِنَ الدِّينِ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ فِي التَّعَلُّقِ بِعِصْمَتِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِعُرْوَتِهَا حِفْظَ الْأَمْوَالِ، وَحَقْنَ الدِّمَاءِ، وَصَلَاحَ الْخَاصَّةِ وَالذَّهْمَاءِ، وَأَنَّ بِقَوَامِ الطَّاعَةِ تَقَامُ الْحُدُودُ، وَتَوْفَى الْعُهُودُ، وَبِهَا وُصِّلَتِ الْأَرْحَامُ، وَوُضِحَتِ الْأَحْكَامُ، وَبِهَا سَدَّ اللَّهُ الْخُلُلَ، وَأَمَّنَ السُّبُلَ، وَوَطَّأَ الْأَكْنَافَ، وَرَفَعَ الْاِخْتِلَافَ، وَبِهَا طَابَ لَكُمْ الْقَرَارُ، وَاطْمَأْنَنَ بِكُمْ الدَّارُ؛ فَاعْتَصِمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِالْإِعْتِصَامِ بِهِ»⁽¹⁾.

والضروري: ما لا يسلم بدونه شرف الإنسان أو حياته.

(1) انظر: «نفع الطيب» لشهاب الدين التلمساني (1/ 371).



وفي هذا الدليل من القوة ما لا يخفى؛ لأنَّ الخطيب قد لا يصل إلى مقصوده من السامعين بطريقتي الصالح والنافع، فلا بُدَّ له - حينئذٍ - من الاستعانة بالدليل من الضَّروري.

لما بلغ طارقًا دُثُوَ لذريق قام في أصحابه؛ فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثَّ المسلمين على الجهاد، ورغَّبهم فيه مُبَيِّنًا لَهُمْ ضرورته؛ لسلامة شرفهم، وصونِ حياتهم، ثم قال خُطْبَتَهُ الآتية في الخُطْب العسْكَريَّة (1).

ويُثبت الخطيبُ كَوْنَ الأمر سَهْلًا، ببيان قُرْب مَنَالِهِ، وَقِلَّةِ العَنَاءِ في تحصيله، مع وفرة منافعِهِ؛ فإن الحصول على الشيء بدون تعبٍ، والوصول إليه بأقرب وقتٍ مِنْ أَهَمِّ بواعث الإقناع بما يُشارُ به.

والمقصود بالَّذيد: كل ما يُجْدي فَرْحًا بالقلبِ وراحةً، وهناءة للبال؛ كقول الأديب مُرَغَّبًا في طلب العلم، بما يحصل لصاحبه من اللذة:

مَا تَطَعَّمْتُ لَذَّةَ الْعَيْشِ حَتَّى صِرْتُ فِي وَحْدَتِي لِكُتَيْبِي جَلِيسًا
لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَلَذُّ مِنَ الْعِلْمِ لَمْ فَلَا أَبْتَغِي سِوَاهُ أَنْيسًا (2)

ولو أردت المَنع من الشَّيْءِ وجدتَ له أمثلةً، منها: ما قال يحيى البرمكي للهادي - وكان قد عزم الهادي على أن يخلع أخاه هارونَ مِنَ الخِلافةِ، ويُبايع لابنَه جَعْفَرَ، فصَدَّه عن ذلك يحيى مُبَيِّنًا ضَرَرَ فِعْلِهِ - قال: «يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إن

(1) ستأتي قريبًا في «المبحث الثاني: في الخُطْب العسْكَريَّة».

(2) القائل: علي بن عبد العزيز الجرجاني. انظر: «شذرات الذهب» لابن العماد (4/ 355).

فعلت حملت النَّاسَ على نَكْثِ الأَيِّمانِ⁽¹⁾، ونقضِ العُهودِ، وتجراً النَّاسِ على مثل ذلك، ولو تركت أخاك هارونَ على ولاية العهد، ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكَدَ في بَيْعَتِهِ، ولو حدث بك حادثُ الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر، وهو صغير دون البلوغ- أَفَتَرَى كانت خلافته تَصِحُّ؟! وكان مشايخُ بني هاشم يَرْضُون ذلك، ويسلِّمون الخلافةَ إليه؟!

فَدَعُ هذا الأمرَ حتى تأتيه عَفْوَا، ولو لم يكن المهدي بايع لهارون لَوَجَبَ أن تُبايع أنت له؛ لئلا تَخْرُجَ الخلافةُ مِن بيتِ أبيك⁽²⁾.

ومثله- أيضاً- قول الفضل بن العباس في مُشاورة المهدي لأهل بيته، في حرب خُرَاسان، يصدُّ الخليفة عن محاربة تلك البلاد:- «أيُّها المهدي، إنَّ وليَّ الأمور وسائِسَ الحُرُوبِ ربِّما نَحَى جنودَه، وفَرَّقَ أمواله في غير ما ضيقَ أمرٍ حَزَبَه، ولا ضغطةٍ اضْطَرَّتْهُ، فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها، فاقداً لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعدة، ولا يفرغُ إلى ثِقَةٍ، فالرأي لك- أيُّها المهدي، وَفَقَكَ اللهُ- أن تُعْفي خَزائنَكَ من الإنفاق للأموال، وجنودَكَ من مكابدةِ الأسفار، ومقارعةِ الأخطار، وتغديرِ القِتال.

ولا تُسرعَ للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والعطاء لما يسألون، فَيَفْسَدَ عليك أدبُهُم، وتُجَرِّئَ من رعيَّتِكَ غيرَهُم، ولكن اغْزُهُم بالحيلة، وقَاتِلْهُم

(1) نَكْثُ الأَيِّمانِ: نَقْضُ البَيْعة، وإخلاف اليمين والعهد.

(2) انظر «الفخري في الآداب السلطانية» لابن الطقطقي (1/ 198).



بالمَكيدة، وصَارِعْهُمْ باللَّين، وَخَاتِلْهُمْ بِالرَّفَقِ⁽¹⁾، وَأَبْرِقْ لَهُم بِالْقَوْلِ، وَأَرْعِدْ
نَحْوَهُم بِالْفِعْلِ، وَابْعَثِ الْبُعُوثَ، وَجَنِّدِ الْجُنُودَ، وَكُتِّبِ الْكُتَّابَ، وَاعْقِدِ الْأُلُويَةَ،
وَانصِبِ الرَّايَاتَ، وَأَظْهِرْ أَنَّكَ مُوجَّهٌ إِلَيْهِمُ الْجِيُوشَ، مَعَ أَحْنَقِ قُودَاكَ عَلَيْهِمُ،
وَأَسْوَأْهُمْ أَثَرًا فِيهِمْ، ثُمَّ ادسَسِ الرُّسُلَ، وَابْثَثِ الْكُتُبَ، وَضَعْ بَعْضَهُمْ عَلَى طَمْعِ
مِنْ وَعْدِكَ، وَبَعْضًا عَلَى خَوْفٍ مِنْ وَعِيدِكَ، وَأَوْقِدْ بِذَلِكَ وَأَشْبَاهِهِ نِيرَانَ التَّحَاسِدِ
فِيهِمْ، وَاغْرِسْ أَشْجَارَ التَّنَافُسِ بَيْنَهُمْ؛ حَتَّى تَمْلَأَ الْقُلُوبَ مِنَ الْوَحْشَةِ، وَتَنْطَوِي
الصُّدُورُ عَلَى الْبَغْضَةِ، وَيَدْخُلُ كُلُّ مَنْ كُلِّ الْحَذَرِ وَالْهَيْبَةِ؛ فَإِنَّ مَرَامَ الظَّفَرِ
بِالْغِيلَةِ، وَالْقِتَالَ بِالْحِيلَةِ، وَالْمُنَاصَبَةَ بِالْكِتَابِ، وَالْمُكَايَدَةَ بِالرُّسُلِ، وَالْمُقَارَعَةَ
بِالْكَلَامِ اللَّطِيفِ الْمَدْخُلِ فِي الْقُلُوبِ الْقَوِي الْمَوْقِعِ مِنَ النَّفُوسِ، الْمَعْقُودَ بِالْحُجَجِ
الْمَوْضُوعِ بِالْحِيلِ الْمَبْنِيِّ عَلَى اللَّيْنِ الَّذِي يَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ، وَيَسْتَرْقُ الْعُقُولَ
وَالْآرَاءَ، وَيَسْتَمِيلُ الْأَهْوَاءَ، وَيَسْتَدْعِي الْمَوَاتَةَ - أَنْفُذْ مِنَ الْقِتَالِ بَطْنِي السُّيُوفِ
وَأَسِنَّةَ الرِّمَاحِ.

كَمَا أَنَّ الْوَالِيَّ الَّذِي يَسْتَنْزِلُ طَاعَةً رَعِيَّتَهُ بِالْحَيْلِ، وَيُفَرِّقُ كَلِمَةً عَدُوَّهُ
بِالْمَكَايِدِ - أَحْكُمُ عَمَلًا، وَأَلْطِفْ مَنْظَرًا، وَأَحْسِنُ سِيَاسَةً مِنَ الَّذِي لَا يِنَالُ ذَلِكَ
إِلَّا بِالْقِتَالِ وَالْإِتْلَافِ لِلْأَمْوَالِ، التَّغْرِيرِ وَالْخَطَارِ.

وَلْيَعْلَمْ الْمَهْدِيُّ أَنَّهُ إِنْ وَجَّهَ لِقَاتِهِمْ رَجُلًا لَمْ يَسِرْ لِقَاتِهِمْ إِلَّا بِجُنُودٍ كَثِيفَةٍ
تَخْرُجُ عَنْ حَالٍ شَدِيدَةٍ، وَتَقْدُمُ عَلَى أَسْفَارِ ضَيْقَةٍ، وَأَمْوَالٍ مَتَفَرِّقَةٍ، وَقُودٍ

(1) الْمُخَاتَلَةُ: الْمُخَادَعَةُ عَنْ غَفْلَةٍ.

غَشَّة، إِنْ ائْتَمَنَهُمْ اسْتَنْفَدُوا مَالَهُ، وَإِنْ اسْتَنْصَحَهُمْ كَانُوا عَلَيْهِ لَا لَهُ» (1).

وأخض العواطف التي يحسن بالخطيب المشوري أن يحركها:

الأمل والثقة بالوصول إلى الغاية المرغوبة.

ثم المحبة والشوق إلى الحصول عليها؛ بوصف محاسنها، وتعظيم قدرها.

ثم تحريك المنافسة؛ ليُجاري السامع مَنْ سَبَقَهُ، فيُباريهم في العمل، وَيُظْفِرَ بما أصابوه، أو يُحْرِكَ العواطف المخالفة للأهواء المذكورة؛ كالثُفُور، والخوف، كما فعل هولاكو خان المنغولي إذ دعا المَلِك النَّاصِرَ إلى طاعته، وَفَتَحَ مدينةَ حَلَبَ لحيشه، فقال: «يَعْلَمُ الْمَلِكُ أَنَّنَا جُنْدُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، مَلَكْنَا وَسَلَطْنَا عَلَى مَنْ حَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُهُ، فليكن لكم فيمن مَضَى مُعْتَبَرٌ، وبما ذكرناه وقلناه مُزْدَجَرٌ؛ فالحصون بين أيدينا لَا تَمْنَعُ، والعساكر للقائنا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، ودعاؤكم علينا لَا يُسْتَجَابُ وَلَا يُسْمَعُ؛ فَاتَّعَظُوا بغيركم، وَسَلَّمُوا إلينا مَقَالِيدَ أَمْرِكُمْ، قبل أن ينكشف الغطاء، ويحلَّ عليكم الخطأ، فنحن لَا نَرْحَمُ مَنْ شَكَّى، وَلَا نَرِيقُ لِمَنْ بَكَى، وقد أخبرنا البلادَ، وَأَفْنَيْنَا الْعِبَادَ، وَأَيَّتَمْنَا الْأَوْلَادَ، وَتَرَكْنَا فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ؛ فعليكم بِالْهَرَبِ، وعلينا بِالطَّلَبِ، فما لكم مِنْ سِيوفنا خِلاصٌ، وَلَا مِنْ سِهَامنا مَنَاصٍ، فخيولنا سَوَابِقُ، وَسِهَامُنَا خَوَارِقُ، وسيوفنا صَوَاعِقُ، عقولنا كَالْجِبَالِ، وَعَدَدُنَا كَالرِّمَالِ؛ فَمَنْ طَلَبَ مِنَّا الْأَمَانَ سَلِمَ، وَمَنْ طَلَبَ الْحَرْبَ نِدِمَ، فَإِنْ أَنْتُمْ أَطَعْتُمْ أَمْرَنَا، وَقَبِلْتُمْ شَرْطَنَا- كَانَ لَكُمْ مَا لَنَا، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا، وَإِنْ أَنْتُمْ خَالَفْتُمْ أَمْرَنَا، وَفِي غِيَّكُمْ تَمَادَيْتُمْ فَلَا

(1) انظر «العقد الفريد» (1/ 164، 165).



تلومونا ولوموا أنفسكم، فالله عليكم يا ظالمون، فهيئوا للبلايا جلبابًا، وللرزايا أترابًا؛ فقد أَعذر مَنْ أَنْذَرَ، وَأَنصف مَنْ حَذَّرَ؛ لأنكم أكلتم الحرام، وخُنتم الأيمان، فأبشروا بالذل والهوان، فاليوم تجدون ما كنتم تعلمون، وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، فقد ثبت عندكم أَنَّا كَفَرَةٌ، وثبت عندنا أَنَّكُمْ فَجَرَةٌ، وسلَّطنا عليكم مَنْ بيده الأمور مُقَدَّرَةٌ، والأحكام مُدَبَّرَةٌ، فعزیزكم عندنا ذلیل، وغنیُّكم لدينا فقیر، ونحن مالكون الأرض شرقًا وغربًا، وأصحاب الأموال نَهَبًا وسَلْبًا، وأخذنا كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا.

فمیزُوا بعقولكم طُرُقَ الصَّواب قبل أن تضرم الكفرة بنارها وترمي بشرارها، فلا تبقى منكم باقية، وتبقى الأرض منكم خالية، فقد أيقظناكم حين راسلناكم؛ فسارعوا إلينا بردَّ الجواب بَتَّة، قبل أن يأتيكم العذاب بَعْتَةً وأنتم تعلمون»⁽¹⁾.

(1) انظر «تاريخ مختصر الدول» لابن العبري (1/ 278).

المبحث الثاني: في الخطب العسكرية

هي التي يُلقِيها قائدُ الجيش قبل الحرب؛ لِيَحُضَّ جُنْدَهُ على مُناهضة العدو، وَيُدْفَعَهُمْ بها على الذَّبِّ عَن حِيَاضِ الْوَطَنِ.

وخطرُها عظيم؛ لأنَّ كثيرًا ما يتوقف عليها انتصارُ الجيش؛ فإنَّ الجنديَّ إذا تَحَمَّسَ بكلامِ رئيسه نشط للقتال، وحارب العدوَّ غيرَ مُبالٍ بالخطر، فيفوز بإحدى الحُسنيين: الظَّفَر والغنيمة، أو الموت والشَّهادة.

والخطب العسكرية تدور على محورٍ معلومٍ ثابتٍ مختلفٍ الأغراض:

فالواجبُ على الخطيب في ذلك أمران:

الأوَّل: أن يُنْهَضَ هِمَّةَ الجندي، وَيُعْظَمَ في عينه شأنُ الوطن الذي تصدَّى للدفاع عنه، وما سيناله بحسن بلائه من المَجْد، وحسن الذِّكْرِ عند مُواطنيه، ومِن الثَّوَابِ لدى الله تعالى إن مات شريفَ النَّفْسِ، شهيدَ حُبِّه للوطن.

الثاني: أن يُبَغِّضَ إليه العدو، ببيان جَوْرِهِ وَظَمَعِهِ في الاستعمار، وَحُبِّ السِّيَادَةِ على الناس بلا مُسَوِّغ.

ثم يُذَلِّلُ الأمرَ ببيان ضعف قوَّتِهِ، وسهولةِ الانْتِصَارِ عليه، والفوزِ بِعُدَدِهِ وَذَخَائِرِهِ.



ولهذه الخطب أربع صفات:

الأولى: أن يلقيها الخطيب بحماسة عظيمة، فيجيز في قلوب سامعيه ما في نفسه من الحمية والنشاط.

الثانية: أن تكون بليغة متمصنة للأفكار الشريفة، والمعاني المنيفة المهيجة للعواطف، لا سيما الرجاء والثقة.

الثالثة: أن تكون واضحة قريبة المأل، يدركها الجند دون عناء.

الرابعة: أن تكون موجزة، لا يمل منها.

فإذا توفرت فيها هذه الصفات خرجت من فم الخطيب، كغهب النار الملتهمبة، وعملت في نفوس الجند عمل التبال الراشفة؛ فيتهافتون على نزال العدو غير مباليين بالخطر.

كقول الإمام عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأصحابه في الحرب: «وأيُّ امرئٍ منكم أحس من نفسه رباطة جأش عند اللقاء، ورأى من أحدٍ من إخوانه فشلاً؛ فليذب عن أخيه بفضل تجده التي فضل بها عليه، كما يذب عن نفسه، فلو شاء الله لجعله مثله.

إنَّ الموتَ طالبٌ حثيثٌ، لا يفوته مُقيمٌ، ولا يُعجزه الهارب.

إنَّ أكرمَ الموتِ القتلُ، والذي نفسُ ابنِ أبي طالبٍ بيده لألف ضربة بالسيف أهونُ عليٍّ من ميتةٍ على الفُرش.

وكأني أنظر إليكم تكشون كشيَش الضباب، لا تأخذون حقاً، ولا

تمنعون ضَيْمًا⁽¹⁾، قد خَلَّيْتُم الطريقَ؛ فَالْتَجَاةَ لِلْمُقْتَحِمِ، وَالْهَلَكَةَ لِلْمُتَلَوِّنِ⁽²⁾،
فَقَدَّمُوا الدَّارِعَ، وَأَخْرَوْا الْحَاسِرَ⁽³⁾، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ؛ فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلْسُّيُوفِ
عَنِ الْهَامِ⁽⁴⁾، وَالتَّوَّأَ⁽⁵⁾ فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ، فَإِنَّهُ أُمُورٌ لِلْأَسِنَّةِ⁽⁶⁾، وَغَضُّوا
الْأَبْصَارَ؛ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَاشِ، وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ؛ فَإِنَّهُ أَطْرُدُ
لِلْفَشْلِ، وَرَايْتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا، وَلَا تَخْلُوهَا، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ
وَالْمَانِعِينَ الدَّمَارَ مِنْكُمْ⁽⁷⁾؛ فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ⁽⁸⁾ هُمُ الَّذِينَ
يُخْفُونَ بَرَايَاتِهِمْ، وَيَكْتَنِفُونَهَا حَفَافِيهَا⁽⁹⁾ وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا
فَيُسْلِمُوهَا، وَلَا يَتَقَدَّمُونَ فَيُفْرِدُوهَا.

أَجْزَأُ أَمْرُ قِرْنِهِ⁽¹⁰⁾، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ،

-
- (1) تتراجعون هَرَبًا من القتال. والضباب: السحاب. والضَّيْم: الظلم. [م].
(2) الْمُقْتَحِم: الرَّامِي بِنَفْسِهِ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَخَاطِرِ. وَالْمُتَلَوِّن: الَّذِي لَا يَثْبُتُ.
(3) الدارِع: الَّذِي يَلْبَسُ دَرْعًا أَثْنَاءَ الْقِتَالِ. وَالْحَاسِر: الَّذِي يُقَاتِلُ بِدُونِهِ.
(4) أَنْبَى: صَبِيغَةُ أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ مِنْ نَبَا السَّيْفِ: إِذَا دَفَعَتْهُ الصَّلَابَةُ مِنْ مَوْقِعِهِ فَلَمْ يَقْطَعْ. وَالْهَام: جَمْعُ هَامَةٍ، وَهِيَ الرَّأْسُ.
(5) التَّوَّأَ، أَمْرٌ مِنَ التَّوَّى: إِذَا مَالَ. وَأُمُورٌ: مَا خُوِذَ مِنْ مَارِ الشَّيْءِ مَوْرًا تَحْرُكُ بِسُرْعَةٍ. اهـ. م. [م].
(6) أُمُورٌ: أَيُّ: أَشَدُّ فِعْلًا لِلْمَوْرِ، وَهُوَ الْاضْطِرَابُ الْمَوْجِبُ لِلانْزِلَاقِ وَعَدَمُ النَفُوزِ.
(7) الدَّمَار: مَا يَلْزِمُ الرَّجُلَ حِفْظُهُ وَحِمَايَتُهُ مِنْ مَالِهِ وَعِرْضِهِ.
(8) الْحَقَائِقُ: جَمْعُ الْحَاقَّةِ، وَهِيَ النَّازِلَةُ الثَّابِتَةُ.
(9) حَفَافِيهَا: جَانِبَيْهَا. [م].
(10) أَجْزَأُ أَمْرُ قِرْنِهِ: فِعْلٌ مَاضٍ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ، أَيُّ: فَلْيَكْفِ كُلُّكُمْ قِرْنَهُ، أَيُّ: كَفُوهُ؛ فَيَقْتُلْهُ.



فيجتمع عليه قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ⁽¹⁾، وإيم الله لئن فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لَا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَهَا مِيم⁽²⁾ العرب، وَالسَّامِ الْأَعْظَمُ؛ إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةً⁽³⁾ الله، وَالذَّلَّ الْإِلَازِمُ، وَالْعَارُ الْبَاقِي، وَإِنْ الْفَارَّ لَا مَزِيدَ فِي عُمُرِهِ، وَلَا مَحْجُوزَ بَيْنِهِ وَبَيْنَ يَوْمِهِ، الرَّائِحُ إِلَى اللَّهِ كَالظَّمَانِ يَرِدُّ الْمَاءَ.

الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي⁽⁴⁾، الْيَوْمُ تُبْلَى الْأَخْبَارُ⁽⁵⁾، وَاللَّهُ لَا نَا أَشَوْقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ.

اللَّهُمَّ فَإِنْ رَدُّوا الْحَقَّ فَافْضُضْ جَمَاعَتَهُمْ، وَشَتِّتْ كَلِمَتَهُمْ، وَأَبْسِلْهُمْ⁽⁶⁾ بَخَطَايَاهُمْ.

إِنَّهُمْ لَنْ يَزَالُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ دُونَ طَعْنٍ دِرَاكِ يَخْرُجُ مِنْهُ النَّسِيمُ⁽⁷⁾، وَضَرْبٌ يُفْلِقُ الْهَامَ، وَيُطِيحُ الْعِظَامَ، وَيُنْدِرُ السَّوَاعِدَ وَالْأَقْدَامَ⁽⁸⁾، وَحَتَّى يُرْمَوْا بِالْمَنَاسِرِ⁽⁹⁾ تَتَّبِعُهَا الْمَنَاسِرُ، وَيُرْجَمُوا بِالْكَتَائِبِ⁽¹⁾ تَقْفُوها الْحَلَاثِبُ⁽²⁾، وَحَتَّى

(1) أي: لم يترك خصمه إلى أخيه، فيجتمع على أخيه خصمان فيغلبانه، ثم ينقلبان عليه فيهلكانه.

(2) اللّهاميم: الأسخياء. [م].

(3) الموجدة: الغضب. [م].

(4) العوالي: الرّماح.

(5) أي: تمتحن.

(6) أْبْسَلَهُ: أَسْلَمَهُ لِلْهَلَكَةِ. [م].

(7) دِرَاكُ كِكْتَاب: أي: مُتَتَابِعُ مُتَوَالٍ فِي أَبْدَانِهِمْ أَبْوَابًا يَمُرُّ فِيهَا النَّسِيمُ.

(8) يندر كيهلك، أي: يُسْقِطُهَا.

(9) المناسر: جمع منسر، وهو الجيش لا يمرُّ بشيء إلا اقتلعه. والكتائب: جماعات الجيش.

يُجَرِّ بلادهم الخميسُ يتلوه الخميسُ، وحتى تزعق (3) الخيولُ في نَوَاحِرِ أَرْضِهِمْ،
وبأَعْنَانِ مَشَارِبِهِمْ وَمَسَارِحِهِمْ (4) (5).

وَمِنْ أَحْسَنِ هَذِهِ الْخُطَبِ خُطْبَةُ طَارِقٍ قَبْلَ فُتُوحِ الْأَنْدَلُسِ، لَمَّا بَلَغَ طَارِقًا
دُثُو لَدَرِيْقٍ قَامَ فِي أَصْحَابِهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ حَثَّ
الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْجِهَادِ وَرَغَّبَهُمْ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَيْنَ الْمَفْرُ؟ الْبَحْرُ مِنْ
وَرَاءِكُمْ، وَالْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ، وَلَيْسَ لَكُمْ - وَاللَّهِ - إِلَّا الصَّدَقُ وَالصَّبْرُ.

وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَضْيَعُ مِنَ الْإِيْتَامِ فِي مَادِبَةِ اللَّثَامِ، وَقَدْ
اسْتَقْبَلَكُمْ عَدُوُّكُمْ بِجَيْشِهِ وَأَسْلِحَتِهِ، وَأَقْوَاتُهُ مَوْفُورَةٌ، وَأَنْتُمْ لَا وَزَرَ لَكُمْ إِلَّا
سَيْوُفُكُمْ، وَلَا أَقْوَاتَ إِلَّا مَا تَسْتَخْلَصُونَهُ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَإِنْ امْتَدَّتْ بِكُمْ الْأَيَّامُ
عَلَى افْتِقَارِكُمْ وَلَمْ تُنْجِزُوا لَكُمْ أَمْرًا - ذَهَبَ رِيْحُكُمْ، وَتَعَوَّضَتِ الْقُلُوبُ مِنْ
رُعْبِهَا مِنْكُمْ الْجَرَأَةَ عَلَيْكُمْ؛ فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ خِذْلَانَ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ مِنْ
أَمْرِكُمْ بِمُنَاجَزَةِ هَذَا الطَّاعِيَةِ، فَقَدْ أَلْقَتْ بِهِ إِلَيْكُمْ مَدِينَتَهُ الْحَصِينَةَ، وَإِنْ
انْتَهَزَ الْفُرْصَةَ فِيهِ لِمَكْنٌ إِنْ سَمَحْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ بِالْمَوْتِ.

==

وَالْحَلَاثِبُ: الْإِبِلُ يُحْلَبُ مِنْهَا اللَّبَنُ. وَالْخَمِيسُ: الْجَيْشُ؛ لِأَنَّهُ خَمْسُ فِرَقٍ: الْمَقْدِمَةُ، وَالْقَلْبُ،
وَالْمَيْمَنَةُ، وَالْمَيْسَرَةُ، وَالسَّاقُ. [م].

(1) الْكَتَائِبُ: جَمْعُ كَتِيبَةٍ، وَهِيَ مِنَ الْمَائَةِ إِلَى الْأَلْفِ.

(2) الْحَلَاثِبُ: جَمْعُ حَلْبَةٍ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْخَيْلِ تَجْتَمِعُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ لِلتُّصْرَةِ.

(3) تَزْعَقُ: تَصِيحُ. وَالنَّوَاحِي: الْأَوَائِلُ. وَالْأَعْنَاقُ: الْجَوَانِبُ. اهـ. م. [م].

(4) أَعْنَانُ الشَّيْءِ: أَطْرَافُهُ.

(5) انظر «نهج البلاغة» (2/ 239، 240).



وإني لم أَحْذَرُكُمْ أَمْرًا أَنَا عَنْهُ بِنَجْوَةٍ، وَلَا أَحْمَلْتُكُمْ دُونِي عَلَى خَطِيءٍ
أَرْخَصَ مَتَاعَ فِيهَا النَفُوسُ، أَبْدَأُ بِنَفْسِي!

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق طويلاً استمتعتم بالأَرْفَةِ الْآلِدِ
طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حَظُّكُمْ فِيهِ بِأَوْفَرٍ مِنْ حَظِّي،
وقد بلغكم ما أَنْشَأَتْ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ مِنَ الْخَيْرَاتِ الْعَمِيمَةِ.

وقد انتخبكم الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ عُرْبَانًا،
وَرَضِيَكُمْ لِمُلُوكِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ أَصْهَارًا وَأَخْتَانًا؛ ثَقَّةً مِنْهُ بَارْتِيَا حُكْمَ لِلطَّعَانِ،
وَأَسْتَمَاحُكُمْ بِمَجَالِدَةِ الْأَبْطَالِ وَالْفِرْسَانِ؛ لِيَكُونَ حَظُّكُمْ مِنْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ عَلَى
إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَلِيَكُونَ مَغْنَمُهَا خَالِصَةً لَكُمْ مِنْ
دُونِهِ وَمِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ إِنجَادِكُمْ عَلَى مَا يَكُونُ
لَكُمْ ذِكْرًا فِي الدَّارَيْنِ.

واعلموا أَنِّي أَوَّلُ مُجِيبٍ إِلَى مَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ، وَأَنِّي عِنْدَ مُلْتَقَى الْجُمُعَيْنِ
حَامِلٌ بِنَفْسِي عَلَى طَآغِيَةِ الْقَوْمِ لَذَرِيقٍ؛ فَقَاتِلُهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - فَاحْمِلُوا
مَعِيَ، فَإِنْ هَلَكْتُ بَعْدَهُ فَقَدْ كُفَيْتُمْ أَمْرَهُ، وَلَمْ يُعْزِزْكُمْ بَطْلٌ عَاقِلٌ تَسْنَدُونَ
أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ وَصُولِي إِلَيْهِ فَاخْلَفُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ، وَاحْمِلُوا
بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ، وَاكْتَفُوا الْهَمَّ مِنْ فَتْحِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِقَتْلِهِ» (1).

وَلَمَّا تَقَى الزَّحْفَانِ (2)، وَتَقَارَبَ الْقَوْمُ - قَامَ حَنْظَلَةُ بْنُ ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ: «يَا

(1) انظر «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» لشهاب الدين التلمساني (1/ 240).

(2) كان هذا في يوم ذي قار أول يوم تهزم فيه العربُ العجمَ. وذكر أبو الفرج الأصفهاني في

معشر بكر بن وائل، إِنَّ النَّشَابَ الَّذِي مَعَ الْأَعَاجِمِ يُغْرِقُكُمْ، فَإِذَا أَرْسَلُوهُ لَمْ يُخْطِئْكُمْ، فَعَاكِجِلُوهُمْ اللَّقَاءَ، وَابْدِءُوهُمْ بِالشَّدَّةِ».

ثم قام هانئ بن مسعود، فقال: «يا قوم، مَهْلِكُ مَقْدُورٌ خَيْرٌ مِنْ نَجَاءٍ مَغْرُورٍ، وَإِنْ الْحَذَرَ لَا يَدْفَعُ الْقَدَرَ، وَإِنْ الصَّبْرَ مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ، الْمَنِيَّةُ وَلَا الدُّبْرُ، يَأْتِي قَوْمَ جَدُّو! فَمَا مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ، فَتَحَّ لَوْ كَانَ لَهُ رَجَالٌ، أَسْمَعُ صَوْتًا وَلَا أَرَى قَوْمًا، وَيَا آلَ بَكْرٍ، شُدُّوا وَاسْتَعْدُّوا، وَاشْتَدُّوا وَإِلَّا تُرَدُّوا»⁽¹⁾.

«الأغاني» (2/ 117، 118) أَنَّهُ حَدَّثَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ وَقَعَ فِيهِ الْقِتَالُ

بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْفَرَسِ فِي الْعِرَاقِ، وَانْتَصَرَ فِيهِ الْعَرَبُ.

(1) انظر «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني (24/ 67، 68).



المبحث الثالث: في التحريض والتقريع

خُطبة التحريض هي: خطبة حماسية يُرادُّ بها تهيجُ نفس السَّامع على مُباشرة أمرٍ أو تركه؛ كقول إسماعيل بن عبد الله القُشيري- في ردِّ الخليفة مَرْوَانَ عند التَّجائه مع أهله مِنْ أعدائه إلى الرُّوم، بدلاً من أجناد العرب: «أُعِيدُكَ بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذَا الرَّأْيِ: أَنْ تُحَكِّمَ آلَ الشَّرْكِ فِي بَنَاتِكَ، وَحَرَمِكَ، وَهَمَّ الرُّومِ لَا وَفَاءَ لَهُمْ، وَلَا تَدْرِي مَا تَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ، وَأَنْتَ إِنْ حَدَّثَ عَلَيْكَ حَادِثٌ بِأَرْضِ التَّصْرَانِيَّةِ- وَلَا يَحْدُثُ عَلَيْكَ إِلَّا خَيْرٌ- ضَاعَ مَنْ بَعْدَكَ، وَلَكِنْ أَقْطَعَ الْفُرَاتَ، ثُمَّ اسْتَنْفَرَ أَهْلَ الشَّامِ جُنْدًا؛ فَإِنَّكَ فِي كَنْفٍ وَعِزَّةٍ، وَلَكِ فِي كُلِّ جُنْدٍ صَنَائِعُ يَسِيرُونَ مَعَكَ حَتَّى تَأْتِيَ مِصْرَ؛ فَإِنَّهَا أَكْثَرُ أَرْضِ اللَّهِ مَالًا وَخِيَلًا وَرِجَالًا، ثُمَّ الشَّامُ أَمَامَكَ، وَإِفْرِيقِيَّةٌ خَلْفَكَ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ مَا تَحِبُّ انْصَرَفْتَ إِلَى الشَّامِ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى مَشِيَّتَ إِلَى أَفْرِيقِيَّةٍ»⁽¹⁾.

وخطبة التقريع: هي ما تُلقَى على سبيل التَّوْبِيخِ وَاللُّومِ؛ لدفع المُخَاطَبِ إِلَى قَصْدٍ عَظِيمٍ؛ كطاعةٍ بعد عصيانٍ، وعَمَلٍ بعد فَشَلٍ، وَإِنَابَةٍ بعد ذَنْبٍ. وَمِنْ أَحْسَنِ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ خُطْبَةُ الْإِمَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّتِي قَالَهَا بَعْدَ

(1) انظر «مروج الذهب» للمسعودي (3/ 264، 265).

أن أوقع بأنصاره سفيان بن عوفٍ في الأنبار.

حدّث ابنُ عائشة في إسناده ذكره أن عليّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انتهى إليه أن خيلاً لمعاوية ورَدَت الأنبارَ، فقتلوا عاملاً له، يقال له: حَسَّان بن حَسَّان، فخرج مُغَضَّباً يجر ثوبه حتى أتى التُّخَيْلَةَ ⁽¹⁾، واتَّبعه الناس؛ فَرَقَى رَبَاوَةَ ⁽²⁾ من الأرض، فَحَمِدَ اللَّهَ، وأثنى عليه، وصَلَّى على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: «أما بعد، فإنَّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله الدُّلَّ وسِيَمَاءَ الْحُسْفِ، وِدِثَ بِالصَّغَارِ ⁽³⁾».

وقد دعوتُكم إلى حربٍ هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم من قبل أن يَغْزُوكُمْ، فوالذي نفسي بيده، ما غَزِي قومٌ قط في عُقْرِ ⁽⁴⁾ دارهم إلا ذلُّوا؛ فتخادلتُم وتَوَاكَلْتُم، وثقل عليكم قولي، واتخذتموه وراءكم ظهيراً حتى شُنَّت عليكم الغارات ⁽⁵⁾.

هذا أخو غامدٍ قد ورَدَت خيله الأنبار، وقتلوا حَسَّان بن حَسَّان، ورجالاً منهم كثيراً ونساء.

والذي نفسي بيده، لقد بلغني أنَّه كان يدخل على المرأة المسلمة والمعاهدة

(1) التُّخَيْلَةُ كَجُهَيْنَةَ: موضعٌ بالعراق حَدَّثت به وقعة بين الخوارج وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [م].

(2) الرِّبَاوَةُ مُثْلَثَةٌ: ما ارتفع من الأرض، وكذا الرِّبْوَةُ. [م].

(3) سِيَمَاءُ الْحُسْفِ: علامة الدُّلِّ والهوان. وِدِثَ: دال. [م].

(4) عُقْر الدار: أصلها. [م].

(5) رميتم به وراء ظهوركم: أي: لم تلتفتوا إليه. وشُنَّت: صُبَّت. [م].



فَتُنْتَزِعُ أَحْجَالَهُمَا وَرُعَاتُهُمَا⁽¹⁾، ثم انصرفوا موفورين لم يُكَلِّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، فلو أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مات مِن دون هذا أَسَفًا ما كان عِنْدِي فِيهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا.

يا عَجَبًا كُلِّ الْعَجَبِ، عَجَبٌ يُمِيتُ الْقَلْبَ، وَيَشْغَلُ الْفَهْمَ، وَيُكْثِرُ الْأَحْزَانَ مِنْ تَضَافِرِ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ حَتَّى أَصْبَحْتُمْ غَرَضًا⁽²⁾، تُرْمَوْنَ وَلَا تَرْمُونَ، وَيُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ، وَيُعْصَى اللَّهُ عَزَّجَلًا فِيكُمْ وَتَرْضَوْنَ.

إِذَا قُلْتَ لَكُمْ: اغزوهم في الشتاء - قُلْتُمْ: هَذَا أَوَانُ قُرٍّ وَصِرٍّ⁽³⁾، وَإِنْ فَاتَ لَكُمْ: اغزوهم في الصَّيفِ - قُلْتُمْ: هَذَا حِمَارَةُ الْغَيْظِ، أَنْظِرْنَا يَنْصَرِمُ الْحَرْبُ عَنَّا⁽⁴⁾!

فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ - وَاللَّهُ - مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالٍ، وَيَا طَعَامَ⁽⁵⁾ الْأَحْلَامِ، وَيَا عَقُولَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ.

وَاللَّهُ لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ، وَلَقَدْ مَلَأْتُمْ جَوْفِي غَيْظًا حَتَّى قَالَتْ قَرِيشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شَجَاعٌ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِي الْحَرْبِ!

(1) الْأَحْجَالُ: الْخَلَائِلُ. وَاحِدُهَا: حَجَلٌ. وَالرَّعَاثُ: جَمْعُ رَعَثَةٍ، وَهِيَ الشُّنُوفُ مِنَ الذَّهَبِ يُحْلَى بِهَا الْأَنْفُ. اهـ. م. [م].

(2) الْغَرَضُ بِالْتَحْرِيكِ: هَدَفٌ يُرْمَى فِيهِ. [م].

(3) الْقُرُّ بِالضَّمِّ: الْبَرْدُ، وَكَذَا الصَّرُّ بِالْكَسْرِ. [م].

(4) الْقَيْظُ: الصَّيْفُ. وَحِمَارَتُهُ: اشْتِدَادُ حَرِّهِ. وَانْظُرْنَا: أَخْرَنَا. وَيَنْصَرِمُ: يَنْقَطِعُ. [م].

(5) الطَّغَامُ: مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا مَعْرِفَةَ. [م].

لله دَرُّهُم! وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمُ بِهَا مِنِّي، أَوْ أَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا⁽¹⁾، فوالله لقد نهضتُ فيها وما بَلَغْتُ العِشرين، ولقد نَيْفْتُ اليومَ على السِّتين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع، يقولها ثلاثًا⁽²⁾.

وخطبة الحجاج لما ولي العراق: دخل مَسْجِدَ الكوفة مُعْتَمًا بعمامة قد غَطَّى بها أَكْثَرَ وجهه، مُتَقَلِّدًا سَيْفًا، مُتَنَكِّبًا قَوْسًا، فَصَعِدَ المنبرَ، وَحَسَرَ اللثامَ عن فيه، ونهض، فقال - من جملة كلامه -: «إني - والله - يا أَهْلَ العراق ما يُقَمِّعُ لي بالشَّنان⁽³⁾، ولا يغمز جانبي كتغمازِ التَّين، ولقد فرزت عن ذكاء⁽⁴⁾، وَفَتَّشْتُ عن تجربة، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كِنَانَتَه بين يديه، فَعَجَمَ عِيدَانَهَا⁽⁵⁾، فوجدني أمرَّها عودًا، وأصلبها مَكْسَرًا، فرماكم بي؛ لأنكم طالما أَوْضَعْتُمْ في الفتنة⁽⁶⁾، واضطجعتُم في مَرَاقد الضلال.

والله لأَحْزَمَنَّكُمْ حَزَمَ السَّلْمَةِ⁽⁷⁾، ولأَضْرِبَنَّكُمْ ضربَ غرائبِ الأبل⁽⁸⁾، فَإِنَّكُمْ كَأَهْلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ

(1) المراس: المعالجة. اهـ. م. [م].

(2) انظر «العقد الفريد» (4/ 160، 161).

(3) القعقعة في الأصل: حكاية صوت السَّلاح. والشَّنان: جمع شن، وهو القَرْيَةُ الخَلْق. وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ لمن لا يتضع لحوادث الدهر، ولا يروعه ما لا حقيقة له. [م].

(4) يعني تمام السِّنِّ والذكاء على ضريين: أحدهما: تمام السن، والآخر: حِدَّة القلب.

(5) الكِنَانَةُ: وعاء السَّهام. وعجم العود: عضه؛ ليعرف صلابته من خوره. [م].

(6) المراد: سَعَيْتُمْ في الفتنة مُسْرِعِينَ. اهـ. م. [م].

(7) السَّلْمَةُ: نوعٌ من الشَّجر البري يحزمونه لأغنامهم.

(8) تُضْرَبُ عند الهَرَب.



مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.
وإني - والله - ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق⁽¹⁾ إلا
فريت⁽²⁾.

وإن أمير المؤمنين أمرني بأعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة
عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد
أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه⁽³⁾.

وخطبته بعد وقعة دير الجماجم التي قرع فيها أصحابه تقريراً لا مزيد
عليه: «يا أهل العراق، قد اتخذتم الشيطان دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه،
ومؤامراً تستشيرونه، وكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم
إسلام، أو يردكم إيماناً، أولستم أصحابي بالأهواز حيث رُمتم المكر، وسعيتم
بالغدر، واستجمعتم للكفر؟! وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا
أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لوأداً⁽⁴⁾، وتنهزمون سراعاً.

يوم الزاوية، وما يوم الزاوية؟! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم،
وبراءة الله منكم، ونكوص وليه عنكم إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى

(1) خلق النطع والأديم: قدره قبل أن يقطعه، فإذا قطعه قيل: فراه. يريد أنه لا يعتزم أمراً إلا
نفذه. [م].

(2) فريت الأديم: إذا أصلحته.

(3) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (12 / 131)، وانظر «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد
(1 / 299).

(4) لوأداً: أي: يلود بعضكم ببعض. اهـ. م. [م].

أوطانها، التّوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخُ على بنيه، حتى عضّكم السلاحُ، وقصمتكم الرّماحُ.

يوم دير الجماجم، وما دير الجماجم؟! به كانت المعارك والملاحم بضرب يُزيل الهام عن مَقليله، ويُذهل الخليل عن خليله.

يا أهل العراق، أهل الكفّرات والفجّرات، والغدّرات بعد الختّرات⁽¹⁾، والثورة بعد الثورات، إن أبعثكم إلى تُغوركُم غللتُم وخُنتم، وإن أمنتُم أرجفتُم، وإن خِفتم نأفقتُم، لا تذكرون نِعمةً، ولا تشكرون نِعمةً.

يا أهل العراق، هل استخفّكم ناكثٌ، أو استغواكم غاوٍ، أو استفزّكم عاصٍ، أو استنصركم ظالمٌ، أو استعضضكم خالعٌ إلا وثقتموه، وآويتُموه، وعزّرتُموه، ونصرتُموه، ورضيتُموه، وأرضيتُموه؟!

يا أهل العراق، هل شَغَبَ شاغبٌ، أو نَعَبَ ناعبٌ، أو نَعَقَ ناعقٌ، أو زَفَرَ زافرٌ إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟!

يا أهل العراق، ألم تنهكُمُ المَواعِظُ؟! ألم تزجركم الوقائع؟!

ثم التفتَ إلى أهل الشام، فقال: يا أهل الشّام، إنما أنا لكم كالظّليم⁽²⁾ الذّابّ عن فراخه، ينفي عنها المدرّ، ويُباعد عنها الحجرَ، ويكُئّها من المطرَ، ويحميها من الضّباب، ويحرسها من الدُّباب.

(1) الختّرات: جمع خترة، وهي الغدر والخديعة.

(2) الظّليم: ذكّر النّعامه. اهـ. م. [م].



يا أهل الشام أنتم الحُبَّة والرِّداء، وأنتم العُدَّة»⁽¹⁾.

(1) أخرجه ابن العديم العقيلي في «بغية الطلب في تاريخ حلب» (5 / 2075، 2076)، وانظر «البداية والنهاية» (12 / 519).

المبحث الرابع: في خطب الطلب والوصية

خطبة الطلب: ما يَلْتَمِسُ بها الخطيبُ خيرًا لنفسه أو لغيره.

والوصية: الأمر بالخير، ومنه ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11] أي: يأمرُكم.

والطريقة المثلى في خطبة الطلب: أن تُعَدَّ نفسُ المُنْعَمِ لقبول طلبك؛ باستعطاف قلبه، ثم تعرض المطلوبَ مُعَيَّنًا أسبابه، وصلاحيته، وقدرة المُخاطب على منحه، ثم تحتّم بالشُّكر للمُنْعَم، مع الثناء والرجاء من الله تعالى أن يُكافئه على حُسن صنيعه.

مثالها: الخطبُ التي تُقالُ لمساعدة المَبْتُوسِينَ، وإعانة المَنكُوبِينَ بحربٍ أو حريقٍ، وفكِّ الأسرى، والخطوب العامة.

ومن الأمثلة الحسنة في الطلب: ما قاله بعضُ الأدباء يستعطف أحدَ الأُمراء: «إليك يا مَنْ اسْتَأْثَرَ الثُّفُوسَ بكرمه، واسترقَّ الأحرارَ بجميلِ صنِّعه، أَرْفَعُ خِطَابًا تَبَعْنُهُ إلى ناديك عواملُ الحاجة، وتُسديه إلى ساحتك دواعي الشَّدة، مُؤَمِّلًا أن يكون تذكُّرٌ بأمري، والدِّكرى تنفع المؤمنين!

فقد كان سيّدي - رفع الله قدره وأعلى قرنه - وعدني، ومثله مَنْ يَتَمَسَّكُ

مَنْ الْوَفَاءَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، وَيَقْطَعُ حَبْلَ الْأَخْلَافِ بِسَيْفِ الْوَفَاءِ، وَيُطْرَزُ خِلْعَةً الْوَعْدِ بَوَشيَّ الْعِطَاءِ: أَنْ يُرْسَلَ لِي مِنْ خَيْرَاتِهِ، وَيُولَيَنِي مِنْ آلَائِهِ وَحَسَنَاتِهِ مَا أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي عَلَى الزَّمَانِ، وَأُطَاوِلُ بِهِ نَوَائِبَ؛ فَقَدْ بَارَزَنِي الدَّهْرُ بِسُيُوفِهِ، وَرَمَانِي بِسَهَامِهِ، وَأَنَاخَ عَلَيَّ بِكَلاَئِكَه (1)، وَأَمْلِي فِي ذَلِكَ فَسِيحٌ؛ فَإِنَّ سَيِّدِي مِنْ أَكْرَمِ النَّاسِ نَسَبًا، وَأَشْرَفِهِمْ حَسَبًا، وَمِثْلَهُ جَدِيرٌ بِحِفْظِ الْعَهْدِ، وَإِنْجَازِ الْوَعْدِ، فَإِنْ رَأَى سَيِّدِي أَنْ يُخَفِّفَ ثِقَلَ الْحَاجَةِ عَنِّي، وَيَرُدَّ مَا سَلَبَهُ الدَّهْرُ مِنِّي بِقَطْرَةٍ مِنْ بَحْرِ عَطَائِهِ، وَمِنَّةٍ مِنْ بَعْضِ آلَائِهِ، وَيَجْبِرَ مَا كَسَرَهُ الْفَقْرُ مِنْ جَنَاحِي، وَيَرِدَّ عَنِّي النَوَائِبَ الَّتِي لَا تَفْتَأُ تَتَوَلَّانِي - عَقَدْتُ لِسَانِي عَلَى مَدَحِهِ، وَوَقَفْتُ نَفْسِي عَلَى شُكْرِهِ، فَيُحْرَزُ مِنَ اللَّهِ أَجْرًا جَزِيلًا، وَمِنِّي شُكْرًا جَمِيلًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ (2).

ومن أجود خطب الوصية: ما قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لأحد قَوَادِ جَيْشِهِ: «إِذَا سِرْتَ فَلَا تُعَنَّفْ أَصْحَابَكَ فِي السَّيْرِ، وَلَا تُغْضِبُهُمْ، وَشَاوِرْ ذَوِي الْأَرَاءِ مِنْهُمْ، وَاسْتَعْمَلِ الْعَدْلَ، وَبَاعِدْ عَنْكَ الْجَوْرَ؛ فَإِنَّهُ مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ ظَلَمُوا، وَلَا نُصِرُوا عَلَى عَدُوهِمْ، وَإِذَا لَقَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُؤْلَوْهُمْ الْأَدْبَارَ، ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ ﴾ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَكَأَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴿ [الأنفال: 16].

وَإِذَا نُصِرْتُمْ عَلَيْهِمْ فَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا طِفْلًا، وَلَا تَحْرِقُوا زَرْعًا، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرًا، وَلَا تَذْبَحُوا بِهِيْمَةً إِلَّا مَا يَلْزَمُكُمْ لِلْأَكْلِ، وَلَا تَغْدَرُوا

(1) الكلالكل: جمع الكلل. وهو الصَّدْرُ أَوْ هُوَ مَا بَيْنَ التَّرْقُوتَيْنِ. والمعنى: أثقلني وضغط عليّ.

(2) انظر: «جواهر الأدب» للهاشمي (1/ 99).

إذا هادنتُم، ولا تنقضوا إذا صالحتم، وستمرُّون على أقوام في الصَّوامع رُهبان ترهبوا الله، فدعُوهم وما انفردوا إليه وارتضوه لأنفسهم؛ فلا تهدموا صوامعهم، ولا تقتلوههم، والسَّلام» (1).

ومن رسالةِ لِعُمَرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى بعض قُؤاد جيشه: «أما بعد، فإني أوصيك ومَن معك من الأخيارِ بِتَقْوَى اللهِ في كُلِّ حالٍ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ الْعُدَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ، وَأَقْوَى الْمَكِيدَةِ فِي الْحَرْبِ، وَأَنْ تَكُونَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنَ الْمَعَاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، فَإِنَّ ذُنُوبَ الْجَيْشِ أَخَوْفُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّةٌ؛ لِأَنَّ عِدَدَنَا لَيْسَ كَعِدَدِهِمْ، وَلَا عُدَّتُنَا كَعُدَّتِهِمْ، فَإِنْ اسْتَوَيْنَا فِي الْمَعْصِيَةِ كَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا فِي الْقُوَّةِ، وَإِنْ لَمْ نُنْصَرْ عَلَيْهِمْ بِطَاعَتِنَا لَمْ نَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا.

واعلموا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِي سَيْرِكُمْ حَفَظَةً مِنَ اللهِ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ، فاستحيوا منهم، واسألوا الله العونَ على أنفسكم، كما تسألونه النَّصْرَ على عَدُوِّكُمْ، وأقم بمن معك في كل جمعةٍ يومًا وليلةً حتى تكون لهم راحةً يُحْيُونَ فِيهِمَا أَنْفُسَهُمْ، وَيَرْمُونَ أَسْلِحَتَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ، وَنَحْ مِنْزَلَهُمْ عَنْ قُرَى أَهْلِ الصُّلْحِ وَالذِّمَّةِ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا مَنْ تَثَقَّ بِهِ.

وليكن منك عند دُنُوكَ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ أَنْ تُكْثِرَ الطَّلَائِعَ، وَتَبُتَّ السَّرَايَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، ثُمَّ أَذْكَ أَجْرَاسِكَ عَلَى عَسْكَرِكَ، وَتَيْقُظَ مِنَ الْبَيَاتِ

(1) وصية الخليفة أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لقائده يزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند بعثه لفتح الشام.

انظر «فتوح الشام» للواقدي (1/ 8).



جهدك، والله وليُّ أمرِك ومَن معك، ووليُّ النَّصر لکم على عَدُوِّکم»⁽¹⁾.

(1) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه (1/ 117).

المبحث الخامس: في خطب التوصية والشفاعة

التوصية: طلبُ الخير لثالث؛ كالشفاعة.

وأفضل طريق في خطبة التوصية: وصف خلال الموصى به التي تُؤهلُه
للنَّعمة المطلوبة، لا سيمًا حُسْنُ سيرته، وصدقُ أمانته، وكَمالُ إخلاصه،
واستقامةُ عمله.

ثم يُبينُ الخطيبُ احتياجَ الموصى به إلى الالتفاتِ إليه، ومددَ المساعدة
له، ويختتمها بالشكر الدائم لمعروفِ المنعم من قبله وقبل الموصى به.

وخطب الشفاعة هي: التي يَستَمَلِكُ بها الخطيبُ رضا المُخاطَبِ، ويسأله
التَّجاوزَ عن ذنب المُسيءِ إليه.

وأقومُ طريقِ خطبِ الشفاعة: أن يتَّخَذَ الشَّفِيعُ كُلَّ الوسائلِ لإخماد نارِ
الغَضَبِ عند مَنْ حاول استعطافه.

ويفتح كلامه بالإقرار بالذَّنب، ثم يندرج إلى طلب الصَّفح عن المسيء؛
إمَّا ببيان جهله وخطئه، وإما بِذِكرِ ما نزل به مِنَ العقابِ، أو التَّوبيخِ بسوء
فعله، مع أسفه وندمه على ما اجتَرَحَهُ، ثم يذكر ما في التجاوز عن إثم المسيء
مِن الكَرَمِ، وحُسْنِ الذِّكرِ، وجميلِ الجَزاءِ في الدَّارين، ويختتم بوعده الشُّكرَ المؤبَّد



لمن يصفح عن الإساءة مع القصد بالتعويض عنها- ما أمكن الجاني- فضلاً
عن الإنابة عن ذنبه.



الفصل الثالث: في القول المشاجري

القول المشاجري: خاصٌ بالمحاكم القضائية؛ أهليةً كانت أو شرعيةً.

وينقسم إلى قسمين: شكاية من جناية. أو دفاع عن متهم.

والغاية منه: العدل والجور؛ فيؤخذُ بناصر المظلوم، ويردُّ جور الظالم.

والخطيب المشاجري في الغالب: هو المحامي القانوني الذي يتولَّى أعمالَ المحاكمات؛ إما لتأنيب متهم، وإما لتزكيتِهِ.

وأخصُّ صفات الخطيب المشاجري ثلاثُ:

الأولى: النزاهة والاستقامة، بحيث يقوم بالأمر الموكول إليه بكل غيرِ وأمانةٍ ونشاطٍ إذا رأى القضية عادلةً، وترجَّحَ عنده صحتها، أما إذا عرفها على غير ذلك فلا يجوز له قبولُها.

الثانية: معرفة الأصول الشرعية، والقوانين العادلة؛ ليحيد عن الضلال، وتثق به هيئة القضاء.

الثالثة: تمام الوقوف على وقائع الدعوى وأسانيدها وتفصيلها؛ لئلا يطوح بالأبرياء، أو يُبرئ ساحة المجرمين.



هذا، وإن القوانين الشرعية التي يجري عليها القضاء العادل في عصرنا هذا لا تدع مجالاً كبيراً لبلاغة الخطيب، غير أنه إذا كان مُحَنِّكاً يستطيع في كثير من الدعاوى أن يؤثر ببلاغته في عقول القضاة، وأرباب المحاكمة، سواء كان بشرح مادة خفية، أو بذكر بعض الظروف المُخَفِّفة عن الجاني، أو إيضاح بعض تلاعب الخصوم في الدعوى، وغير ذلك مما يبني عليه كلامه في تبرئة المتهم أو تذنب الخصم.

وعلى الجملة: فلا تُفيض القول في هذا الفصل؛ فإنه كما عرفت مهمة المحاماة، وقد انفرد بها طائفة معروفة. وفيما ذكرناه في واجب هذه الطائفة في كتابي «الأخلاق والبدع» كفاية، وبالله تعالى التوفيق.



الفصل الرابع: في خُطْبِ الوَعْظِ

قد عرفت أنَّ الوعظ الدينيَّ نوعٌ من الخطابة العامة، وفنٌّ من فنونها، إلا أنه يتميز عن باقي أنواع الخطابة بشروطٍ خاصّة وآدابٍ لا بُدَّ منها، وإن كان كلُّ نوع من الأنواع المُتَقَدِّمة كذلك - شأن الأنواع المُندرجة تحت جنسٍ واحدٍ، والقدر المُشترك الذي بيّناه في أصول الخطابة - يُغني الخطيب إذا دَعَتْهُ الحاجةُ إلى مباشرة أيِّ فنٍّ من فنونها المتقدمة.

ومعلومٌ أنَّ الحاجةَ إلى الوعظ الدينيَّ أشدُّ، والمزاولة له أكثر، فيحتاج مَنْ يتصدى له مع ما تقدم في الخطابة العامة إلى زيادة تفصيلٍ وإيضاحٍ.

ونحن قدّمنا الكلام على الوعظ والإرشاد؛ اهتماماً بشأنه، وذكرناه في باب على حدة، بينّا فيه مبادئه، وما ينبغي أن يكون عليه الواعظ من الصّفات الحميدة والآداب المُستَحْسَنَة، إلى غير ذلك مما تقدّم في بابه.

ولتمام الفائدة في فنِّ الوَعْظِ والإِرشادِ نقولُ:

غيرُ خافٍ عليك أنَّ مصادر الوعظ والإرشاد وينابيعه الصّافية هي الكتاب والسُّنة، ثم خلاصة أفكار ذوي النفوس العالية التي لا تخرج عنهما، فإن كلَّ ما تراه من طرق الوعظ والإرشاد إنما هو معاني الكتاب والسُّنة



تُكَيِّفُهَا الْعُقُولُ بِكَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ بِالتَّصْرِيحِ أَوْ الْإِسْتِنْبَاطِ.

وَإِنَّ أَجُودَ النَّاسِ فِي هَذَا التَّكْيِيفِ وَالْإِبْدَاعِ هُمُ الْكَمَلَةُ مِنْ حَمَلَةِ الشَّرِيعَةِ وَالْأَخْلَاقِيُونَ.

وَلِذَلِكَ كَانَ الْمُتَحَقِّقُونَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ أَثَرًا فِي هَذَا الْبَابِ، وَبِقَدْرِ مَا يَكُونُ اقْتِرَابُ الْمَعْنَى الْإِرْشَادِي مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَكُونُ تَأْثِيرُهُ فِي النَّفُوسِ، وَتَلْقَى الْعُقُولُ لَهُ بِالْقَبُولِ.

وَمِنْ هَذَا تَعَلَّمَ سِرَّ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِأَبْلَغِ الْأَسَالِيبِ، وَأَعْجَزَ الْعَالَمِ بِلَفْظِهِ، وَمَعْنَاهُ، وَمَتَانَةِ أَسْلُوبِهِ، وَوُقُوفِهِ عَلَى أَحْوَالِ الْبَشَرِ؛ جَلِيَّهَا وَخَفِيِّهَا، وَاسْتِقْصَائِهِ أَمْرَاضَ النَّفُوسِ؛ ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا؛ لِأَنَّ مُنْزَلَهُ هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَفَرَعَ بِشِدَّةٍ وَعَظَمَةٍ وَقُوَّةٍ تَأْثِيرَهُ النَّفُوسَ الْعَاتِيَةَ، وَالْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِالْكَفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْأَنْفَةِ وَالْكَبْرِيَاءِ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ أَنْ يُصْلِحُوا بِهِ أَمْرَ الْعِبَادَةِ؛ فَمَنْ كَانَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ تَامٍّ لِلتَّأْثِيرِ بِهِ كَفَاهُ فِي الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِسْمَاعُهُ لَهُ، بِسَلَامَةٍ ذَوْقِهِ وَفِطْرَتِهِ؛ فَسَلِيمُ الْفِطْرَةِ وَالذَّوْقِ يَكْفِيهِ أَقْلٌ مِنْهُ إِذَا عَرَضَتْ لَهُ الْغَفْلَةُ - شَأْنُ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ، فَكَيْفَ بِأَعْظَمِ وَأَكْبَرَ مُؤَثِّرٍ؟!

لِذَلِكَ كَانَتْ الْخُطَابَةُ وَأَسَالِيبُ الْوَعْظِ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ تَدُورُ حَوْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا غَيْرِ.

وَلَمَّا تَرَاوَعَ الذَّوْقُ الْعَرَبِيُّ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَكَثُرَتْ الْأَمْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ أَخَذَ الْخُطَبَاءُ وَالْوُعَاظُ يَتَصَرَّفُونَ فِي أَسَالِيبِ الْوَعْظِ بِمَا يُؤَثِّرُ عَلَى السَّامِعِينَ، حَسَبَ

أحوالهم، واستعدادهم، الكلُّ مَرَجِعُهُ الكتابُ والسُّنة، سواء في المسائل الاعتقاديّة، أو العمليّة، أو الأخلاقيّة، أو الاجتماعيّة، وكلُّ ذلك نتيجة تولّد الأفكار الراقية المهدّبة.

ومن هذا يتبين لك فضلُ رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وأَنَّهُ رحمة للعالمين، وفضلُ القرآن الكريم، وأَنَّهُ هُدًى وشفاء، بخلاف الكتب السماويّة السّابقة عليه، إذ لو جاءت بهذا الإعجاز لما ظهر أمام العقول فضلُ لِهَذَا الكتابِ، ولا لِمُبْلَغِ الكتابِ.

وَسَتَعْلَمُ- إن شاء الله تعالى- عند مُرورك على خُطْبِ رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** والخلفاء الرّاشدين والتّابعين لهم بإحسانٍ ما يزيدك إيمانًا بهذا القول؛ فإنك إذا نظرت إلى خُطْبِ رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** - وهي قليلةٌ مُوجزةٌ جدًّا- تجدها دائرةً حول التّوحيد، ونَبَذَ العوائِدِ المُستَحكمة الضّارة بنظام العالم، أما بقيّة كلامه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فكان يدور حول تقريرِ الشّرع، وتبيينِ الحلال والحرام، والحثّ على مكارم الأخلاق التي لَمْ يَعْلَمُوهَا ولم يَتَعَوَّدُوهَا.

ولكلّ كلامه مُقتضياتٌ دَعَتْ إليه؛ فإنّ الكتب كانت تُبَعَثُ إلى الكفّار لدعوتهم إلى التّوحيد، وأمّهات الفضائل العامّة التي لا يختلف فيها العقلاء، وبعد أن دخل النّاسُ في دين الله أفواجًا، وأُشْرِبُوا في قلوبهم حُبّه، والتّفاني فيه، والغيرة عليه- لم تكن مُهمّةٌ معهم إلا بيانُ ما شرّع الله مِنَ الحلال والحرام، واقتلاعُ العوائِدِ المُستَحكمة فيهم؛ مخافة أن تهيج عليهم.

واقْتَدَاوْهُم به **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وإخلاصُهم في محبّته- كان حاجزًا مَنيعًا مِن



تَمَرَّدَ نفوسهم، خصوصًا بعد الإقناع التَّامَّ، وإيمانهم بعين اليقين.

كذلك كان شأنُ الخطبِ الدِّنيَّةِ؛ يُبين فيها ما تدعو الحاجةُ إليه من الأحكام التَّشريعيَّةِ المُناسِبةِ للحال، مع التَّذكيرِ باللهِ واليومِ الآخر؛ ليصابروا على مشاقِّ الجهادِ، واحتمالِ مكائِدِ الأعداءِ؛ لإِعلاءِ كلمةِ الله، والمُحافَظَةِ على دينه القويم، ولذلك كانت نفوسُهم مُتَشَوِّقَةً إلى الشهادة، زاهدةً في الدُّنيا، راغبةً في لقاء الله تعالى.

كذلك كان شأنُ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمَانَ - رضوان الله عليهم - لم تتغيَّرَ في عصرهم أساليبُ الوعظِ والخطابةِ بعد رسول الله ﷺ إلا في أحوالٍ خاصَّةٍ قليلة، دعت إليها الحاجةُ، كخطبهم في أولِ بَيعَتِهِمْ؛ لأنَّ لذلك ظرفًا خاصًّا يدعو إلى الاختلاف، وككلامِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَعَ أَهْلِ الرِّدَّةِ، وهكذا من الأحوال التي حدثت في المسلمين، ولم تكن على عهد رسول الله ﷺ.

ولذلك كانت خُطْبُهُمْ في الأحوال الخاصَّةِ قليلةً جدًّا، بخلاف الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فإنه خَطَبَ في فنونٍ مختلفة؛ لأنَّ الفتن كثرت بعد قتلِ عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما سبق، وكان التَّنَازعُ في الخلافةِ شديدًا، ولذلك أَكْثَرَ مِنَ الكلامِ في الجهادِ، وذمِّ المنافقين والمُنشَقِّين وأهلِ العصيان، وتكلَّم في الوَعظِ، وأكْثَرَ مِنَ ذَمِّ الدُّنيا والتحذير منها؛ كأنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَحَسَّ أَنَّ سَبَبَ هذه الانقلابات حُبُّ الدُّنيا، والغفلةُ عن الله تعالى؛ فكان يعظُ النَّاسَ بحسبِ أحوالهم، وما هم عليه من الأخلاقِ والأهواءِ.

وإنَّ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - أَوَّلَ مَنْ تَفَنَّنَ فِي أَسَالِيبِ الْوَعْظِ، وَوَسَّعَ مَادَّتَهُ، وَكُلَّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ الْأَنْفِعَالَاتِ التَّفَسِّيَّةِ الْحَقَّةِ، وَالِاحْتِكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الصَّادِقَةِ الَّتِي أَوْجِبَتْ تِلْكَ الْحِكَمَ الْبَالِغَةَ الْمُتَقَطَّةَ مِنْ يَنَابِيعِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَضَايَا الْعَقْلِ الصَّحِيحِ، وَقَدْ سَاعَدَ عَلَى إِبْرَازِهَا عَوَامِلُ الْفَسَادِ الْمُنتَشِرَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ كَبَّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَعَظَّمَ لَدَيْهِ، خُصُوصًا فِي شَبَابِ الْإِسْلَامِ، وَفِي عَصْرِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ، وَاسْتَنَارُوا بِنُورِهِ.

وإنَّ أَكْبَرَ مَادَّةٍ يَسْتَمِدُّ مِنْهَا الْخَطِيبُ بَعْدَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ خُطْبُ الْإِمَامِ عَلِيٍّ وَحِكْمُهُ.

وصفوة القول: إِنَّ الْخُطَابَةَ الدِّينِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ ابْتَدَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاسْتَمَرَّتْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَقَدْ اشْتَهَرَ فِيهَا بَعْدَ الْإِمَامِ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - أَبُو يُحْيَى عَبْدِ الرَّحِيمِ؛ الشَّهِيرُ بِابْنِ نَبَاتَةَ، وَلَهُ دِيْوَانُ خُطْبِ عُنِي بِشَرَحِهِ كَثِيرُونَ، وَاشْتَهَرَ بَعْدَهُ أَبُو الْقَاسِمِ الرَّمُوحِيُّ فِي كِتَابِ «أَطْوَاقِ الذَّهَبِ فِي الْمَوَاعِظِ وَالْخُطَبِ»، وَمِنْ مَشَاهِيرِ الْعَهْدِ الْآخِرِ الشَّيْخُ نُعْمَانُ الْأَلُوسِيُّ صَاحِبُ «غَالِيَةِ الْمَوَاعِظِ»، وَالشَّيْخُ شُعَيْبُ صَاحِبُ «الرَّوْضِ الْفَائِقِ».

أما الخطابة الإسلامية المدنية: فَأَوَّلَ مَنْ تَوَسَّعَ فِيهَا الْإِمَامُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثُمَّ بَعْضُ الْخُلَفَاءِ وَعُمَمَائِهِمْ؛ كَمُعَاوِيَةَ، وَيزِيدِ ابْنِهِ، وَالْمَنْصُورِ الْعَبَّاسِيِّ، وَيزَادِ بْنِ أَبِيهِ؛ عَامِلُ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْبَصْرَةِ، وَعُتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ؛ عَامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ، وَالْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفٍ؛ عَامِلُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ عَلَى الْعِرَاقِ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ



مُسْلِم؛ عامل يزيد بن مروان على خُراسان، وبعض الخوارج؛ كقَطْرِي بن الفُجاءة، وأبي حَمْزَةَ الشَّارِي.

ولكلّ منهم خطبٌ قليلةٌ تُروى في كتب الأدب، وقد ألقاها أصحابُها بداهةً، فهيَّجوا بها بعضَ الأهواء، لا سيَّما الغضبُ، والأنفةُ، والخوفُ، وسنذكر لك - إن شاء الله تعالى - نموذجًا من الخطب على اختلاف أنواعِها، تنفعك في مهمَّتكَ، والله الموفق.





obeikandi.com



حال الخطيب اليوم، وما يجب أن تكون عليه

إذا تتبعنا تاريخ الإسلام بعد القرون المشهود لها بالخير تجد الخطب الدنيئة في كل دولة قد تراجعت إلى الوراء، حتى بلغت على ما هي عليه الآن، من التأخر والانحطاط؛ فإنها لما كانت بيد الملوك كان أكبر مهمتهم حث الناس على الطاعة لهم، والاستنهاض إلى محاربة الأعداء بحق أو بغير حق، وقيل من ينظر في أحوال الناس وأمراضهم النفسية؛ فيعظهم من ناحيتها.

ولما تركها الملوك والأمراء؛ لترفعهم، أو لغيره، ووكّلوا أمرها إلى أئمة المساجد ساروا فيها على أهواء الملوك والأمراء - إلا من رحم الله - حتى سقطت في تلك المهواة، ووقعت في أيدي من لا يجيدها - ما عدا القليل من الخطباء الذين لم يبلغوا بها مكانها اللائق بها ولم يكف؛ لئدوره في دعوة العالم إلى الله.

وأصبحت الخطب اليوم عبارة عن كلمات تحفظ وتلقى، وكلها تدور حول الدنيا وذمها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعبارات مجملة لا تُغني عن أمراض النفوس شيئاً، ولا تصل إلى أعماق القلوب.

وما يسمعه الناس من الخطيب اليوم يسمعون غداً، وما يلقي في هذا

العام يدور في العام القابل، مع أَنَّ الواجب - كما عرفت - مراعاة الخطيب لمقتضى الحال، وإصلاح السامعين على قدر ما فيهم من الفساد، لا فَرْقَ بَيْنَ عالمٍ وجاهلٍ، وأميرٍ ومأمورٍ؛ شأن الهداية بالقرآن وشأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه والتابعين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وحيث كان الغرض من الخطابة الدينية دعوة الناس إلى الحق، وتحريك عواطفهم؛ لنشر الفضيلة، وإماتة الرذيلة، وإصلاح فساد قلوبهم، وتطهيرهم من الأمراض النفسانية - تعلم أَنَّ الخطبَ المُجْمَلَةَ لا تُفيد الجمهورَ؛ لأنَّها لم تقف على داءٍ، ولم تصف دواءً.

فمثل من يقول: إِنَّ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النَّعَمَ، وَإِنِ التَّعَلَّقَ بِالدُّنْيَا مُبْعِدٌ مِنَ اللَّهِ، وقد استحقَّ الناسُ العذابَ لظهور الفساد في البرِّ والبحر، ولو اسْتَقَمْنَا ما انتقمْنَا؛ ما للمساجد خربت، ما للقلوب قَسَتْ، ما للعيون لا تبكي، ما للقلوب لا تتأَلَّم؛ قد انتهكتُم الحُرُمَات، وَتَعَدَّيْتُمُ الْحُدُودَ، وَأَغَضَبْتُمُ الْجَبَارَ؛ فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، ولا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وما شاكل ذلك من مُجْمَلَاتِ الْقَوْلِ - مثل الطَّيِّبِ الَّذِي يَخْطُبُ الْجُمْهُورَ فِي قَوَاعِدِ الصَّحَّةِ الْعَامَّةِ، وفيهم الْمَسْلُولُ، وَالْمَحْمُومُ، وَالْمَجْدُومُ، وَالْمَصْدُوعُ، وَالْمَبْطُونُ، وَذُو الرَّمَدِ، وَالْبُولُ الدَّمَوِيُّ، وما شاكل ذلك من الأمراض الفتَّاكة التي تحتاج إلى دواء خاص، وعلاج خاص، وَحِمِيَّةٍ خَاصَّةٍ، ويقول: نَظَّفُوا غُرَفَ النَّوْمِ، وَقَلِّلُوا مِنَ الْغَدَاءِ، وَلَا تَأْكُلُوا الْمُغْلَظَاتِ، وَلَا تَبْصُقُوا فِي أَمَاكِنِ الْجَمَاعِ، وما شاكل ذلك من الْكَلِّيَّاتِ التي تَصْلُحُ لِلصَّحِيحِ كما تصلح للمريض؛ فهم لا يلتفتون إليها؛ لأنَّها أصبحت في حُكْمِ الْمَعْلُومِ بالضرورة، ولا تُؤثِّرُ فيهم أَقَلُّ التأثير؛ لأنَّها لم تَلْمَسْ موضع



الألم، فيُحس المريض، ولم تصف دواءً فيُعلق عليه الأمل، وينشط في العمل. لذلك يجب على الخطيب الديني أن يتكلم على الموضوع الخاص، ويحلله تحليلًا دينيًا أخلاقيًا اجتماعيًا، فيتكلم على الشرك بالله - مثلاً - وأنه نتيجة البله والسقوط من مرتبة الإنسان الحق، مهما كان صاحبه ذكيًا مخترعًا في الدنيا؛ لأن هذه الآثار الحقة والعوالم الكبيرة من لم يتأثر بها يكون كالأنعام، بل هو أضل، وذلك سر كون الله تعالى لا يغفر أن يُشرك به؛ لأن المُشرك به عطل كل حواسه عن النظر، وانكب في الشهوات على وجهه.

ثم إذا أراد أن يتكلم على الشرك الخفي الواقع في المسلمين، سواء جاء من طريق الرياء، أو من طريق الاعتماد على الأسباب، يقول: إن مثل هذا قد تغلب عليه الشيطان بخياله ورجله، فأضاع عليه الوقت بضيايع عمله؛ لأن من يعمل لغيره لا بد له من جزاء - إن كان عاقلًا - بل من يعمل لنفسه لا بد له من ثمرة يتوخاها، والناس والأسباب المادية لا تعين ولا تجازي بثواب، وقد انقطع مدد الله عنه؛ لأنه لم يعمل له، وهذا هو الخسران المبين، ثم يذكر آيات وأحاديث الشرك بنوعيه المندرة بسوء العاقبة.

ومن يخطب في الزنا: يذكُر مضارّه من اختلاط الأنساب، وتفريق الوحدة، وأن زوج الزانية مُعرّض لصرف ماله على أولاد الأجانب، وأن الزانية والزاني قد تعرّضا لهتك حرمة الزوج، واعتديا على حقه الشرعي، وهتكاً حرمة العائلات، وسجلاً عاراً لا ينمحي، وتشبّها بالحيوان العجماوي، حيث ينزو ذكره بأثناه في أي وقت، بلا شرط ولا قيد، فضلاً عن المضار البدنية التي قد تلحق

أحدهما؛ لأنَّ مَنْ اجترأ على الله يجترئ في سبيل شهوته على ضرر العباد، ثم يذكر آيات الزنا، وفظاعة عُقُوبَتِهِ، حيث كان فاحشةً وساء سبيلاً، ثم يُنقَرُ الناس من الزاني والزانية بأنهما وباءٌ على المجتمع؛ لأنَّ مَنْ اسْتَحْكَمَ فيه مرضٌ يودُّ أن يكون النَّاس مثله، والتنفير بابٌ عامٌّ ينبغي دخوله في كل المهلكات.

وبالجملة: يَنْظُرُ إلى شُعَبِ الإيمان شُعْبَةً شُعْبَةً، وأضدادها، فيتكلم على الشُعْبَةِ؛ كالصَّلاة، والصَّوم، والزَّكاة، والحجَّ، والصَّدق، والوفاء، والأمانة، والحياء، مُبَيِّنًا حِكْمَةَ مَشْرُوعِيَّتِهَا، وفوائدها التي تعود على صاحبها، وعلى المُجْتَمع الإنساني.

وكذلك يَعْمِدُ إلى المَنْهَيَّات، ويحلِّلُها على هذا النحو، إلا أنه يبدأ دائماً بالأهم بحيث ينظر إلى أَصْعَبِ الأَمْراضِ، وأشدِّها ضرراً في الأمة التي يخطب فيها، ويُعالِجُهُم بالطُّرُق المختلفة، والأساليبِ المُتَنَوِّعة، وهكذا يتدرَّج معهم في كل أمراضهم.

ويتكلم في أيامِ المَواسِم بما يَناسبُ الحال؛ فيتكلم في رمضان - مثلاً - على **وجوب الصَّوم**، ومشروعِيته - حتى في الأمم القديمة -، وحكمةِ المَشْرُوعِيَّةِ، وأنَّ الغرضَ منه تَهْذِيبُ التُّفُوسِ، وتمريئُها على تحملِ المشاقِّ؛ لأنَّ الإنسانَ مُعَرَّضٌ لذلك، وكَبَحَ جِمَاحِهَا إذا هاجت عليه في شهوةٍ مِنَ الشهوات، حيث استطاع كَبَحَ جِمَاحِهَا في أهم ما تحتاج إليه من الغذاء، ثم يُبَيِّنُ عَظِيمَ المَثُوبَةِ على هذا الجهاد العظيم، وما ورد فيه من أحاديث التَّرجِيبِ، ثم يَلْفِتُ الصَّائِمَ إلى العَظْفِ على الفقير، ويحرِّكُ فيه عاطفةَ الرَّحْمَةِ بقوله: انْظُرْ أَلَمْ الجُوعَ - وقد



تركت الأكل مختاراً عن عَزٍّ وَغَيٍّ - فكيف بالفقير التارك له طول حياته عن دُلِّ وفاقه؛ الرَّاحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم من في السَّماء.

ويتكلم في العيدين عن الأعمال المطلوبة؛ مِنْ صَدَقَةٍ، وَأُصْحِيَّةٍ، وتهليلٍ، وتكبيرٍ، وصلةٍ رَجِمٍ، وعطفٍ على بائسٍ، وإكرامٍ لیتيمٍ، وتعلقٌ بالله، وإصلاح بين الناس، وغير ذلك مما ورد، ويُحذّر الناس من العوائد المُحرّمة، والبدع القبيحة، التي تقع في العيدين على حسب مألوف السَّامعين.

ويُبين أنّ رضا الله في مثل هذه الأيام أكبر، وغضبه أعظم، ويضرب لهم الأمثال بأنّ لكل ملكٍ حالاتٍ غير معتادةٍ عند رَعِيَّتِهِ، يُعطي فيها الآلاف، ويُطلق المساجين، ويعفو عن المجرمين، كذلك أيام الله بالنسبة لِمَلِكِ المُلوكِ، وإنّ غضب المَلِكِ في أوقات الصّفاء يخرجهُ عن مألوف الغضبِ في بقية الأيام.

ينبغي أن يتكلم على صدقة الفِطْرِ في الجُمُعَةِ التي قبل العيد؛ ليحسن الناس أدائها في وقتها الأفضل على الوجه المطلوب.

وهكذا يتكلم في كل وقتٍ بما يناسبه، مع مراعاة حال السَّامعين وأمرّاضهم واستعدادهم.

ويتكلم في شهر ربيع على حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه بُعث رحمةً للعالمين، ويذكر ذلك بالدلائل الواضحة، ويُبين حقّه على أمّته، وأنّ هذا الخير وتلك السَّعادة التي فيها العالم كلها من مَدَرِهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،** ولذلك شُرِعت الصَّلَاة والتَّسليم عليه؛ قياماً له ببعض حقّه، ثم يذكر ما قاساه من الأهوال في

سبيل الدّعوة إلى الله تعالى.

على الجملة: يتكلم على سيرته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بعبارات واضحة، يفهمها العامة قبل الخاصة؛ لأنّ في ذلك تعلّق الناس بهذا الرسول العظيم، والتّمسّك بدينه، والتأدّب بأدبه.

ولا يكفي ذكر صفاته - كما يفعله بعض الخطباء اليوم - بل دائماً يشرح متاعبه الشّديدة، وآثاره الخالدة، وأخلاقه الكريمة المبنية على الكتاب والسّنة الصّحيحة، مُجانباً كلّ ما لم تثبت صحّته عند علماء الحديث.

إذا تكلم على وفاته فلا يُذكرها مُجرّدة، وإنما يتكلّم على ما لاقاه من الشّدائد في مرض الموت، مع الصبر، والرّضا، وأن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إذا لاقى مثل تلك الأهوال - وهو المغفور له، والمعصوم - فكيف بنا ونحن المُذنبون، ولا ندري ما يُفعل بنا؟!!

ثم يُنبّه العقول إلى الاحتفاظ بسيرته، وتعظيمه، ومحبته، والعمل على إحياء سنّته، وإطعام الطعام شُكراً لله على نعمة وجوده العظمى، وحث الناس على إكثار الصّلاة والسّلام عليه؛ لتكون قلوبهم دائماً معمورةً بمحبّته صلوات الله وسلامه عليه، ويُبين لهم أنّ المحبة دائماً تقتضي الجريّ على ما يهوى المحبوب، وأنّ العاصي كاذبٌ في دعواه حُبّ الله ورسوله.

وأول ما يخطب فيه تحذيرهم من البدع الضّارة بالدين، والعوائد التي لا أصل لها في الشّرع، خصوصاً ما يقع في المساجد، والمقابر، والأضرحة.

ويتكلّم على القرآن، وما يجب على الثّالي والسّامع له، مُبيناً أن القارئ إنما



يتكلم بلسان الله، وأن مَنْ أَعْرَضَ عن القارئ فإنما أعرض عن الله، وأنَّ مَنْ أخلَّ بالأدب عند سماعه فإنما يُخلُّ بالأدب بين يدي مَلِكِ الملوك، ويضرب لذلك الأمثال، ويذكر للناس ما في القرآن الكريم من القوانين العادلة والأخلاق الفاضلة، التي تَكْفُلُ لِمَنْ سار عليها سعادة الدِّين والدنيا، وأنَّ تِلَاوَتَهُ عِبَادَةٌ، وَسَمَاعُهُ عِبَادَةٌ، عندها تنزل الرحمت، وأنَّ الخضوعَ عند سماعه والتأثر به خضوعٌ لله ولجلاله، وآيةُ الفلاح والهداية.

وعلى الجملة: يحضُّ الناس على احترام القرآن، ويحذِّرهم من انتهاك حرمة؛ بالتَّعَيِّي به، أو الإعراض عنه، ثم يلفت الناس إلى تعلُّمه، وتفهُمه؛ لِتَكْبَرِ عقولهم، وتستنير أَبْصَارُهم، ويحثُّ المسلمين على المحافظة عليه بحفظ طائفةٍ كثيرةٍ له في كل عصرٍ، محافظةً على ينبوع الملة، وأساس السعادة في الدِّين والدنيا.

وأنَّ مَنْهَلَكَ الصافي في هذا كله كُتِبَ السُّنَّةُ الصَّحِيحة، لا سيما كتاب: الإيمان، والعلم، والمغازي، وفضائل القرآن، وكتب حكمة التشريع.

وإياك أن تَذْكُرَ شَيْئًا مِنَ الآثار التي لم تَنْبُتْ صِحَّتُهَا في مثل هذه المقامات، وإلا كنت هدفًا للطَّعن عليك في معلومك، والشكَّ في طريقك، وما أغناك عن هذا!

فعلى هذا المنهاج تكون الخطبُ الدينيَّة؛ حتى تُفيد فائدتها المقصودة منها، وبالله تعالى التوفيق.



الخاتمة

في نماذج من الخطب والمواعظ في العصور الإسلامية

نذكر لك في هذه الخاتمة جملةً من الخطب البليغة؛ لتكون لك نبراساً تهتدي به، ومثالاً صالحاً تنسج على منواله إن شاء الله تعالى، ولا بأس أن نزيدك فيها خطبتين أجمع علماء الأدب على متانتها: خطبة أكرم بن صيفي، وخطبة قس بن ساعدة؛ إكمالاً للفائدة.





خطبة أكثم بن صيفي

لَمَّا جَمَعَ قَوْمَهُ وَخَطَبَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَدْ كَانَ أَرْسَلَ ابْنَهُ لِيُشَافِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَجِيءَ لَهُ بِخَبْرِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ ابْنُهُ إِلَيْهِ جَمَعَ قَوْمَهُ وَقَالَ: «يَا بَنِي تَمِيمٍ، لَا تُحْضِرُوا لِي سَفِيهًا؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَسْمَعُ يَحَلِّ، إِنَّ السَّفِيهَ يُوهِنُ مَنْ فَوْقَهُ وَيُتَبِّبُ⁽¹⁾ مَنْ دُونَهُ، لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ، كَبُرَتْ سِنِّي، وَدَخَلْتَنِي زَلَّةً؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنِّي حُسْنًا فَاقْبَلُوهُ، وَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنِّي غَيْرَ ذَلِكَ فَقَوِّمُونِي أَسْتَقِمَّ.

إِنَّ ابْنِي شَافَهُ هَذَا الرَّجُلَ مُشَافَهَةً، وَأَتَانِي بِخَبْرِهِ وَكَتَابِهِ؛ يَأْمُرُ فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَأْخُذُ فِيهِ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَيَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَلَعَ الْأَوْثَانَ، وَتَرَكَ الْحَلِيفَ بِالتَّيْرَانِ، وَقَدْ حَلَفَ ذَوُو الرُّأْيِ مِنْكُمْ أَنَّ الْفَضْلَ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَأَنَّ الرُّأْيَ تَرَكُ مَا يَنْهَى عَنْهُ.

إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِمَعُونَةِ مُحَمَّدٍ وَمُسَاعَدَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ أَنْتُمْ، فَإِنْ يَكُنِ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا فَهُوَ لَكُمْ دُونَ النَّاسِ، وَإِنْ يَكُنِ بَاطِلًا كُنْتُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْكَفِّ عَنْهُ، وَالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ أُسْقُفُ نَجْرَانَ يَحْدُثُ بِصِفَتِهِ، وَكَانَ سُفْيَانُ بْنُ مُجَاشِعٍ يُحَدِّثُ بِهِ قَبْلَهُ، وَسَمَى ابْنَهُ مُحَمَّدًا؛ فَكُونُوا فِي أَمْرِهِ أَوَّلًا، وَلَا تَكُونُوا

(1) يُهْلِكُ. [م].

آخرًا.

اثتوا طائعين قَبْلَ أَنْ تَأْتُوا كَارِهِينَ، إِنَّ الذي يدعو إليه محمدٌ لو لم يكن دينًا كان في أخلاق الناس.

أطيعوني واتبِعوا أمري، أسأل لكم أشياء لا تُنزع منكم أبدًا، وتُصبحوا أعزَّ حيٍّ في العرب، وأكثرهم عددًا، وأوسعهم دارًا؛ فإني أرى أمرًا لا يجتنبه عزيزٌ إلا ذلًّا، ولا يلزمه ذليلٌ إلا عزًّا؛ إِنَّ الأولَ لم يدع للآخر شيئًا، وهذا أمرٌ له ما بعده، (ولعله يُريد الحِصْبَ)؛ مَنْ سَبَقَ إليه غمر المعالي، واهتدى به القالي، والعزيمةُ حزمٌ، والاختلافُ عجزٌ⁽¹⁾.

ومن خطبه المشهورة: «يا بني تميم، لا يَفُوتَنَّكُمْ وَعَظِي إن فاتكم الدهرُ بُنْصَجي، إِنَّ بينَ في وصدري لكلامًا لا أجِدُ له مَوَاقِعَ إلا أَسْمَاعَكُمْ، ولا مَقَارًا إلا قلوبكم، فتلقوه بأَسْمَاعٍ مُصْغِيَةٍ، وقلوب واعيةٍ تحمدوا مغبته:

الهوى يَقْظَانِ، والعقل راقِدٌ، والشهواتُ مُطْلَقَةٌ، والحزم معقولٌ، والتَّفَسُّ مُهْمَلَةٌ، والرَّوْيَةُ مُقَيَّدَةٌ⁽²⁾، ومن جهة التواني وترك الروية يَتَلَفُ الحَزْمُ، ولم يندم المشاورُ مُرْشِدًا، والمُسْتَبَدُّ برأيه موقوفٌ على مداحض الزَّلَلِ، وَمَنْ سَمِعَ سُمْعَ به، ومصارع الرجال تحت بُروقِ الطَّمَعِ، ولو اعتبرت مواقع المِخَنِ ما وجدت إلا في معاقل الكرام، وعلى الاعتبارِ طريقُ الرَّشَادِ، وَمَنْ سَلَكَ الجَدَّ أَمِنَ

(1) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (2/ 367).

(2) الروية: التَّفكير مع التَّأني. ومقيدة: مَرَبُوطَةٌ.



العِثَار (1).

يا بني تميم، الصَّبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر التَّدامة، ومَنْ
 جعل عِرْضَهُ دون ماله استهدف للذَّم، وكَلُمُ اللسان أنكى من كَلُمِ السَّنان،
 والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإن نَجَمَتْ فهي أسدٌ يحرب، أو نارٌ تلهب،
 وإنَّما النَّاصح اللبيب دليلٌ لا يجوز، ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطَّعن
 والضَّرب» (2).



(1) العِثَار: التَّعَثُّر والسَّقُوط.

(2) من حُطْبَةِ طَوِيلَةٍ يُوصِي فِيهَا أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي بَنِيهِ وَرَهْطَهُ. انظر «نثر الدر» لأبي سعد الآبي (6/

خطبة قس بن ساعدة الأيادي

«يا أيُّها النَّاسُ، اسْمَعُوا، وَعُودُوا، وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَانْتَفِعُوا: إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، مَطَرٌ وَنَبَاتٌ، وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ، وَأَبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ، وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ، جَمْعٌ وَشَتَاتٌ، وَأَيَّاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ.

إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبْرًا، وَإِنَّ فِي الْأَرْضِ لَعِبْرًا، لَيْلٌ دَاجٌ⁽¹⁾، وَنَهَارٌ سَاجٌ⁽²⁾، وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فَجَاجٍ، وَبَحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ.

مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ؟! أَرْضُوا بِالْمَقَامِ فَأَقَامُوا، أَمْ تُرْكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا؟!

أَفَسَمَ قُسٌّ قَسَمًا حَقًّا لَا خَائِنًا فِيهِ وَلَا آثَمًا: إِنَّ لِلَّهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَنَبِيًّا قَدْ حَانَ حِينُهُ، وَأَظْلَكُمْ أَوَانُهُ، وَأَدْرَكَكُمْ إِبَانُهُ، فَطُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَهُ فَآمَنَ بِهِ وَهَدَاهُ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَالَفَهُ وَعَصَاهُ.

ثم قال: تَبَّ لَأَرْبَابِ الْغَفْلَةِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ!

يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ، أَيُّنَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ؟ وَأَيُّنَ الْمَرِيضِ وَالْعُودَادِ؟ وَأَيُّنَ الْفَرَاعِنَةِ

(1) مُظْلَم.

(2) مُضِيءٌ نَشِيطٌ.



الشّداد؟ أين من بَنَى وشيّد؟ وزخرف ونجّد؟ أين المال والولد؟ أين مَنْ بَعَى وطمع؟
وجمع فأوعى؟ وقال: أنا ربُّكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثرَ منكم أموالاً؟ وأطول
منكم آجالاً؟!

طَحَنَهُم الدهرُ بِكُلِّكَلِّهِ؛ وَمَزَّقَهُم بِطَوْلِهِ! فتلك عِظامهم بالية، وبيوتهم
خالية، عَمَرَتْهَا الذُّنُوبُ العاوية.

كَلَّا، بل هو الله الواحدُ المَعْبُودُ، ليس بوالدٍ ولا مولود، ثم أنشأ يقول:

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ	نَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا	لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا	يَمُ الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَيَّ	ي وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَابِرُ
أَفَقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا	لَهُ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ (1)



(1) ذكرها الجاحظ في «البيان والتبيين» (ص 163)، وقال: «ولإياد في الخطب خصلة ليست
لأحدٍ من العرب؛ لأنَّ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وآله هو الذي روى كلام قُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ
وموقفه على جملة بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عَجِبَ مِنْ
حُسْنِهِ، وأظهر مِنْ تَصَوُّبِهِ. وهذا إسنادٌ تُعْجِزُ عَنْهُ الْأُمَانِي، وتنقطع دونه الآمال. وإنَّما وَقَّعَ
اللهُ ذلكَ الكلامَ لِقُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ لاحتِجَاجِهِ لِلتَّوْحِيدِ، ولإظهاره معنى الإخلاص، وإيمانه
بالبعث، ولذلك كان خطيبَ العرب قاطبةً».

خُطْبَةٌ مِنْ خُطْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَشْرَ كَلِمَاتٍ، حَمِدَ اللَّهَ، وَاثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لَكُمْ مَعَالِمَ فَانْتَهُوا إِلَى مَعَالِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ نَهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نَهَايَتِكُمْ؛ إِنَّ الْمُؤْمِنَ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ: بَيْنَ عَاجِلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِهِ، وَبَيْنَ آجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِي مَا اللَّهُ قَاضٍ فِيهِ؛ فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَمِنْ الشَّيْبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَمِنْ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَوْتِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ» (1).

ومن خطبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِ نَاقِدٍ كُتِبَ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِ نَاقِدٍ وَجَبَ، وَكَأَنَّ الَّذِي تُشَيِّعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّهُمُ أَجْدَانَهُمْ، وَنَأْكُلُ مِنْ ثَرَايِهِمْ كَأَنَّا مُخْلَدُونَ بَعْدَهُمْ، وَنَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ.

طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ.

(1) أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (13 / 153)، برقم (10097) من حديث الحُسَيْنِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ عَنْهُ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ فِي «تَخْرِيجِهِ لِأَحَادِيثِ الْإِحْيَاءِ» (1 / 1105): «فِيهِ انْقِطَاعٌ».



طوبى لِمَن أنفق مَالاً اكتسبه من غير معصية، وجالَسَ أهلَ الفقه والحكمة، وخَالَطَ أهلَ الدُّلِّ والمَسْكَنَةِ.

طوبى لمن أنفق الفضلَ مِن مَالِهِ، وأمسك الفضلَ مِن قَوْلِهِ، وَوَسَّعَتْهُ السُّنَّةُ، ولم تَسْتَهْوِهِ البِدْعَةُ»⁽¹⁾.

(1) أخرجه البزار في «مسنده» (12 / 348) عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى بهذا اللفظ عن أنسٍ إلا من هذا الوجه، ووجه آخر ضعيف، رواه أبان بن عياش، عن أنسٍ».

وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (ص 95): «أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن عليٍّ بسندٍ ضعيفٍ، والبزارُ من حديث أنسٍ أوَّل الحديث وآخره، والطبرانيُّ والبيهقيُّ من حديث ركب المصري وَسَطَ الحديث، وكلُّها ضعيفةٌ».

وَمِنْ خُطْبِهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُطْبَةُ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَهِيَ:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ فَخَّمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا؛ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَحْكُمٍ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَسْتَفْتِيحُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

أَمَّا بَعْدُ؛ أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا مِنِّي أُبَيِّنُ لَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا، فِي مَوْقِفِي هَذَا:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَد.

فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا.

وَإِنَّ رَبَّ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ رَبِّ أَبَدٍ بِهِ رَبِّي الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.



وإنَّ دِمَاءَ الجاهلية موضوعةٌ، وإنَّ أوَّلَ دِمٍ نبدأ به دَمُ عامِرِ بنِ ربيعةَ بنِ الحَرْثِ بنِ عبدِ المطلب.

وإنَّ مآثرَ الجاهلية موضوعةٌ غيرَ السَّدانةِ والسَّقايةِ ⁽¹⁾.
والعمدُ قودٌ ⁽²⁾.

وشبه العمد: ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائةٌ بعيرٍ؛ فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيُّها النَّاسُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَّبِعُ أَنْ يُعْبَدَ فِي أَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحْتَقِرُونَ فِي أَعْمَالِكُمْ.

أيُّها النَّاسُ، ﴿إِنَّمَا أَلْهَى زِيَادَةً فِي الْكُفْرِ يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: 37].

وإنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.

وإنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ، يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ؛ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ، وَوَاحِدٌ فَرْدٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمِ، وَرَجَبُ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ؛ أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

أيُّها النَّاسُ، إِنَّ لِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ، لَكُمْ

(1) السدانة: خدمة البيت الحرام وعمارته. والسقاية: خدمة الحجيج.

(2) أي: قصاص.

عليهن ألا يوطئن فُرُشَكُمْ غَيْرُكُمْ، ولا يُدخلن أحدًا تَكَرُّهُنَّ بيوتكم إلا بإذْنِكُمْ، ولا يأتين بفاحشةٍ، فإن فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قد أَذَنَ لَكُمْ أَنْ تَعْضُلُوهُنَّ، وتهجروهنَّ في المَضَاجِعِ، وتضربوهن ضربًا غيرَ مُبَرِّجٍ؛ فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رِزْقُهُنَّ وكِسوتُهُنَّ بالمعروف.

وإنما النساء عندكم عَوَانٌ، لا يملكن لأنفسهن شيئًا؛ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمُ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ؛ فاتقوا الله في النساءِ، واستوصوا بهنَّ خيرًا، أَلَا هل بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ، ولا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ مَالُ أَخِيهِ إِلَّا عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ مِنْهُ، أَلَا هل بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

فَلَا تَرْجِعَنَّ بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ؛ فَإِنِّي قد تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِن أَخَذْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ؛ كِتَابَ اللَّهِ، أَلَا هل بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لآدَمَ، وَأَدَمُ مِنْ تَرَابٍ.

أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، وليس لعربيٍّ على عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَلَا هل بَلَغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

قالوا: نعم.

قال: «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قد قَسَمَ لِكُلِّ وَارِثٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْمِيرَاثِ، ولا يجوز



لوارث وصية في أكثر من الثلث.

والولد للفراش، وللعاهر الحجر؛ مَنْ ادَّعى⁽¹⁾ إلى غير أبيه، أو تَوَلَّى غير مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لعنةُ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجمعين، لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ، ولا عَدْلٌ، والسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ»⁽²⁾.

وهذه أطول خطبةٍ خَطَبَهَا رسولُ اللهِ ﷺ.

والتَّأْظُرُ فِيهَا يَحْكُمُ بِأَنَّهَا فَذْلُكَ التَّشْرِيعُ⁽³⁾؛ لما اشتملت عليه من أُمَمَاتِ الْمَسَائِلِ، وَالْكَلِّيَّاتِ الْعَامَّةِ لِلدِّينِ.

وَأَكْثَرُ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ التَّحْذِيرُ مِنَ الْعَوَائِدِ الْمُسْتَحْكِمَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَالتَّنْفِيرِ مِنْهَا، وَتَنْبِيهُ الْعُقُولِ إِلَيْهَا بِأَعْظَمِ الْمُؤَثَّرَاتِ، حَيْثُ يَقُولُ - بَعْدَ تَقْرِيرِ الْحِكْمَةِ، أَوِ الْأَحْكَامِ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ».



(1) ادعى: انتسب.

(2) أخرج مسلمٌ أجزاء منها (1218) في حديث حجة الوداع من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، والدارمي (1892)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 604).

(3) الْفَذْلُكَةُ: هِيَ خُلَاصَةٌ مَا فُضِّلَ، أَوْ مُجْمَلُهُ.

خُطْبَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ (1)

حَمْدَ اللَّهِ، وَأَثْنِي عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ، ثُمَّ قَالَ:

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي وَلِّيتُ عَلَيْكُمْ، وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَسَنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا.

وَاعْلَمُوا أَنَّ أَكْبَسَ الْكَيْسِ الثَّقَى، وَأَنَّ أَحَقَّ الْحَقِّ الْفُجُورُ، وَأَنَّ أَقْوَامَكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخِذَ لَهُ بِحَقِّهِ، وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخِذَ مِنْهُ الْحَقُّ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ؛ فَإِنْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى حَقٍّ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ رَأَيْتُمُونِي عَلَى بَاطِلٍ فَرُدُّونِي، وَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ فِيكُمْ، فَإِذَا عَصَيْتُهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ؛ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ» (2).

وهذه الكلمة مجمل الطريقة التي سار عليها في خلافته.

(1) كانت الخطبة بعد تمام البيعة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يُظهرون بها الخطبة التي سيُسيرون عليها في سياسة أمتهم إجمالاً.

(2) أخرجها ابن سعد في «الطبقات المبرى» (3/ 136)، وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام (2/



ذَكَرَ لَهُمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ إِعَانَتُهُ، وَمَا يَجِبُ لَهُمْ، وَهُوَ رَدُّهُ إِذَا صَدَفَ
عَنِ الْحَقِّ، وَفِي هَذَا ضَمَانٌ لِحُرِّيَّتِهِمْ فِي الْقَوْلِ، أَعْطَاهُمْ عَهْدًا أَنْ يَعْدَلَ فِيهِمْ فَلَا
يَمْنَعُهُ ضَعْفُ الْمَظْلُومِ أَنْ يُنْصِفَهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَا تَمْنَعُهُ قُوَّةُ الظَّالِمِ أَنْ يُنْصِفَ
مِنِ الْمَظْلُومِ، أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ خَلِيفَةٌ لِيُنْفِذَ الشَّرِيعَةَ، فَإِذَا عَدَلَ عَنْهَا فَلَا طَاعَةَ لَهُ
عَلَيْهِمْ.



خطبة أخرى له - أيضاً - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

«الحمد لله الذي أَعَزَّنَا بالإسلام، وأَكْرَمَنَا بالإيمان، وَرَحَّمَنَا بِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَهَدَانَا بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَجَمَعَنَا بِهِ مِنَ الشَّتَاتِ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَنَصَرَنَا عَلَى عَدُونَا، وَمَكَّنَ لَنَا فِي الْبِلَادِ، وَجَعَلَنَا بِهِ إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ؛ فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَاسْأَلُوهُ الْمَزِيدَ فِيهَا، وَالشُّكْرَ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَقَكُمْ الْوَعْدَ بِالنَّصْرِ عَلَى مَنْ خَالَفَكُمْ، وَإِيَّاكُمْ وَالْعَمَلَ بِالْمَعَاصِي، وَكَفَرَ النِّعْمَةَ، فَقَلَّمَا كَفَرَ قَوْمٌ بِنِعْمَةٍ وَلَمْ يَنْزِعُوا إِلَى التَّوْبَةِ إِلَّا سُلِبُوا عِزُّهُمْ، وَسُلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ دَعْوَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَجَمَعَ كَلِمَتَهَا، وَأَظْهَرَ فَلَجَهَا⁽¹⁾، وَنَصَرَهَا وَشَرَّفَهَا؛ فَاحْمَدُوهُ - عِبَادَ اللَّهِ - عَلَى نِعَمِهِ، وَاشْكُرُوهُ عَلَى آلائِهِ، جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ»⁽²⁾.

(1) الْقَلْبُج: الْفَوْز وَالظَّفَر.

(2) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربّه (4 / 154).



وله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أشار عليه الصَّحَابَةُ بعدم جهادِ أهل الرِّدَّةِ، وأن لا طاقة له بالعرب

بعد أن حمّد الله، وأثنى عليه، وكبّر، وصلى على النبي ﷺ، أقبلَ
على الناس، وقال:

«أيُّها الناس، مَنْ كان يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قد مات، وَمَنْ كان يَعْبُدُ اللَّهَ
فإِنَّ اللَّهَ حيٌّ لا يموت، إن كَثُرَ أَعْدَاؤُكُمْ وَقَلَّ عَدَدُكُمْ، رَكِبَ الشَّيْطَانُ
منكم هذا المَرْكَبَ، والله ليظهرن هذا الدِّينَ على الأديان كُلِّها ولو كره
المشركون، قوله الحقُّ ووعدُه الصِّدْقُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨) [الأنبياء: 18]، ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢٤٩) [البقرة: 249].

أيُّها النَّاسُ، لو أُفردت مِن جميعكم لجاهدتُ في الله حقَّ جهاده حتى
أبلغ من نفسي عُذْرًا، أو أقتل قتيلاً.

والله - أيُّها النَّاسُ - لو مَنَعُونِي عقلاً لجاهدْتُهُم عليه، واستعنتُ بالله
خير مُعينٍ، والناظر لها يرى أَنَّها آيةُ الشَّجَاعَةِ وَصِدْقُ العَزِيمَةِ (1).

(1) انظر «الكامل في اللغة» للمبرد (1/ 306)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (2/ 11).

خطبته حين إسناده الخلافة لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

«أَيُّهَا النَّاسُ، احذروا الدنيا؛ فإنها غَرَّارَةٌ، وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبُّوها؛ فَيُحِبُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تُبْغِضُ الْآخَرَى، وَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ أَمْلَكُ بِنَاءٍ لَا يَصْلَحُ آخِرُهُ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهُ، وَلَا يَتَحَمَلُهُ إِلَّا أَفْضَلُكُمْ مَقْدَرَةً، وَأَمْلَكُكُمْ لِنَفْسِهِ، وَأَشَدُّكُمْ فِي حَالِ الشَّدَّةِ، وَأَسْلَسُكُمْ فِي حَالِ اللَّيْنِ، وَأَعْلَمُكُمْ بِرَأْيِ ذَوِي الرَّأْيِ، لَا يَتَشَاغَلُ بِمَا لَا يَعْنِيهِ، وَلَا يَحْزَنُ بِمَا يَنْزِلُ بِهِ، وَلَا يَسْتَحِي مِنَ التَّعَلُّمِ، وَلَا يَتَحَيَّرُ عِنْدَ الْبَدِیْهِةِ، قَوِيٌّ عَلَى الْأُمُورِ، لَا يَجُوزُ لَشَيْءٍ مِنْهَا حَدٌّ بَعْدُوان وَلَا تَقْصِيرٌ، يَرْصُدُ لِمَا هُوَ آتٍ عَتَادُهُ» (1) من الحذر والطاعة - وهو عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»، ثم نزل، فأجمع الكلُّ على مُبَايَعَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عُرِفَ أنه قد فَرَغَ من خُطْبَتِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ زَمَانِي آخِرَهُ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ، وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ لِقَائِكَ» (2).

(1) العتاد: ما يُهَيَّأ للأمر. [م].

(2) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (44 / 256)، وانظر «تاريخ المدينة» لابن شبه (2) /



خطبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ

صَعِدَ المنبر، فَحَمِدَ الله، وَأَثْنَى عليه وَصَلَّى على نَبِيِّهِ، ثم قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي دَاخِعٌ فَأَمَّنُوا: اللَّهُمَّ إِنِّي شَدِيدٌ فَلَيْتِي (1) لأهل طاعتِكَ بموافقة الحقِّ ابتغاءَ وجهِكَ والدَّارِ الآخرة، وارزُقني الشَّدَّةَ على أعدائِكَ وأهلِ الدَّعَاةِ (2) والتَّفَاق، من غير ظُلْمٍ مِنِّي لهم ولا اعتداءٍ عليهم.

اللَّهُمَّ إِنِّي شَحِيحٌ فَسَخِّنِي فِي نَوَائِبِ المعروف (3)، قَصْدًا من غير سَرَيفٍ، ولا تَبْذِيرٍ، ولا رِيَاءٍ، ولا سُمْعَةٍ، واجْعَلْني أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَكَ والدَّارَ الآخرة.

اللَّهُمَّ ارزُقني خَفَضَ الجَنَاحِ، وَلِينَ الجَانِبِ للمُؤْمِنِينَ.

اللَّهُمَّ إِنِّي كَثِيرُ الغَفْلَةِ والنَّسيانِ؛ فَأَلْهَمْنِي ذِكْرَكَ على كُلِّ حالٍ، وَذِكْرَ الموتِ في كُلِّ حينٍ.

اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ عن العملِ بطاعتِكَ؛ فَأَرْزُقْنِي النِّشَاطَ فيها، والقُوَّةَ عليها بالثَّيَّةِ الحَسَنَةِ التي لا تكون إِلَّا بِفَضْلِكَ وتَوْفِيقِكَ.

(1) أي: امنحني الحلم واللين.

(2) أهل الفساد والخبث والفسق.

(3) المصائب التي تحدث بسبب الأعمال المحمودة.

اللَّهُمَّ ثَبِّتْنِي بِالْيَقِينِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَذَكَرَ الْمَقَامَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَالْحَيَاءِ مِنْكَ،
وَارْزُقْنِي الْخُشُوعَ فِيمَا يُرْضِيكَ عَنِّي، وَالْمَحَاسِبَةَ بِنَفْسِي، وَإِصْلَاحَ السَّاعَاتِ ⁽¹⁾،
وَالْحَذَرَ مِنَ الشُّبُهَاتِ.

اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي التَّفَكِيرَ وَالتَّدَبُّرَ لِمَا يَتْلُوهُ لِسَانِي مِنْ كِتَابِكَ، وَالْفَهْمَ لَهُ،
وَالْمَعْرِفَةَ بِمَعَانِيهِ، وَالتَّنَظَّرَ فِي عَجَائِبِهِ، وَالْعَمَلَ بِذَلِكَ مَا بَقِيَتْ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ⁽²⁾.

(1) أي: إصلاح أوقاتي واستعمالها في النافع ديناً ودنيا.

(2) انظر «جواهر الأدب» للهاشمي (2/ 114، 115).



وَمِنْ خُطْبِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ لَا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ خَيْرَكُمْ لَكُمْ، وَأَقْوَاكُمْ عَلَيْكُمْ، وَأَشَدَّكُمْ اسْتِظْلَاعًا بِمَا يَنْبُؤُ مِنْ مُهِمِّ أُمُورِكُمْ مَا تَوَلَّيْتُ ذَلِكَ مِنْكُمْ، وَلَكِنِّي عُمَرُ مُهِمًّا مُحْزَنًا أَنْتَظَرُ مُوَافَقَةَ الْحِسَابِ بِأَخْذِ حُقُوقِكُمْ؛ كَيْفَ أَخْذُهَا؟ وَوَضْعُهَا؟ أَيْنَ أَضَعُهَا؟ وَبِالسَّيْرِ فِيكُمْ؛ كَيْفَ أُسِيرُ؟ وَرَبِّي الْمُسْتَعَانُ؛ فَإِنَّ عُمَرَ أَصْبَحَ لَا يَثِقُ بِقُوَّةٍ وَلَا حِيلَةٍ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِرَحْمَتِهِ وَعَوْنِهِ وَتَأْيِيدِهِ»⁽¹⁾.

(1) من خطبته رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُ حين تولى. أخرجها الطبري في «تاريخه» (4 / 214، 215)، وانظر «أنساب الأشراف» للبلاذري (10 / 363).

ومن خطبه أيضاً

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُحْتَرَمٌ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ، وَبَلَاغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ؛ فَارْحَمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ، وَرَاقَبَ رَبَّهُ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ، بئسَ الجار الغني يأخذك بما لا يُعْطِيكَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنْ أَبَيْتَ لَمْ يَعْذِرْكَ.

إِيَّاكُمْ وَالْبِطْنَةَ؛ فَإِنَّهَا مَكْسَلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ، مُفْسِدَةٌ لِلْجِسْمِ، وَمُؤَدِّيَةٌ إِلَى السَّقَمِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ فِي قُوتِكُمْ فَهُوَ أَبْعَدُ مِنَ السَّرَفِ، وَأَصَحُّ لِلْبَدَنِ، وَأَقْوَى عَلَى الْعِبَادَةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَنْ يَهْلِكَ حَتَّى يُؤْثِرَ شَهْوَتَهُ عَلَى دِينِهِ» (1).

وكان آخر كلام عمر الذي يُعرفُ به أنه فرغ من خطبته: «اللَّهُمَّ لَا تَدْعِنِي فِي غَمْرَةٍ (2)، وَلَا تَأْخُذْنِي عَلَى غِرَّةٍ، وَلَا تَجْعَلْنِي مِنَ الْغَافِلِينَ» (3).

وكفاه شرفاً قولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ

(1) أخرجه ابنُ دريد في «المجتنى» (ص 16)، وابن أبي الدنيا في «الجوع» (ص 72) مختصراً.

(2) الغمرة: الانهماك في الباطل، والعماية والتخبط.

(3) أخرجه ابنُ أبي شيبة في «مصنفه» (6/ 66)، عن ابن فضيل، عن ليث، عن سليم بن حنظلة، عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسنده ضعيف؛ فإنَّ فيه ليثاً، وانقطاعاً بين سليم وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



عُمَرَ⁽¹⁾.



(1) أخرجه أبو داود (2962)، وابن ماجه (108) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ»، وأخرجه الترمذي (3682) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ»، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (2908).

خُطْبَةُ عِثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ مَا بُويعَ بِالْخِلَافَةِ

صَعِدَ المنبرَ، وَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، اتَّقُوا اللَّهَ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا - كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ - لَعِبٌّ وَلَهْوٌ، وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ، وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ⁽¹⁾، فَخَيْرُ الْعِبَادِ فِيهَا مَنْ عَصِمَ، وَاسْتَعَصَمَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ، وَقَدْ وُكِّلَتْ مِنْ أَمْرِكُمْ لِعَظِيمٍ، لَا أَرْجُو الْعَوْنَ عَلَيْهِ إِلَّا مِنَ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُوفِّقُ لِلْخَيْرِ إِلَّا هُوَ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»⁽²⁾.

وخطب حينما نَقِمَ النَّاسُ عَلَيْهِ تَقْدِيمَ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَقَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةً، وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ عَاهَةٌ، وَإِنَّ آفَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَعَاهَةُ هَذِهِ النِّعْمَةِ عِيَّابُونَ طَعَّانُونَ، يُظْهِرُونَ لَكُمْ مَا تُحِبُّونَ، وَيُخْفُونَ مَا تَكْرَهُونَ، يَقُولُونَ لَكُمْ وَتَقُولُونَ، طَغَامٌ⁽³⁾ مِثْلَ النَّعَامِ، يَتَّبِعُونَ أَوَّلَ نَاعِقٍ، أَحَبُّ مَوَارِدِهِمْ إِلَيْهِمْ

(1) قَالَ اللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أَجْعَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: 20].

(2) ذَكَرَهَا بِنَحْوِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الطَّبْرِيُّ فِي «تَارِيخِهِ» (4 / 243)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ» (10 / 215).

(3) الطَّغَامُ: أَوْغَادُ النَّاسِ.



التَّارِحَ (1)، أما- والله- يا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَقَدْ أَفْرَزْتُمْ لَابِنِ
الْحَطَّابِ بِأَكْثَرِ مِمَّا نَقَمْتُمْ عَلَيَّ، وَلَكِنَّهُ وَقَمَكُمْ (2) وَقَمَعَكُمْ وَزَجَرَكُمْ زَجَرَ
التَّعَامِ الْمُخْزَمِ (3)، حَتَّى لَا يَجْتَرِئَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَمْلَأُ بَصْرَهُ مِنْهُ، وَلَا يَشِيرُ بِطَرْفِهِ
إِلَّا مُسَارِقَةً إِلَيْهِ.

أما- والله- إني لَأَقْرَبُ نَاصِرًا، وَأَعَزُّ نَفَرًا، وَأَقْمَن- إِنْ قُلْتُ: هَلُمَّ- أَنْ
تَجَابَ دَعْوَتِي مِنْ عُمْرٍ.

هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ حَقُوقِكُمْ شَيْئًا؟! فَمَا لِي لَا أَفْعَلُ فِي الْحَقِّ مَا أَشَاءُ؟ إِذَا
فَلِمَ كُنْتُ إِمَامًا؟!

أما- والله- مَا عَابَ عَلَيَّ مَنْ عَابَ مِنْكُمْ أَمْرًا أَجْهَلُهُ، وَلَا أَتَيْتُ الَّذِي
أَتَيْتُ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ» (4).



(1) البعيد. [م].

(2) فَهَرَكُمْ وَأَذَلَّكُمْ. [م].

(3) مَثْقُوبِ الْأَنْفِ. [م].

(4) انظر «تاريخ الطبري» (4/ 338، 339).

ومن خطب الإمام علي رضي الله عنه حين بُويع بالخلافة

قال: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًّا، بَيَّنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخَذُوا بِالْخَيْرِ، وَدَعَوْا الشَّرَّ.

الفرائض أَذُوها إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّيْكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ.

إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَمًا غَيْرَ مَجْهُولَةٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ كُلِّهَا، وَسَدَّدَ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ، فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ، لَا يَحِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ؛ فَأَذُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ، وَخَاصَّةً أَحَدَكُمْ الْمَوْتَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ مَا خَلَفَكُمْ السَّاعَةَ تُذَكِّرُكُمْ، تَحَقَّقُوا تَلَحُّقُوا، فَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ بِالنَّاسِ أَخْرَاهُمْ، اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنْ الْبَقَاعِ وَالْبَهَائِمِ.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، إِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَدَعُوهُ، وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ»⁽¹⁾.

(1) انظر «تاريخ الطبري» (4/ 436).



وله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْوَعظِ أَيْضًا

«أعجب ما في الإنسان قلبه، وله مواد من الحكيم، وأضداد من خلافها، فإن سَنَحَ (1) له الرجاء أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وإن هاجه الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الحرصُ، وإن مَلَكَهُ اليأسُ قَتَلَهُ الأسَفُ، وإن عَرَضَ له الغضبُ اشْتَدَّ به الغيظُ، وإن أسعد بالرضا نَيْبِي التحفظُ، وإن أتاه الخوفُ شغله الحذرُ، وإن اتَّسع له الأمنُ اسْتَلَبَتْهُ العِزَّةُ، وإن أصابته مصيبةٌ فضحه الجَزَعُ، وإن استفاد مالا أطغاه الغنى، وإن عَصَتْهُ فاقَةٌ بَلَغَ به البلاءُ، وإن جهده الجوعُ قَعَدَ به الضَّعفُ، وإن أَفْرَطَ في الشَّبعِ كَظَّتْهُ (2) البِطْنَةُ، فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرٌّ، وكلُّ إفراطٍ له قاتلٌ» (3).



(1) ظَهَرَ. [م].

(2) مَلَأَتْهُ حَتَّى لَا يُطِيقُ النَّفْسَ. م. [م].

(3) انظر «زهر الآداب وثمر الألباب» لأبي إسحاق الفيرواني (2/ 540، 541).

ومن خطبه - أيضاً - كرم الله وجهه

حَمْدَ اللَّهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أوصيكم - عبادَ الله ونفسي - بتقوى الله، ولزوم طاعته، وتقديم العمل، وترك الأمل؛ فإنه من فرط في عمله لم ينتفع بشيءٍ من أمله، أين التعب بالليل والنهار المُفتَحِم للجج البحار، ومفاوز القفار؟ يسير من وراء الجبال، وعالج الرمال، يصل الغدو بالرواح، والمساء بالصباح في طلب محقرات الأرباح، هجمت عليه مَنِيَّتُهُ فَعُظِمَتْ بنفسه رَزِيَّتُهُ، فصار ما جمع بُورًا، وما اكتسب غُرورًا، ووافى القيامة مُحْسُورًا.

أَيُّهَا اللاهِي الغارُّ بنفسِه، كأني بك وقد أتاك رسولُ ربِّك لا يقرع لك بابًا، ولا يهاب لك حُجَّابًا، ولا يقبل منك بديلاً، ولا يأخذ منك كَفِيلًا، ولا يرحم لك صغيرًا، ولا يُوقِّر فيك كبيرًا، حتى يُؤدِّيك إلى قعرٍ مُظْلِمَةٍ، أرجاؤها مُوحِشَةٌ، كفعله بالأمم الخالية والقرون الماضية.

أَيْنَ مَنْ سَعَى واجتهد، وجمع وعدَّد، وبنى وشيَّد، وزخرف ونجَّد، وبالقليل لم يَقْنَع، وبالكثير لم يُمَتِّع؟!

أَيْنَ مَنْ قَادَ الجنودَ ونَشَرَ البُنُودَ؟!

أَضْحَوْا رُفَاتًا، تحت الثرى أموالًا، وأنتم بكأسهم شاربون، وَلَسِيْلِهِمْ



سَالِكُونَ.

عِبَادَ اللَّهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَرَاقِبُوهُ، وَاعْمَلُوا لِلْيَوْمِ الَّذِي تُسَيَّرُ فِيهِ الْجِبَالُ، وَتَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ، وَتَتَطَايَرُ الْكُتُبُ عَنِ الْأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ، فَأَيُّ رَجُلٍ يَوْمئِذٍ تَرَاكَ؟

أَقَائِلُ: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ (١٩) [الحاقة: 19]، أَم: ﴿بَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ﴾ (٢٥)

[الحاقة: 25]؟

نَسْأَلُ مَنْ وَعَدَنَا بِإِقَامَةِ الشَّعَائِرِ جَنَّتُهُ: أَنْ يَقِينَا سَخَطَهُ.

إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةِ كِتَابُ اللَّهِ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ^(١).

هَذَا، وَإِنَّ كِتَابَ «نَهْجِ الْبَلَاغَةِ» قَدْ جَمَعَ مِنْ خُطْبِ الْإِمَامِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَصَائِحِهِ وَمَوَاعِظِهِ مَا فِيهِ الْكَفَايَةُ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ رَامَ التَّصْلُعَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ الْفُنُونِ الْكَلَامِيَّةِ^(٢).

(١) انظر «العقد الفريد» (4 / 158).

(٢) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فِي «مَنْهَاجِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ» (8 / 55، 56): «أَكْثَرُ الْخُطْبِ الَّتِي يَنْقُلُهَا صَاحِبُ «نَهْجِ الْبَلَاغَةِ» كَذَبَ عَلَى عَلِيٍّ، وَعَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَجْلٌ وَأَعْلَى قَدْرًا مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِذَلِكَ الْكَلَامِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ وَضَعُوا أَكَاذِيبَ وَطَّنُوا أَنَّهَا مَدْحٌ، فَلَا هِيَ صَدَقٌ وَلَا هِيَ مَدْحٌ. وَمَنْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْبَشَرِ فَوْقَ كَلَامِ الْمَخْلُوقِ، فَقَدْ أَخْطَأَ. وَكَلَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوْقَ كَلَامِهِ، وَكِلَاهُمَا مَخْلُوقٌ.

وَأَيْضًا، فَاْلْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ الَّتِي تُوجَدُ فِي كَلَامِ عَلِيٍّ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ غَيْرِهِ، لَكِنْ صَاحِبُ «نَهْجِ الْبَلَاغَةِ» وَأَمْثَالُهُ أَخَذُوا كَثِيرًا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ فَجَعَلُوهُ مِنْ كَلَامِ عَلِيٍّ، وَمِنْهُ مَا يُحْكِي عَنْ عَلِيٍّ

أنه تكلم به، ومنه ما هو كلام حقٍّ يليق به أن يتكلم به، ولكن هو في نفس الأمر من كلام غيره.

ولهذا يُوجد في كلام «البيان والتبيين» للجاحظ وغيره من الكتب كلامٌ منقولٌ عن غير عليٍّ، وصاحب «نهج البلاغة» يجعله عن عليٍّ.

وهذه الخطب المنقولة في كتاب «نهج البلاغة» لو كانت كلها عن عليٍّ من كلامه لكانت موجودة قبل هذا المصنّف، منقولة عن عليٍّ بالأسانيد وبغيرها.

فإذا عرف من له خبرة بالمنقولات أنَّ كثيراً منها - بل أكثرها - لا يُعرف قبل هذا، علم أنَّ هذا كذبٌ، وإلا فليُبين الناقل لها في أيِّ كتابٍ ذكر ذلك؟ ومن الذي نقله عن عليٍّ؟ وما إسناده؟ وإلا فالدعوى المُجرّدة لا يعجز عنها أحدٌ.

ومن كان له خبرة بمعرفة طريقة أهل الحديث، ومعرفة الآثار والمنقول بالأسانيد، وتبين صدقها من كذبها، عَلم أنَّ هؤلاء الذين ينقلون مثل هذا عن عليٍّ من أبعد الناس عن المنقولات والتمييز بين صدقها وكذبها. اهـ مختصراً.



وصية زياد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال عمرو بن عُبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وصية زيادٍ بيده، وأمر الناس بحفظها، وتدبر معانيها: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِعِبَادِهِ عُقُولًا، عَاقَبَهُمْ بِهَا عَلَى مَعْصِيَتِهِ، وَأَثَابَهُمْ بِهَا عَلَى طَاعَتِهِ، فَالنَّاسُ بَيْنَ مُحْسِنٍ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَمُسِيءٍ بِخِذْلَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَلِلَّهِ النِّعْمَةُ عَلَى الْمُحْسِنِ، وَالْحُجَّةُ عَلَى الْمُسِيءِ، فَمَا أَوْلَى مَنْ تَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ فِي نَفْسِهِ وَرَأَى الْعِبْرَةَ فِي غَيْرِهِ بِأَنْ يَضَعَ الدُّنْيَا بِحَيْثُ وَضَعَهَا اللَّهُ، فَيُعْطِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْهَا، وَلَا يَتَكَبَّرُ بِمَا لَيْسَ لَهُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ فَنَاءٍ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى بَقَائِهَا، وَلَا بَدَ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ، فَأَحْذَرُكُمْ اللَّهَ الَّذِي حَذَّرَكُمْ نَفْسَهُ، وَأَوْصِيَكُمْ بِتَعْجِيلِ مَا أَخَّرْتُهُ الْعَجْزَةُ، قَبْلَ أَنْ تَصِيرُوا إِلَى الدَّارِ الَّتِي صَارُوا إِلَيْهَا، فَلَا تَقْدِرُونَ عَلَى تَوْبَةٍ، وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْهَا أَوْبَةٌ، وَأَنَا أَسْتَخْلِفُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ، وَأَسْتَخْلِفُهُ مِنْكُمْ» (1).



(1) انظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (1/ 307).

خطبة زياد رضي الله عنه بالبصرة - البتراء

قال أبو الحسن المدائني: «ذُكِرَ ذلك عن مَسْلَمَةَ بنِ مُحَارِبٍ، وأبي بكرٍ الهذلي قالا: قَدِمَ زيادُ البَصْرَةَ واليًّا لِمُعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سَفْيَانَ، وَضَمَّ إِلَيْهِ خُرَاسَانَ وَسِجِسْتَانَ، وَالْفُسُقُ بالبصرة كثيرٌ فاشٍ ظاهرٌ، قالا: فخطب خطبةً بَتْرَاءَ، لم يحمد الله فيها، وقال غيرُهما: بل قال: الحمد لله على إِفْضَالِهِ وإِحْسَانِهِ، ونسأله المزيدَ مِنْ نِعَمِهِ وإِكْرَامِهِ، اللَّهُمَّ كما زِدْتَنَا نِعَمًا فَالْهِنَا شُكْرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْجَهْلَالَ الْجُهْلَاءَ، وَالضَّالَّالَةَ الْعَمِيَاءَ، وَالْغِيَّ الْمُوفِي أَهْلَهُ عَلَى النَّارِ مَا فِيهِ سُفْهَاءُكُمْ، وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ حُلَمَاءُكُمْ مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، يَنْبُتُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَلَا يَتَحَاشَى عَنْهَا الْكَبِيرُ، كَأَنْكُمْ لَمْ تَقْرَأُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ فِي الزَّمَنِ السَّرْمَدِيِّ الَّذِي لَا يَزُولُ.

أَتَكُونُونَ كَمَنْ طَرَفَتْ عَيْنِيهِ الدُّنْيَا، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ الشَّهَوَاتُ، وَاخْتَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الْبَاقِيَةِ؟! وَلَا تَذْكُرُونَ أَنْكُمْ أَحْدَثْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ الْحَدَثَ الَّذِي لَمْ تُسَبِّقُوا إِلَيْهِ؛ مِنْ تَرْكِكُمْ الضَّعِيفَ يُقْهَرُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ.



هذه المواخيرُ المنصوبة، والضعيفة⁽¹⁾ المسلوبة في النهارِ المبصرِ، والعددُ غيرُ قليل، ألم تكن منكم نُهأةٌ تمنعُ الغواةَ عن دَلَجِ اللَّيْلِ وغارةِ النَّهَارِ؟

قَرَّبْتُمُ القَرَابَةَ وَبَاعَدْتُمُ الدِّينَ، تَعْتَذِرُونَ بِغَيْرِ العُذْرِ، وَتَعْطِفُونَ عَلَى الْمُخْتَلِسِ.

كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ يَذُبُّ عَنْ سَفِيهِهِ، صَنِيعٌ مَنْ لَا يَخَافُ عَاقِبَةً، وَلَا يَرْجُو مَعَادًا.

ما أنتم بالحُكَمَاءِ، وَلَقَدْ اتَّبَعْتُمُ السُّفَهَاءَ، فَلَمْ يَزَلْ بِكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنْ قِيَامِكُمْ دُونَهُمْ حَتَّى انْتَهَكُوا حُرْمَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُمْ كَنُوسًا فِي مَكَانِيسِ الرَّيْمِ، حَرَامٌ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى أُسْوِيَهَا بِالْأَرْضِ هَدْمًا وَإِحْرَاقًا.

إِنِّي رَأَيْتُ آخَرَ هَذَا الْأَمْرِ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهُ؛ لَيْنٌ فِي غَيْرِ ضَعْفٍ، وَشِدَّةٌ فِي غَيْرِ عُنْفٍ.

وَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا أَخَذَنَّ الْوَلِيُّ بِالْمَوْلَى، وَالْمُقِيمَ بِالظَّاعِنِ، وَالْمُقْبَلَ بِالْمُدْبِرِ، وَالْمُطِيعَ بِالْعَاصِي، وَالصَّحِيحَ مِنْكُمْ فِي نَفْسِهِ بِالسَّقِيمِ، حَتَّى يَلْقَى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ، فَيَقُولُ: «أَنْجُ سَعْدُ، فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدُ»⁽²⁾، أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتُكُمْ.

(1) في رواية: «والصَّفقة المسلوبة».

(2) هذا مثل مورده: أَنَّ سَعْدَ وَسَعِيدَ ابْنَا ضَبَّةَ بْنِ أَدَ خَرَجَا يَوْمًا فِي مَعْرَكَةٍ، وَكَانَ سَعِيدٌ مُتَحَمِّسًا مُنْطَلِقًا فَسَبَقَ بِفَرَسِهِ أَخَاهُ سَعْدًا إِلَى سَاحَةِ الْمَعْرَكَةِ؛ فَأَحَاطَ الْأَعْدَاءُ بِسَعِيدٍ فَقَتَلُوهُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا فَارِسًا اسْتَطَاعَ الْهَرَبَ، فَلَقِيَ سَعْدًا فِي طَرِيقِهِ فَقَالَ لَهُ: «أَنْجُ سَعْدُ؛ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدُ!»

إِنَّ كِذْبَةَ الْمُنْبَرِ بَلَقَاءُ مشهورة؛ فإذا تَعَلَّقْتُمْ عَلَيَّ بِكَذِبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي، فإذا سَمِعْتُمُوهَا مِنِّي فَاعْتَمِرُوهَا فِيَّ، واعلموا أَنَّ عِنْدِي أَمْثَالَهَا. مَنْ بَيَّتَ مِنْكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ، فَإِيَّايَ وَدَلَجَ اللَّيْلِ، فَإِنِّي لَا أُوتِي بِمَدْلَجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ فِي ذَلِكَ بِمَقْدَارِ مَا يَأْتِي الْخَبْرُ الْكَوْفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ.

وَأِيَّايَ وَدَعَايَ الْجَاهِلِيَّةَ؛ فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ. وَقَدْ أَحْدَثْتُمْ أَحْدَاثًا لَمْ تَكُنْ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لَكُلِّ ذَنْبٍ عُقُوبَةً، فَمَنْ غَرَّقَ قَوْمًا غَرَّقْنَاهُ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقْنَاهُ، وَمَنْ نَقَبَ بَيْتًا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ حَيًّا فِيهِ؛ فَكُفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسِّنْتَكُمْ أَكْفُفْ عَنْكُمْ يَدَيَّ وَلِسَانِي، وَلَا تَظْهَرُ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيْبَةٌ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ عَامَّتُكُمْ إِلَّا ضَرَبْتُ عُقُوبَتَهُ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرًا أُذْنِي وَتَحْتَ قَدَمِي؛ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنِ إِسَاعَتِهِ.

إِنِّي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَهُ السُّلُّ مِنْ بُغْضٍ لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قَنَاعًا، وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنْظِرْهُ، فَاسْتَأْنِفُوا أُمُورَكُمْ، وَأَعِينُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ، فَرُبَّ مُبْتَلِئٍ يُقْدُومِنَا سَيِّئًا، وَمَسْرُورٍ يُقْدُومِنَا سَيِّئًا.



أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً، وَعَنْكُمْ ذَادَةً، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ
اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا، وَنَذُودُ عَنْكُمْ فِي اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا، فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ
وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلِينَا؛ فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيَّانَا
بِمُنَاصَحَتِكُمْ لَنَا.

وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصَرْتُ عَنْهُ فَلَنْ أَقْصَرَ عَنْ ثَلَاثٍ: لَسْتُ مُحْتَاجِبًا عَنْ
طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ - وَلَوْ أَتَانِي طَارِقًا بَلِيلٍ، وَلَا حَابِسًا عَطَاءً وَلَا رِزْقًا عَنْ
إِبَّانِهِ، وَلَا مُجَمَّرًا لَكُمْ بَعْثًا⁽¹⁾.

فَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّلَاحِ لِإِئْتِمَاتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمْ الْمُؤَدَّبُونَ لَكُمْ،
وَكَهْفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ، وَمَتَى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا، وَلَا تُثْرِبُوا قُلُوبَكُمْ
بُغْضَهُمْ، فَيَشْتَدَّ لَذِكْ غَيْظُكُمْ، وَيَطُولَ لَهُ حُزْنُكُمْ، وَلَا تَدْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ،
مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعَيِّنَ كُلًّا عَلَى كُلِّ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفِذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ فَاَنْفِذُوهُ
عَلَى أَذْلَالِهِ⁽²⁾، وَابْتَغِ اللَّهَ إِنَّ لِي فِيكُمْ لَصَرْعَى كَثِيرَةً، فليحذر كلُّ امرئٍ مِنْكُمْ
أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرْعَائِي⁽³⁾.



(1) تجمير الجند: أَنْ يَحْبِسَهُمْ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ عَنِ الْعُودِ إِلَى أَهْلِهِمْ.

(2) أَي: عَلَى طُرُقِهِ وَوُجُوهِهِ، وَاحِدَةً: ذَلْ، وَهُوَ مَا دُلِّلَ وَمُهَّدٌ مِنَ الطَّرِيقِ.

(3) انظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (44 / 3).

خطبة عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

خَطَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِخَنَاصِرَةٍ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبْ بَعْدَهَا حَتَّى مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبَثًا، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدىً، وَإِنَّ لَكُمْ مَعَادًا يَحْكُمُ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَكُمْ؛ فَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَحُرِمَ الْجَنَّةَ الَّتِي عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ غَدًا لِمَنْ خَافَ رَبَّهُ، وَبَاعَ قَلِيلًا بكَثِيرٍ، وَفَانِيًا بَبَاقٍ.

أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ فِي أَسْلَابِ الْهَالِكِينَ، وَسَيُخْلِفُهَا مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقُونَ كَذَلِكَ، حَتَّى تُرَدُّوا إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ؟

ثُمَّ أَنْتَمُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشَيِّعُونَ غَادِيًا وَرَاحِيًا إِلَى اللَّهِ قَدْ قَضَى نَحْبَهُ وَبَلَغَ أَجَلَهُ، ثُمَّ تُغَيَّبُونَهُ فِي صُدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ غَيْرَ مُوسِدٍ وَلَا مُمَهَّدٍ، قَدْ خَلَعَ الْأَسْبَابَ، وَفَارَقَ الْأَحْبَابَ، وَوَجَّهَ الْحَسَابَ، غَنِيًّا عَمَّا تَرَكَ، فَقِيرًا إِلَى مَا قَدَّمَ، وَابْتِغَاءً لِلْإِثْمِ. وَإِنِّي لَأَقُولُ لَكُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ وَمَا أَعْلَمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا عِنْدِي، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

وَمَا تَبْلَغُنَا حَاجَةً يَتَسَّعُ لَهَا مَا عِنْدَنَا إِلَّا سَدَدْنَاهَا، وَلَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا



وددتُ أَنَّ يَدَهُ مَعَ يَدِي، وَلَحْمَتِي الَّذِينَ يُلَوِّنِي حَتَّى يَسْتَوِيَ عَيْشُنَا وَعَيْشُكُمْ.

وَإِيْمُ اللّٰهُ إِنِّي لَوْ أَرَدْتُ غَيْرَ هَذَا مِنْ عَيْشٍ أَوْ غَضَارَةٍ لَكَانَ اللِّسَانُ مِنِّي نَاطِقًا ذَلُولًا عَالِمًا بِأَسْبَابِهِ، لَكِنَّهُ مَضَى مِنَ اللّٰهِ كِتَابٌ نَاطِقٌ، وَسُنَّةٌ عَادِلَةٌ - دَلَّ فِيهَا عَلَى طَاعَتِهِ، وَنَهَى فِيهَا عَنْ مَعْصِيَتِهِ.

ثُمَّ بَكَى، فَتَلَقَّى دُمُوعَ عَيْنَيْهِ بِطَرْفِ رِدَائِهِ، ثُمَّ نَزَلَ، فَلَمْ يُرَ عَلَى تِلْكَ الْأَعْوَادِ، حَتَّى قَبَضَهُ اللّٰهُ تَعَالَى (1).



(1) انظر «العقد الفريد» (4 / 182، 183)، و«المجالس وجواهر العلم»، لأبي بكر الدينوري

خطبة قطري بن الفجاءة

صَعِدَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ مِنْبَرَ الْأَزَارِقَةِ - وهو أحدُ بني مازنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ - فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا حُلُوءٌ خَصِرَةٌ، حُقَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَبَّيْتُ بِالْعَاجِلَةِ، وَحُلِّيتُ بِالْأَمَالِ، وَتَزَيَّيْتُ بِالْغُرُورِ، لَا تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلَا تُؤْمِنُ فَجَعَتُهَا، غَرَارَةٌ ضَرَّارَةٌ، خَوَانَةٌ غَدَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِذَةٌ بَائِدَةٌ، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ، بِذَلَّةٍ ثَقَالَةٌ لَا تَعْدُو إِذَا هِيَ تَنَاهَتْ إِلَى أُمْنِيَةِ أَهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَا عَنْهَا - أَنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا﴾ ﴿٤٥﴾ [الكهف: 45].

مع إنَّ امرءًا لم يكن منها في حبرةٍ ألا أعقبته بعدها عبرةٌ، ولم يلق من سرَّائها بطنًا إلا منحته من ضرائها ظهراً، ولم تطله غيثه رخاء إلا أهطلت عليه مُزَنَّةٌ بلاء، وحرِّي إذا أصبحت له مُنْتَصِرَةٌ أن تُمسي له خاذلة مُتَنَكِّرة، وإن جانب منها اغْدُوذَبَ واحْلَوْلَى أمرٌ عليه منها جانبٌ فَأُوْبَى ^(١)، وإن آتت امرءاً من غضارتها ورفاهتها نِعْمًا أرهقته من نوائبها نَعْبًا، ولم يُمسِ امرؤٌ منها في

(١) اغْدُوذَبَ واحْلَوْلَى: افْعَوْعَلَ، من أبنية المُبالغة - من العذوبة والحلاوة. فَأُوْبَى: صار كثيرَ الوباء.



جناح أمنٍ إلا أصبح منها على قوادِمِ خَوْفٍ، غَرَارَةٌ غُرُورٌ ما فيها، فانية فإن ما عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التَّقْوَى، مَنْ أَقَلَّ منها استكثر ممَّا يُؤْمَنه، وَمَنْ استكثر منها اسْتَكْثَرَ ممَّا يُؤْبَقُه، وَيُطِيلُ حُزْنَه، وَيُبْكِي عَيْنِيَه.

كم واثق بها قد أَفْجَعَتْهُ، وذِي طُمَانِينَةٍ إِلَيْهَا قد صَرَعَتْهُ، وذِي اخْتِيَالٍ فِيهَا قد خَدَعَتْهُ!

وكم من ذِي أُبْهَةٍ فِيهَا قد صَيَّرَتْهُ حَقِيرًا، وذِي خُخُوَةٍ قد رَدَّتْهُ ذَلِيلًا، وكم من ذِي تَاجٍ قد كَبَّتْهُ لِلْيَدِينِ وَالْفَمِ، سُلْطَانُهَا دُؤْلٌ، وَعِيشُهَا رَنْقٌ⁽¹⁾، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلُوهَا صَبْرٌ، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ⁽²⁾، وَأَسْبَابُهَا⁽³⁾ رَمَامٌ، وَقَطَافُهَا سَلَعٌ⁽⁴⁾، حَيْثُهَا بَعْرُضٌ مَوْتٌ، وَصَحِيحُهَا بَعْرُضٌ سَقَمٌ، وَمَنِيعُهَا بَعْرُضٌ اهْتِضَامٌ، مَلِيكُهَا مَسْلُوبٌ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ، وَسَلِيمُهَا مَنكُوبٌ، وَجَامِعُهَا مَحْرُوبٌ.

مَعَ أَنَّ وِرَاءَ ذَلِكَ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ، وَهَوَلُ الْمَطْلَعِ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(٣١) [النجم: 31]!

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِينٍ مَنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَوْضَحَ آثَارًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْثَفَ جُنُودًا، وَأَعْتَدَ عُتُودًا، تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيْ تَعَبَّدُوا، وَآثَرُوهَا أَيْ إِثَارًا،

(1) رَنْقٌ: كدر. [م].

(2) السِّمَامُ: جمع السَّم، وهو المادة القاتلة.

(3) حَبَالُهَا بِالْيَةِ. [م].

(4) السَّلَعُ: شَجَرٌ مُرٌّ يَنْبَتُ فِي الْيَمَنِ.

وظعنوا عنها بالكره والصغار، فهل بلغكم أَنَّ الدنيا سَمَحَتْ لهم نفساً بديّة، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطبٍ، بل قد أرهقتهم بالفوداج، وضعضعتهم بالتّوائب، وعقرتهم بالمصائب.

وقد رأيتم تنكّرها لمن دان لها، وأخلّد إليها، حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المسند، هل زودتهم إلا الشّقاء وأحلتّهم إلا الضّنك؟ أو ثورث لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة؟!

أف هذه تُؤثرون؟ أم على هذه تحرصون؟ أم إليها تطمئنون؟

يقول الله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٦﴾ [هود: 15، 16].

فَبُئِستِ الدّارُ لمن أقام فيها.

فاعلموا- وأنتم تعلمون- أنكم تاركوها لا بد؛ فإنها كما وصفها الله باللّعِبِ واللّهو، وقد قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨) **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** ﴿١٢٩﴾ [الشعراء: 128، 129]، وذكر الذين قالوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، ثم قال: حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يَدْعُونَ رُكْبَانًا، وَأُنْزِلُوا فِيهَا فَلَا يَدْعُونَ ضَيْفَانًا، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيحِ أَجْنَانٌ، وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ، فَهُمْ جِيرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا؛ إِنْ أَخْصَبُوا لَمْ



يَفْرَحُوا، وَإِنْ أَقْحَطُوا لَمْ يَقْنُطُوا، جَمْعٌ وَهُمْ آحَادٌ، وَجِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ مُتَنَازِلُونَ⁽¹⁾،
لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ، حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْعَانُهُمْ، وَجُهَلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ
أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجَعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ.

وكما قال الله تعالى: ﴿فَلَيْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا^ط
وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ [القصص: 58].

استبدلوا بظهر الأرض بطنًا، وبالسعة ضيقًا، وبالأهل غربَةً، وبالنور
ظلمةً، فجاءوها كما فارقوها؛ حُفَاءَ عُرَاءَ فُرَادَى، غير أن ظعنوا بأعمالهم إلى
الحياة الدائمة، وإلى خلود الأبد؛ يقول الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ^ع
وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]؛ فاحذروا ما حَذَّرَكُمُ اللَّهُ،
وانتفعوا بمواعظه، واعتصموا بحبله، عصمنا الله وإياكم بطاعته، وورزقنا
وإياكم أداء حَقِّهِ⁽²⁾.



(1) مُبْتَعِدُونَ. [م].

(2) انظر «البيان والتبيين» (2 / 86 - 88).

خطبة المهدي

«الحمد لله الذي ارتضى الحمدَ لنفسه، ورَضِيَ به من خلقه. أحمدُه على آلائه، وأمجِّدُه لبلائه، وأستعينُه وأؤمن به، وأتوكَّل عليه توَكَّل راضٍ بقضائِه، وصابرٍ لبلائه.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبده المصطفى، ونبيُّه المُجتبى، ورسوله إلى خلقه، وأمينُه على وحيه، أرسله بعد انقطاع الرِّجاء، وطُمُوس العلم، واقترابٍ مِنَ السَّاعةِ إلى أُمَّةٍ جاهليةٍ مُختلفةٍ أُمِّيَّةٍ؛ أهلُ عداوةٍ وتضاعُنٍ، وفُرقةٍ وتبايُنٍ، قد استهوتَّهم شياطينُهم، وغلب عليهم قُرناؤُهم، واستشعروا الرَّدَى، وسلَكوا العَمَى - يُبَشِّرُ مَنْ أطاعه بالجنةِ وكريمِ ثوابها، ويُنذِرُ مَنْ عصاه بالنارِ وأليمِ عقابها؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42].

أوصيكم - عبادَ الله - بتقوى الله؛ فإنَّ الاقتصارَ عليها سلامَةٌ، والتركُّ لها ندامَةٌ، وأحثُّكم على إجلالِ عَظَمَتِهِ وتوقيرِ كبريائه وقُدْرته، والانتهاه إلى ما يقَرِّب من رحمته، ويُنجِّي من سَخَطِهِ، ويُنالُ به ما لديه من كريمِ الثَّواب وجزيلِ المآب.

فاجْتَنِبُوا مَا خَوَّفَكُمُ اللَّهُ مِنْ شَدِيدِ الْعِقَابِ وَالْإِيمِ الْعَذَابِ وَوَعِيدِ الْحِسَابِ، يَوْمَ تُوقَفُونَ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ، وَتُعْرَضُونَ فِيهِ عَلَى النَّارِ، يَوْمَ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ؛ ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ الزُّرُّ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿عَبَسَ: 34-36﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ [البقرة: 123]، ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٣) [لقمان: 33].

فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ غُرُورٍ وَبَلَاءٍ وَشُرُورٍ وَاضْمِحْلَالٍ وَزَوَالٍ، وَتَقْلُبٍ وَانْتِقَالٍ، قَدْ أَفْنَتْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَهِيَ عَائِدَةٌ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ، مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا صَرَعَتْهُ، وَمَنْ وَثِقَ بِهَا خَانَتْهُ، وَمَنْ أَمَلَهَا كَذَّبَتْهُ، وَمَنْ رَجَاها خَذَلَتْهُ، عِزُّهَا ذُلٌّ، وَغِنَاهَا فَقْرٌ، وَالسَّعِيدُ مَنْ تَرَكَهَا، وَالشَّقِيُّ فِيهَا مَنْ آثَرَهَا، وَالْمَغْبُونُ فِيهَا مَنْ بَاعَ حَظَّهُ مِنْ دَارِ آخِرَتِهِ بِهَا.

فَاللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ، وَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ، وَالرَّحْمَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الزَّكِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ بِالْكَظْمِ، وَتَنْدَمُوا فَلَا تَنَالُونَ النَّدَمَ، فِي يَوْمٍ حَسْرَةٍ وَتَأْسَفٍ وَكَآبَةٍ وَتَلَهُّفٍ لَيْسَ كَالْأَيَّامِ، وَمَوْقِفٍ ضَنْكُ الْمَقَامِ.

إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةِ كِتَابُ اللَّهِ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٤) [الأعراف: 204]، أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ



﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ [التكاثر: 1، 2]، إلى آخر السُّورة.

أُوصِيَكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - بِمَا أُوصَاكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَأَنْتَهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى لَكُمْ طَاعَةَ اللَّهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ⁽¹⁾.



(1) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه (45 / 189).



خُطْبَةُ هَارُونَ الرَّشِيد

«الحمدُ لله، نحمده على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصره على أعدائه، ونؤمنُ به حقًّا، ونتوكل عليه مُفَوِّضِينَ إِلَيْهِ.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله، بعثه على فترةٍ من الرُّسل، ودُرُوسٍ من العلم، وإدبارٍ من الدنيا، وإقبالٍ من الآخرة، بشيرًا بالنعيم المقيم، ونذيرًا بين يدي عذابٍ أليم؛ فبلغَ الرسالة، ونَصَحَ الأُمَّة، وجاهد في الله؛ فأَدَّى عن الله وعده ووَعِيدَه، حتى أتاه اليقين، فعلى النَّبِيِّ من الله صَلَاةٌ وَرَحْمَةٌ وَسَلَامٌ.

أوصيكم - عبادَ الله - بتقوى الله؛ فإنَّ في التقوى تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ، وتضعيفَ الحسناتِ، وفوزًا بالجنة، ونجاةً مِنَ النَّارِ.

وأحذِّركم يومًا تشخَّص فيه الأبصارُ، وتُبلى فيه الأسرارُ؛ يومَ البُعْثِ، ويومَ التَّغَابِنِ، ويومَ التَّلَاقِ، ويومَ التَّنَادِي، يوم لا يُسْتَعْتَب من سيئة، ولا يُزْدَاد في حَسَنَةٍ، ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مِمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ ١٨ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ [غافر: 18، 19]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ [البقرة: 281].

عباد الله، إنكم لم تَخْلُقُوا عَبَثًا، ولم تُتْرَكُوا سُدىً، حَصَّنُوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له، ولا دينَ لِمَنْ لا عهدَ له، ولا صلاةَ لِمَنْ لا زكاةَ له» (1).

إنكم سُفَرَاءُ مُجْتَازُونَ، وأنتم عن قريبٍ تَنْتَقِلُونَ مِنْ دارِ فَناءٍ إلى دارِ بقاء؛ فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرَّحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالأمانة؛ فإن الله - تعالى ذِكْرُه - أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهُدَاهُ لِلْمُتَّبِعِينَ؛ فقال الله عَزَّوَجَلَّ - وقوله الحق -: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: 156]، وقال: ﴿وَلِيَّ لِعَفَارٍ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82].

وإياكم والأمانى؛ فقد غَرَّتْ وأوردت وأوْبَقَتْ كثيرًا حتى أَكْذَبَتْهُمْ مَنايَاهم؛ فتناوشوا التَّوبَةَ مِنْ مكانٍ بعيدٍ، وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون،

(1) أخرجه أحمد في «مسنده» (3/ 135) (12406)، وابن حبان في «صحيحه» (194) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بدون الشطر الثالث، وحسنه الألباني في «المشكاة» (35)، وورد الشطر الثالث في حديث أخرجه السمرقندي ضمن حديث طويل في «تنبيه الغافلين» (ص 583)، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (2/ 383) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما بلفظ: «لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا صلاةَ لمن لا طهورَ له، ولا دينَ لمن لا صلاةَ له؛ إنما موضع الصَّلَاة من الدِّين كموضع الرأس من الجسد»، وضعفها الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (213).



فأخبركم ربكم عن المثَلاتِ فيهم، وصَرَفَ الآيات، وضرب الأمثال؛ فرغَّب بالوعد، وقَدَّمَ إليكم الوعيدَ، وقد رأيتُم وقَائِعَهُم بالقرون الخوالي جِيلاً فجيلاً، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والشعائر باختطافِ الموتِ إيَّاهم من بيوتكم ومن بين أظهركم، لا تَدْفَعُونَ عنهم، ولا تَحُولُونَ دونهم؛ فزالَت عنهم الدُّنيا، وانْقَطَعَتْ بهم الأسبابُ، فَأَسْلَمَتْهُمُ إلى أَعْمَالِهِم عند المواقف والحساب والعقاب؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (٣١) ﴿

[النجم: 31].

إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةِ كِتَابُ اللَّهِ؛ يَقُولُ اللَّهُ **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٤) ﴿[الأعراف: 204]: أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة، أَمُرُّكُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَأَنْهَاكُم عَمَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ» (١).



خطبة المأمون في يوم الجمعة

«الحمد لله، مُستخلص الحمد لنفسه، ومُستوجيه على خلقه، أحمدُه وأُستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليُظهره على الدّين كله ولو كره المشركون.

أُوصيكم - عبادَ الله ونفسي - بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتّنجز لوعده، والخوف لوعيده؛ فإنه لا يَسْلَمُ إلا مَنْ اتَّقاه ورجاه وعَمِلَ له وأرضاه.

فاتقوا الله - عبادَ الله - وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلكم، وكونوا كقوم صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستدلّوا؛ فإنّ الله **عَزَّوَجَلَّ** لم يخلقكم عبثًا، ولم يترككم سُدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به.

وإنّ غايةً تُنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة - لجديرةً بِقصر المدّة. وإنّ غائبًا يحدوه الجديدان (الليل والنهار) - لجديرٌ بسرعة الأوبة.



وإنَّ قادمًا يحلُّ بالفوز أو الشَّقوة لمُستحق لأفضل العُدَّة؛ فاتَّقِ عبدُ ربِّه، ونَصَحْ نفسَه، وقَدِّمْ تَوْبَتَه، وغَلَبْ شهوتَه؛ فإنَّ أجلَه مستورٌ عنه، وأمله خادعٌ له، والشيطان مُوَكَّل به؛ يُزَيِّن له المعصية ليركبها، ويُمَنِّيهِ التوبة ليُسَوِّفَهَا، حتى تَهْجُم عليه منيَّتُه أغفل ما يكون عنها، فيا لها حَسرة على كل ذي غفلةٍ أن يكون عمرُه عليه حُجَّةً، وتُؤديه منيَّتُه إلى شَقوة.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبْطِرُه نعمةٌ، ولا تُقْصِرُه عن طاعة ربه غفلةٌ، ولا يحلُّ به بعد الموت فزعٌ؛ إنَّه سميعُ الدعاء، بيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير، فعَّال لما يريد»⁽¹⁾.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى خُطْبِ الْأَمْرَاءِ فِي الْوَعظِ بَعْدَ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهد أصحابه يَرَاهَا تدور على معانٍ واحدةٍ وألفاظٍ مُعَيَّنَةٍ لا تتجاوزها. وهي التزهيد في الدُّنيا والترغيب في الآخرة، وتبشِيرُ الْمُطِيعِ وإنذارُ الْعَاصِي، ولا عيبَ عليهم في ذلك فإنَّهم كانوا يَرَوْنَ ذلك كافيًا في أزمانهم؛ لكثرة أهلِ المَعْرِفة فيها، وقُرب عَهْدِهِمْ مِنَ الثُّبُوتِ.

أَمَّا فِي زَمَانِنَا هَذَا فَلَا يَكْفِي ذَلِكَ فِي تَحَقُّقِ الدُّعَاءِ إِلَى الْخَيْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِحْيَاءِ الْفَضِيلَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الرَّذِيلَةِ، وَمُحَارَبَةِ الْبَدْعِ الْمَذْمُومَةِ، وَالْعَادَاتِ الْقَبِيحَةِ، كَمَا سَبَقَ فِي صَدْرِ هَذَا الْمَبْحَثِ.

وإليك نُمُودَجًا من الخطبِ العَصْرِيَّةِ التي تُلائِمُ حال النَّاسِ الْيَوْمَ،

(1) أخرجها ابنُ أبي الدنيا في «قصر الأمل» (ص 114) مختصرة عن بعض الخلفاء، وانظر «العقد الفريد» (4/ 192).

وتَنطبق تمامًا على القانون الخطابي الذي يجب أن تَكُون عليه الخطبُ الدينيَّة
في الوعظ والإرشاد:



الخطبُ العَصْرِيَّة

خطبة في التحذير من تقليد الأجانب في الأخلاق والعادات

الحمد لله الذي وفق السُّعداء لإدراك الفضائل والكمالات، وأوجب على الناس النَّظَرَ في جميع الكائنات؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 101]، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، نَشْكُرُهُ تعالى مِيزَ لنا القبيح من الحسن، ونلجأ إليه ممَّا نزل بنا من الضَّعْفِ والوهن، ونعوذ به من التَّقْلِيدِ في سَيِّئِ الأخلاق وقبيح العادات.

وأشهد أن لا إله إلا الله هدانا بدين الإسلام إلى خير وسائل السَّعَادَةِ، وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله أوضح لنا سبيل الرُّقِيِّ والسيَّادَةِ؛ اللَّهُمَّ صَلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين عَمِلُوا بِآداب الدِّينِ فَبَلَغُوا ذِرْوَةَ الكمال.

أمَّا بعد: فيا أيُّها المسلمون، أماننا طريقُ السَّعَادَةِ مفتوح؛ فلماذا لا نَسْأَلُهُ؟! أماننا سبيلُ الرُّقِيِّ واضح، فلماذا نعدُّ عنه ونتركه، ونسلك طريق الشَّقَاءِ والخُسْران؟!

أرأيتم أن دينكم دين الفضيلة والكمال قَصَرَ في إرشادكم إلى سبيل الفلاح حتى عدَلْتُمْ عنه وهَجَرْتُمُوهُ؟ أم قرأتم في تعاليمه ما يصدُّكم عن كرائم الصفات وجلال الأعمال حتى رَغِبْتُمْ في تقليد الغَيْرِ وَبَذَلْتُمُوهُ؟

كلا، إنَّه دينُ الله الذي يَبْقَى طريقًا للسَّعَادَةِ إلى يوم تُبْعَثُونَ، ما من فضيلةٍ



إِلَّا حَتَّى عَلَى التَّخَلُّقِ بِهَا، وَمَا مِنْ رَذِيلَةٍ إِلَّا نَفَرَ عَنْ قُبْحِهَا وَبَيَّنَّ سُوءَ عَاقِبَتِهَا؛
فَلَمَّا ذَا نَسِيرٍ عَلَى غَيْرِ هُدًى، وَنُقِلَّ الدِّينَ فِيهَا يَنْهَى عَنْهُ الدِّينَ وَتَأْبَاهُ الْغَيْرَةُ
وَالْمَرْوَةُ؟

لَقَدْ جَرَّ عَلَيْنَا تَقْلِيدُ الْأَجَانِبِ شَرًّا وَبِئَلَاءَ؛ فَقَدْ فَقَدَ كَثِيرٌ مِنْ أُنْبَاءِنَا
ثِقَتَهُمْ بِاللَّهِ، وَخُضُوعَهُمْ لِلْقَادِرِ الْمُتَعَالِ، وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ؛ فَاسْتَهَانُوا
بِحَقُوقِهِ، وَعَبَثُوا بِوَأَجِبَاتِهِ، وَأَصْبَحَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ حَادِثَةٌ مِنْ حَوَادِثِ
الْأَيَّامِ يَذْهَبُ عَنْهُ الصَّبْرُ، وَيَسْتَوِلِي عَلَيْهِ الْيَأْسُ وَالْجَزَعُ؛ فَيَنْتَحِرُ وَيَقْتُلُ نَفْسَهُ
بِيَدِهِ، وَبِذَلِكَ يَتْرِكُ وَرَاءَهُ الْحَزْنَ وَالْعَارَ، وَلَا يَجِدُ أَمَامَهُ إِلَّا الْغَضَبَ مِنَ الْمُتَنَقِّمِ
الْجَبَّارِ.

وَلَقَدْ قَادَنَا تَقْلِيدُهُمْ إِلَى التَّهَانِ بِالْدِّينِ، وَعَدَمِ الْمُبَالَاةِ بِأَنْوَاعِ الْفُجُورِ،
وَصَارَ الْكَثِيرُ مِنَّا جَرِيئًا عَلَى كُلِّ مَا لَا يَرْضَى بِهِ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ مِنَ الشُّرُورِ
وَالْقَبَائِحِ.

قَلَدْنَاهُمْ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ، وَلَمْ نُبَالِ بِمَضَارِّهَا الْعَقْلِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ.

قَلَدْنَاهُمْ فِي لَعِبِ الْقِمَارِ، وَلَمْ نُبَالِ بِمَا يَلْحَقُنَا مِنَ الْمَضَارِّ الْمَالِيَةِ.

قَلَدْنَاهُمْ فِي التَّبَرُّجِ وَالتَّهْتُّكِ، وَقَلْنَا: حَرِيَّةٌ.

أَخَذْنَا عَنْهُمْ أَنْوَاعَ اللَّهْوِ وَالْخُلَاعَةِ، وَقَلْنَا: إِنَّا بِذَلِكَ نَكُونُ مُتَمَدِّدِينَ.

رَبَّيْنَا بَنَاتِنَا عَلَى عَادَاتِهِمْ فَنَشَأَنَّ عَارِيَاتٍ مِنَ الْفَضَائِلِ، جَاهِلَاتٍ بِآدَابِ
الدِّينِ، وَظَرَحْنَ ثَوْبَ الْحِشْمَةِ وَالْحَيَاءِ، وَبَرَزْنَ فِي الشُّوَارِعِ بِالْأَزْيَاءِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ؛

فإذا رأيت المسلمة رأيت منها امرأةً إفْرِنجِيَّةً في ملابسها، وحرّكاتِها، وسكّنائِها، وهي ابنةٌ أو زوجةٌ مَنْ يَعُدُّ نفسه من جماعة المسلمين⁽¹⁾!

وأقبحُ من ذلك أن يذهبَ المسلمُ⁽²⁾ إلى أماكن الرّقص وبيوتِ الفُسوقِ والفجورِ، وبدل أن يُنْفِقَ المالَ في الأعمالِ النَّافعةِ يُضَيِّعُهُ في التَّقائصِ والرَّذائلِ، وهو يعلم أن هذه الأماكن ما أُقيمتْ إلا لِسَلْبِ مَالِهِ وفسادِ أخلاقِهِ والقضاءِ على دينِهِ؛ فيَجْني على نَفْسِهِ وعلى أُمَّتِهِ، ويكون لبناءِ الفُضيلةِ والدينِ من الهادمين.

أيُّها الناس، إِنَّ لكلَّ أُمَّةٍ مَحاسِنَ وقبائحَ يَعْرِفُها الأعمى والبصير؛ فمن العارِ أن نُقلدَ غيرَنا فيما يَنْهى عنه الدينُ، ولا يَتَّفِقَ مع آدابِ المسلمين. إننا بهذا التقليدِ نَقْضي على آدابِنَا، ونمحو معالمَ حَيَاتِنَا، ونُصبح بين الأممِ أَذِلَّةً مُسْتَضْعَفِينَ!

كفى بهذا التقليدِ ذمًّا أنه يَسْلِبُ صاحِبَهُ فضيلةَ الإنسانِ.

كفى بهذا التقليدِ قُبْحًا أَنَّهُ يقطع الصلةَ بيننا وبين آبائنا الأولين؛ أولئك الذين سادوا العالمَ، وشادوا دعائمَ العلمِ والدينِ.

إِنَّ الأَجانبَ أَنفَسَهُمْ عَرَفُوا أَضْرارَ كثيرٍ من عاداتِهِمْ؛ فنبَّهوا شُعوبَهُمْ وأُمَّهَتَهُمْ إلى سُوءِ عاقِبَتِها؛ فَأَقْلَعُوا عنها، وَإِنْ دِينَكُمْ - والحمدُ لله - ما ترك

(1) لا يقصد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ هنا تكفير هذا الرجل بمعصية تَبْرُج زوجته أو ابنته، وإنَّما يقصد

تشديد التَّكثير عليه، وأنَّه لم يَقم بأحكام الإسلام كما يجب أن يكون.

(2) انظر سَمَاءَ هنا مُسلِّمًا، مع أَنَّهُ أشار إلى أَنَّ هذا الذَّنْبَ أقْبَحُ من سابقه.



التَّنبِيهَ عَلَى ضَرَرِهَا، وَطَلَمَا حَذَّرَ مِنْ شَرِّهَا وَخَطَرِهَا؛ فَارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ، وَكُونُوا بِهَدْيِهِ مُتَمَسِّكِينَ.

اتَّقُوا اللَّهَ، واحذروا ذلك التَّقْلِيدَ الْأَعْمَى؛ فَإِنَّهُ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

اتَّقُوا اللَّهَ، وحافظوا على آداب دينكم، فلا دواءَ لكم سواه، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: 21]، قال رسول الله ﷺ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ غَيْرُهُمْ؟»، رواه مسلم (1).

وروى البخاري عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ

قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا» (2).



(1) أخرجه البخاري (7319) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرجه أيضًا البخاري (7320)

ومسلم (2669) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) أخرجه البخاري (6308) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خطبة في التحذير من شهادة الزور

الحمد لله، أعزَّ من تمسَّكَ بدينه فأطاع مولاه واتقاه، وأذَلَّ من أهمل أمرَ دينه فخالفَ ربَّه وعصاه.

لا إله إلا هو العزيز الحكيم، وأشهد أن لا إله إلا الله، أوجب قول الحق، وحرَّم شهادة الزور، وأشهد أن سيدنا مُحَمَّدًا رسولُ الله، نهى عن الكذب والباطل والفجور، اللهم صلِّ وسلِّم على سيِّدنا محمدٍ نبيِّ الرَّحمةِ وهادي الأُمَّة، وعلى آله وصحبه الذين تأدَّبوا بأداب الدِّين، فكانوا هم الفائزين.

أمَّا بعد:

فأيُّها المسلمون، إنَّ الاستقامةَ أثرُ الإيمانِ، ولا يكون العبدُ مُسْلِمًا إلا إذا خَضَعَ لأوامر الدِّيان، ولا ينفعه أن يقول: أنا مسلمٌ، وهو لا يعمل عمَل المسلمين، وقد جعل الله لكم السَّمْعَ والبصرَ واللسانَ؛ لتستعينوا بها على ما يُفيدُ وينفعُ، وسيسألُكم عما كَسَبْتُمُوهُ بالعينِ والأذنِ واللسانِ يومَ لا مالَ ينفعُ، ولا وَلَدٌ يَشْفَعُ؛ فاستعملوها في الطاعة، ولا تَسْتَعْمِلُوهَا فيما يُؤاخذكم به أَحْكَمُ الحاكمين.

ومن أشدَّ ما تُؤاخذون عليه قولُ الزورِ؛ فإنه لا يَكُفُّ الناسَ في النارِ على



وجوهم إلا حصائدُ ألسنتهم، ولا تفسدُ أحوالُ الأمم إلا بإضاعة الحقِّ بينهم في معاملاتهم، فإذا دُعي أحدكم للشهادة فليشهد كما عَينَ؛ لِنصرة الحقِّ، وإنصافِ المظلومين؛ قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

وإياكم وشهادة الزور؛ فإنها فسادٌ كبيرٌ، وقائلها محتقر مهينٌ، له في الدنيا خزيٌّ، وله في الآخرة عذابُ السَّعير، ومن لا يُكرم نفسه كان لا شكَّ من الخاسرين.

شاهدُ الزور فاقِدُ المروءة، عديمُ الشَّهامة.

شاهدُ الزور فاجرٌ كذابٌ فاسقٌ، ساقطُ العدالة.

شاهدُ الزور سافلٌ وَضِيعٌ، مَمْقُوتٌ لدى الله والنَّاسِ أجمعين.

أيدري شاهدُ الزور إلى مَنْ أساء؟

أساء إلى نفسه حيث باع آخرته بدنياه غيره؛ فَخَسِرَ الدُّنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

وأساء إلى مَنْ شَهِدَ عليه؛ ضَيَّعَ حَقَّه وخَذَلَه، وهو في حاجة إلى الناصرين.

وأساء إلى مَنْ شَهِدَ لَهُ؛ أعانَه على الظُّلم، وأوقَفَه يوم القيامة بين يدي جَبَّارٍ لا يَرْحَمُ الظالمين.

وأساء إلى القاضي؛ حَيَّرَه، وطَمَسَ مَعَالِمَ الحقِّ، ولولا شهادته الكاذبةُ لكان في القضية من المُهْتَدِينَ.

وأساء إلى الأمة كلها بترويح الكذبِ والباطلِ بين أفرادها، وقتل رُوح الحقِّ والصِّدق، وهما أساسُ الثِّقة والرَّواج في معاملتها.

ومتى فَشا الكَذِبُ والزُّورُ في أُمَّة أصبحت مِنَ الهالكين.

فيا شَاهِدَ الزُّور، هل اتخذتَ عند الله عهدًا أَلَّا حسابَ ولا عِقَابَ ولا غَضَبَ؟! أم ظننتَ سُقُوطَ التَّكْلِيفِ عن المجرمين؛ حتى تعدَّيتَ حدودَ الأدب؟! أم أباح لك عقلُك أن تترك الحقَّ، وتكون في عِداد المُزَوِّرين؟!

ويا حَلِيفَ الباطلِ، إن كان لك قوَّةٌ على غضبِ الجَبَّار فابْقَ على هذا الضلال والطغيان، إن كان لك صبرٌ على لَهَبِ النار فاستمرَّ على هذا الزُّور والبهتان، إن كان لك حيلةٌ في دفعِ البلاء فاستعدَّ لنزولِ الخذلان، إن كان لك رغبةٌ في السُّقُوط والهَوَانِ فها أنت ذا ساقطٌ في الهَوَانِ المشين.

فيا أيها المسلمون، اتقوا الله، وتباعدوا عن هذه المنكراتِ، وصنوا ألسنتكم عن قول الكذبِ، وشهادة الزُّور؛ فإنها من أكبر الكبائر، وأشدَّ المحرمات، ولا يجترئ عليها إلا شقي لا يُبالي بغضب ربِّ العالمين، ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

(الحديث): روى البخاريُّ، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأكْبَرِ الكبائر؟ قالها ثلاثًا.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «أكْبَرُ الكبائر: الإِشْرَاكُ بالله، وعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ».



وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكَيِّفًا، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ»⁽¹⁾.



(1) أخرجه البخاري (2654).

خطبة في مضار الربا

الحمد لله الذي يَمَحِّقُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ.

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تُبْعِدُنَا عن الموبقات، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، حَذَّرَ من ارتكاب المحرمات، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الذين أقاموا شعائر الدين، وعظَّموا الحُرُمات؛ فكانوا هم المُفْلِحِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ بِالْإِنْسَانِ بَيِّنَ لَهُ الْمَنْفَعَةَ وَالْمُضَرَّةَ، وَأَبَاحَ لَهُ التَّوَسُّعَ فِي كَسْبِ الْمَالِ مِنْ طَرِيقِهِ الْحَلَالِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الرِّبَا؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ عَوَامِلِ الدَّمَارِ فِي الْحَالِ وَالْمَالِ، وَشَدَّدَ الْوَعِيدَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَهُ مِنْ أَقْبَحِ الْكِبَائِرِ، وَنَفَرَ النَّاسَ مِنْ تَعَاطِيهِ بِأَبْلَغِ الرِّوَاغِرِ؛ قَالَ تَعَالَى:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ [البقرة: 278، 279].

وَأَيُّ زَاجِرٍ أَكْبَرُ مِنْ جَعْلِ الْمُرَابِي مُحَارِبًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّهُ شَوَّةٌ وَجْهَ



المعروف بأخذه الزيادة عن رأس ماله.

فيا عجباً كيف يَفْرَحُ الْمُقْتَرِضُ بمعاملة مَنْ يُصَيِّرُهُ عُرْضَةً للهلاك،
حيث يَسْلُبُ ماله شيئاً فشيئاً، حتى يَنْتَزِعَ منه جميع الأملاك.

فيا أيُّها المُقْتَرِضُ بالربا، أَمَا تَدْرِي أَنَّكَ قَدْ وَقَعْتَ فِي قَبْضَةِ مَنْ يَحَاوِلُ أَنْ
يَقْطَعَ عَنْكَ مَادَّةَ الْحَيَاةِ؟!

فَإِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ فَرَجٌ عَنْكَ فَقَدْ أَوْقَعَكَ فِي ضَيْقٍ لَا تُحْمَدُ عَقْبَاهُ.

وأيُّ ضرورةٍ تدعوكِ إِلَى الاقتراضِ بهذه الزيادة الممقوتة، وأبواب الأرزاق
كثيرة؟ وما دام الإنسان حياً لا يعدم قوته.

عباد الله، إِنَّ ذُلَّ السُّؤَالِ أَهْوَنُ مِنْ أَخْذِ الْمَالِ بِالرِّبَا، فَإِنْ كَانَ السُّؤَالُ ذُلًّا
فَذُلُّ الرِّبَا أَشْنَعُ عِنْدَ حُلُولِ الدَّيْنِ يَوْمَ يَأْتِي الدَّائِنُ مُطَالِبًا.

أيُّهَا الْآخِذُ بِالرِّبَا، إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ، كَفَاكَ فِي دُنْيَاكَ مَا
يَدْفَعُ عَنْكَ ضَرُورَةَ الْحَيَاةِ، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ الْمَظَاهِرَ الْكَاذِبَةَ، فَاقْتَرَضْكَ بِالرِّبَا
يُورِثُكَ الْفَقْرَ، وَيَجُرُّ عَلَيْكَ وَخَامَةَ الْعَاقِبَةِ، أَتَتَعَبُ فِي جَمْعِ مَالِكَ وَيَفُوزُ بِهِ
الْأَجْنَبِيُّ وَهُوَ مُسْتَرِيحٌ الْبَال؟! وَتُعِينُهُ عَلَى الرِّبَا فَتَشَارِكُهُ فِي اللَّعْنَةِ، وَتُعَرِّضُ
نَفْسَكَ لِسُوءِ الْحَالِ، وَضُرَرِ الْمَالِ؟!

يَا هَذَا لَوْ فَكَّرْتَ فِي الرِّبَا لَعَلِمْتَ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَيْكَ بِالضَّرَرِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ
أَمْثَالِكَ تَعَامَلُوا بِالرِّبَا وَعَمَّا قَلِيلٍ أَحَاطَ بِهِمُ الْخَطَرُ، فَأَصْبَحُوا وَقَدِ التَّصَقَّتْ
أَيْدِيهِمْ بِالتَّرَابِ، لَا يَعْطِفُ عَلَيْهِمْ قَرِيبٌ، وَلَا يُوَاسِيهِمْ بَعِيدٌ، بَلْ تَقَطَّعَتْ بِهِمْ

الأسباب، وأصبحوا عالةً على كاهل العباد، هذا يَحْتَقِرْهُمْ، وهذا يَتَأَقَّفُ منهم، وآخر يَرْمِيهِمْ بسوء التصرف وفَقْدِ الرَّشَادِ، وما أوقعهم في هذا الهوان إلا الطَّمَعُ وافتتانهم بالتَّمَدُّنِ الحديث، فلم يجدوا وسيلةً إلى نيل أغراضِهِمْ سوى هذا القرض المشئوم الخبيث، فَجَرَّ عليهم وعلى أولادهم ثَقِيلَ الْهُمُومِ، وتَقَلَّبَتْ بهم عواصفُ الْغُومِ.

أَيُّهَا المسلمون، إِنَّ الْمَالَ خَيْرُ عَوْنٍ لَصَاحِبِهِ على بقائه عزيزًا بين قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ، فإذا خَالَطَهُ الرَّبَا ذهبَ مِنْ يَدِهِ، وأصبح كاسَفَ الْبَالِ، كَثِيبًا بين حَسْرَتِهِ وَنَدَامَتِهِ.

وهذا جزاء مَنْ تَعَرَّضَ لحرب الله والرسول الْمُصْطَفَى، ولو لم يكن في الربا إلا تشبيهه آكله بالذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ لَكَفَى.

فَاتَّقُوا اللَّهَ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - وَتَبَاعَدُوا عَنِ الرَّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 88]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٤٢) [الأنعام: 142].

(الحديث): قال رسول الله ﷺ: «إِذَا ظَهَرَ الزُّنَا وَالرَّبَا فِي قَرْيَةٍ فَقَدْ أَحْلَوْا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ» (١).



(١) أخرجه الحاكم في «مستدرکه» (2 / 43) (2261)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (5033)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (679).



خطبة في تبرج النساء في المدن

الحمد لله الذي وَعَدَ أَهْلَ الاستقامة دَارَ الْعِزِّ وَالْكَرَامَةِ، وَأَوْعَدَ الْفَاجِرِينَ
الْخِزْيَ وَالنَّكَالَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَى﴾ (٣١) [النجم: 31].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، ضَمِنَ الْفَلَاحَ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقَ الصَّوَابِ،
وأشهد أن سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَمَرَنَا بِالتَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ وَالْكِتَابِ، اللَّهُمَّ صَلِّ
وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَأَدَّبُوا بِآدَابِ الدِّينِ، فَكَانُوا هُمُ
الْفَائِزِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فيا أَيُّهَا الْمُسْلِمُ، ضَيَّعْتَ مَجْدَكَ وَمَا حَافِظْتَ عَلَى الشَّهَامَةِ وَالشَّرَفِ، مِلْتَ
إِلَى النِّقَائِصِ حَتَّى أَشْرَفْتَ عَلَى الْبَوَارِ وَالثَّلَفِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْتَبِهَ مِنْ غَفْلَتِكَ،
وَتَكُونُ مِنَ النَّادِمِينَ.

أَمَرَكَ رَبُّكَ بِتَعْلِيمِ أَوْلَادِكَ أُمُورَ الدِّينِ فَأَهْمَلْتَهُمْ!

تَرَكُوا الْكَمَالَ، وَتَعَرَّضُوا لِلْفُسَادِ فَمَا مَنَعْتَهُمْ!

تَدَّعَى الْعَيْرَةَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاؤُكَ فِي الْأَسْوَاقِ عُرْضَةً لِلْفَاسِقِينَ!

تركت المرأة تخرج بصورة لا يرضاها الكبير المتعال!

تركتها تخرج بحالة شنيعة تأبأها المروءة والغيرة والكمال!

تخرج بحالة تقشعر منها جلود المؤمنين، وتطمئن لها نفوس الفاجرين!

تركتها تخرج من بيتها متهتكة؛ فيفتن بها الكهول والشبان؛ هذا يزارحها، وذاك يخاطبها، وآخر يشير إليها بالبنان، ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ، شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36].

فهل يليق بك - أيها المسلم - أن تترك زوجتك أو ابنتك هكذا تخرج عن الصراط السوي؟!

هل يليق بك أن ترى المسلمة يراودها المسلم والنصراني؟!

هل يليق بك أن ترى المرأة تمشي مشي الغواية مع كل غوي؟!

أم رضيت أن تشيع الفاحشة، وينتشر الفساد بين المسلمين؟!

وهل هذا يرضيك وأنت تدعي الغيرة وكمال الإيمان؟

وهل هذا يجوز وأنت مسلم تصدق بالقرآن؟

وكيف ترضى بهذا وأنت من أمة سيد الأنبياء والمرسلين؟

يا قوم، ما هذا التبرج ⁽¹⁾ وكتاب الله بين أيدينا؟!

ما هذا الضلال وسنة الهادي تُرشدنا وتهدينا؟!

(1) التبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للأجانب. [م].



ما هذا الشَّقَاءُ والسَّعَادَةُ في ديننا تنادينَا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ [يوسف: 108]!

فلولا إِعْرَاضُنَا عن الدِّينِ لَمَّا أَصْبَحْنَا في حَالٍ هي أسوأ الحالات.
لولا هذه الحرية الكاذبة ما فسدت أحوال البنين والبنات.
لولا إهمال الآباء والأزواج ما خَرَجَتِ النِّسَاءُ مُتَبَرِّجَاتٍ مُتَهَتِّكَاتٍ، حتى ذهب الحياء، وعَمَّ البلاء ذات الشمال وذات اليمين.
فاتقوا الله- أيها المسلمون- وحافظُوا على الأعراض، وتأدَّبُوا بآداب الدِّين، وامنعوا بناتكم ونساءكم من تقليد الأجنبيةَّات في هذا التبرُّج إن كنتم مؤمنين.

فإنَّ ذلك من عَادَاتِ الجَاهِلِيَّةِ الأولى التي حَرَّمَها دينُ المسلمين؛ قال تعالى: ﴿يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴿٣٣﴾ الآية [الأحزاب: 32، 33]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٥٩﴾ [الأحزاب: 59].

وفي «البخاري» عن أسامة بن زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:



«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»⁽¹⁾.

وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرْتُ ثُمَّ خَرَجْتُ عَلَى قَوْمٍ؛ لِيَجِدُوا رِيحَهَا، فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ»⁽²⁾.



(1) أخرجه البخاري (5096)، ومسلم (2740).

(2) أخرجه النسائي (5126)، من حديث أبي موسى الأشعري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وأحمد (413 / 4)

(19726)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (5141).



خطبة في تعرض الرجال للنساء في الطرقات

الحمد لله العليم الذي لا يخفى عليه حال العبد في حرّكاته وسكّاته،
الحكيم الذي حرّم من الفلاح من هَامَ في لذّاته وشهواته، **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** له
الحُكْمُ وإليه تُرجعون.

وأشهد أن لا إله إلا الله القوي الغني الذي لا تضره المعصية ولا تنفعه
الطاعة، وأشهد أن سيّدنا محمداً رسول الله، أمر بالاستقامة، ونهى عن التفریط
والإضاعة، اللهم صلّ على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ولا تؤاخذنا بما فعل
السّفهاء المجرّمون.

أما بعد:

فيأيّها المسلم، سلكت طريق التّدامة، وعدلت عن طريق السّلامة،
أضعت عمرك في المعاصي، وما عملت حساباً للقيامة، أسرفت في اللذات
والشهوات فأوجبت لنفسك السقوط والمّامة، فما جوابك إذا نُشِر كتابك يوم
لا ينفع مال ولا بنون.

تمرّ بك المرأة فتتبعها عَيْنُكَ وتطيل فيها النّظر، تمشي فتمشي خلفها،
وما عاقبه ذلك إلا العار والوقوع في الخطر.

لا دينَ يَمْنَعُكَ، ولا أدَبَ يَرُدُّعُكَ، ولا حيَاءَ ولا نَظَرَ، لكن أغواكَ الشَّيْطَانُ، ورماك في العذاب المُهين؛ ألم تعلم أَنَّ النَّظَرَ إلى الأجنبية رائدُ الفِتْنَةِ، ورسولُ الفُجُورِ، وأنَّه على ذُرَيْتِكَ من جُمْلَةِ الدُّيُونِ؟!

ألم تعلم أَنَّ افتتانك بها يُورثك الفقرَ في الدنيا، وفي الآخرة عذابَ الهُونِ؟!

ألم تعلم أَنَّ هذه القبائح التي اسْتَهْوَتْهَا هي عند المُنْتَقِمِ الجَبَّارِ لا تَهُونُ؟! أَمَا بَلَغَكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: 30]؟! 

أَمَا تدري أَنَّ التعرُّضَ للنِّسَاءِ يَجْلِبُ لَكَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَيَجْرُكَ إِلَى الْخَرَابِ وَالذَّمَّارِ؟!

أَمَا تدري أَنَّ ذَلِكَ يُرْضِي الشَّيْطَانَ، وَيُغْضِبُ الْإِلَهَ الْعَزِيزَ الْقَهَّارِ؟! أَمَا تدري أَنَّ مَنْ مَلَأَ عَيْنَيْهِ مِنَ الْحَرَامِ تُكْوَى عَيْنَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَسَامِيرٍ مِنْ نَارٍ؛ كَمَا رَوَاهُ عَنِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ الثَّقَاتِ الْعَارِفُونَ؟! (1).

(1) القول: إِنَّ مَنْ نَظَرَ إِلَى حَرَامٍ قُلَعَتْ عَيْنُهُ بِمَسَامِيرٍ مِنْ نَارٍ، وَكُحِلَتْ عَيْنُهُ بِكُحْلِ مِنْ نَارٍ - كلام مُنْكَرٌ، ليس له أصل في السُّنَّةِ، ولم يُرو في شيء من كتب الحديث المعتمدة، وكذلك ما يُروى: «مَنْ نَظَرَ إِلَى مُحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ عَنْ شَهْوَةٍ صَبَّ فِي عَيْنَيْهِ الْآنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» - حديث مُنْكَرٌ، ليس له أصل؛ قال عنه الزيلعي في «نصب الرّاية» (4/ 239، 240): «غريب».

وأخرج الحارثُ في «مسنده» (1/ 309) حُطْبَةَ طَوِيلَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عَنْهَا:



يا هذا، إنَّ من كمال الإيمان أن تُحِبَّ للناس ما تُحِبُّ لنفسك؛ فهل تُحِبُّ من أحدٍ أن يتعرض إلى زوجتك أو ابنتك أو أمِّك؟

لا، إلا أن تكون ساقط المروعة، عديم الغيرة، أو لست من جماعة المسلمين.

فيُخشى على من يتعرَّض للنساء في الطرقات أن يُسَلَبَ منه الإيمان؛ فإنَّه اتَّخَذَ إلهه هواه، فأضله وأعماه، وأنساه هيبته مولاه، وقاده إلى الخسران، ﴿وَأُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19].

فتنبَّه - أيُّها الغافل - فالمرأة فتنة للإنسان!

تيقَّظ - أيُّها المفتون - فالنساء حبايل الشيطان!

وإياك والتعرُّض للنساء؛ فإنَّ الذَّنْبَ لا يُنسى، وكما تدين ثُدان، ﴿وَسَرَدُوكَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

[105].

«إنها آخر خطبة خطبها بالمدينة قبل وفاته»، ولكنها واهية، وفيها: «ومن أصاب من امرأة نظرة حراماً ملأ الله عينيه ناراً، ثُمَّ أَمَرَهُ إِلَى النَّارِ». قال عنها البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة»: (2/ 291): «باب في خطبة كَذَّبَهَا دَاوُدُ بْنُ الْمَحْبَرِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فذكرها مطولة.

وأوردها ابنُ الجوزي في «الموضوعات» (2/ 279)، وابنُ عراق في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة» (2/ 202).

هذا وفي الصحيح الثَّابِت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّحذِير من النظر إلى النساء الأجنبية - غُنية وكفاية عن هذه الروايات الباطلة.

فَاتَّقُوا اللَّهَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - وَتَحَلَّقُوا بِالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ، وَظَهَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ، وَأَدَّبُوهَا بِالْآدَابِ الدِّينِيَّةِ، وَعَوَّدُوهَا الْعِفَّةَ وَالْبَعْدَ عَنِ التَّعَرُّضِ وَالتَّنَظُّرِ إِلَى الْأَجْنِبِيَّةِ، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31].

(الحديث): قال رسول الله ﷺ: «التَّظَرُّهُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ؛ فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ امْرَأَةٍ لِلَّهِ وَرَثَ اللَّهُ قَلْبَهُ حُلَاوَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (1).

وروى الطبراني عنه ﷺ أنه قال: «لَتَغُضَّنَّ أَبْصَارَكُمْ، وَلَتَحْفَظُنَّ فُرُوجَكُمْ، أَوْ لَيَكْسِفَنَّ اللَّهُ وُجُوهَكُمْ» (2).



(1) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (4 / 349)، والطبراني في «الكبير» (10 / 173)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (8 / 63)، وقال: «رواه الطبراني، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعيف»، وقال الألباني في «الضعيفة» (1065): «ضعيف جداً».

(2) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (8 / 208) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وقال الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (1197): «ضعيف جداً».



نماذج المَواعِظ

أبلغ المَواعِظ كُلَّهَا كلامُ الله تعالى الأعز، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ.

ثمَّ الأنبياءِ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثمَّ مَواعِظُ الآباءِ للأبناءِ.

ثم مَواعِظُ الحكماءِ والأدباءِ.

ثم مَواعِظُ العبَّادِ للخُلَفاءِ.

ثم أقوالُ المُتَحَقِّقِينَ والزُّهَّادِ.

مَواظِ القُرآن

قال الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾
[النحل: 125] إلى آخر السورة.

وقال جل ثناؤه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨) [البقرة: 28].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾
(٧٧) ، إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ (٧٩) [يس: 77 - 79].

وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾
(٢) [الحجر: 3].

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2] ،
﴿وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فِي دِينِكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].



﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29].

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63].

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: 152].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: 1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: 19].

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: 12].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: 27].

فهذه الآيات وما شاكلها من أبلغ الحجج وأحكم المواظ.



مواظب الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

قال أبو بكر بن أبي شيبة - يرفعه إلى النبي **صلى الله عليه وسلم**: «يَكْفِي أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا قَدْرُ زَادِ الرَّاكِبِ»⁽¹⁾.

وقال **صلى الله عليه وسلم**: «ابن آدم، اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»⁽²⁾.

وقال: «مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْلَهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ، فَقَدْ كَمُلَتْ مَرْوَعَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجَبَتْ مَحَبَّتُهُ»⁽³⁾.

وقال: «أَوْصَانِي رَبِّي بِتَسْعِ أَوْصِيكُمْ بِهَا: أَوْصَانِي بِالْإِخْلَاصِ فِي السِّرِّ

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (219 / 13)، وابن ماجه في «سننه» (4104)، والحاكم في «المستدرک» (353 / 4) (7891)، وقال الهيثمي في «المجمع» (445 / 10): «رواه أبو يعلى والطبراني ورجاله رجال الصَّحيح غير يحيى بن جعدة، وهو ثقة»، وصححه الألباني في «الصَّحيحة» (1716).

(2) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (341 / 4)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (263 / 7)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (3355).

(3) أخرجه أبو نُعيم في «أخبار أصفهان» (300 / 2)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (322 / 1)، وقال الألباني في «الضعيفة» (3228): «موضوع».



وَالْعَلَانِيَّةِ، وَالْعَدْلِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدِ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَنْ أَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي، وَأَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وَأَنْ يَكُونَ صَنْتِي فِكْرًا، وَنُظْمِي ذِكْرًا، وَنَظْرِي عِبْرًا»⁽¹⁾.

وقال: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّهُ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»⁽²⁾.

وقال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»⁽³⁾.

(1) جاء نحوه في «مشكاة المصابيح» للتبريزي (3 / 162) بألفاظ قريبة مما ذكر، وقال: «رواه رزين».

ويؤيده ما جاء في «مسند أحمد» (4 / 264)، عن أبي مجلز قال: «صَلَّى بِنَا عَمَّارُ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا؛ فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَقَالَ: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ دَعَوْتُ فِيهِمَا بِدَعَاءٍ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو بِهِ: «اللَّهُمَّ بَعْلِيكَ الْغَيْبِ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَحْيَيْني مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّيْني إِذَا كَانَتْ الْوَفَاءُ خَيْرًا لِي، وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هَذَاهُ مَهْدِينَ».

وروى الطبراني في «الأوسط» عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «... وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ»، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «الصَّحِيحَةِ» (1802).

(2) أخرجه البخاري (6064)، ومسلم (2563) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(3) أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في مواعظ الأنبياء لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- «إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»⁽¹⁾.
- «اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِثْمَانِ»⁽²⁾.
- «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، فَسَعَوْهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ»⁽³⁾.
- «أَخْسَرُ النَّاسِ صَفْقَةً مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ»⁽¹⁾.

- (1) أخرجه البخاري (6120) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (2) أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة؛ في «الكبير» (94 / 20)، وفي «الأوسط» (55 / 3)، وفي «الصغير» (292 / 2)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (215 / 5) عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (195/8): «رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه سعيد بن سلام العطار- قال العجلي: لا بأس به، وكذّبه أحمد وغيره، وبقيّة رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ».
- وصححه الألباني في «الصحيحة» (439 / 3) من رواية سهل بن عبد الرحمن الجرجاني، عن محمد بن مطرف، عن محمد بن المنكدر، عن عروة بن الزبير عن أبي هريرة مرفوعاً، وقال: «الحديث بهذا الإسناد جيّد عندي».
- (3) أخرجه البزار في «مسنده» (99 / 17) (9651)، والمحامي في «الأمالي» (168)، ومن طريقه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (33 / 2) بلفظ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»، وقال الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (2661): «رواه أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن جيّد».



«إِيَّاكَ وَقَرِينَ السُّوءِ؛ فَإِنَّكَ بِهِ تُعْرِفُ» (2).

«بِرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ» (3).

«الْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ» (4).

(1) أخرجه ابن ماجه (3966) عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: عَبْدٌ أَذْهَبَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ»، وضعفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه» (858).

ورواه أبو نُعَيْمٍ في «حلية الأولياء» (325 / 5) من قول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فعن ميمون بن مهران قال: «قال عمرُ بن عبد العزيز لجلسائه: أخبروني بأحق الناس؟ قالوا: رجلٌ باع آخرته بدنياه. فقال عمر: أَلَا أَنْبِئُكُمْ بأحق منه؟ قالوا: بلى. قال: «رجلٌ باع آخرته بدنياه غيره».

(2) أخرجه ابن عساکر في «تاريخ دمشق» (46 / 14) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الألباني في «الضعيفة» (847): «موضوع».

ويُغْنِي عَنْهُ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مسنده» (334 / 2) (8398)، وأبو داود في «سننه» (4833) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»، وحسنه الألباني في «المشكاة» (5019).

(3) أخرجه الحاكم في «المستدرکه» (171 / 4) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والطبراني في «المعجم الأوسط» (299 / 1) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (2043).

(4) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (102 / 1)، وابن عدي في «الكامل» (64 / 8)، من طريق موسى بن محمد بن عطاء، وقال: «موسى بن محمد المقدسي: منكر الحديث»، وقال الألباني في «الضعيفة» (593): «موضوع»، ثُمَّ قَالَ: «ويُغْنِي عَنْهُ حَدِيثُ معاوية بن جماعة أَنَّهُ جَاءَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُو، وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ: «هَلْ لَكَ أُمٌّ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَالزَّمْهَا؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا». رواه النسائي (54 / 2)، وغيره كالطبراني (2 / 225 / 1)، وسنده حَسَنٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وصححه الحاكم (151 / 4)،

- «الْحَزْمُ: أَنْ تُشَاوِرَ ذَا الرَّأْيِ، ثُمَّ تُطِيعُهُ» (1).
- «أَحَبُّ الْبُيُوتِ إِلَى اللَّهِ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُكْرَمُ» (2).
- «دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ» (3).
- «مَنْ سَلَكَ مَسَالِكَ الشُّهُمِ اتَّهَمَ، وَلَا أَجْرَ لَهُ» (4).
- «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» (5).
- «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» (6).

=

- ووافقه الذهبي، وأقره المُنذري (3 / 214).
- (1) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (1 / 334)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (10 / 112)، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين مُرسلاً.
- (2) أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «العيال» (2 / 809)، وبنحوه البخاري في «الأدب المفرد» (137)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (1636).
- هذا، وأخرج البخاري (6005) في «صحيحه» عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَنَا وَكَافُلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وقال بإصبعيه السَّابِغَةِ والوسطى.
- (3) أخرجه الترمذي عن الحسن بن علي (2518)، والنسائي (5711)، وصححه الألباني في «المشكاة» (2773).
- (4) أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (1 / 161) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفاً بلفظ: «مَنْ أَقَامَ نَفْسَهُ مَقَامَ التَّهْمَةِ؛ فَلَا يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ»، وذكر الأمير المالكي في «التُّخْبَةُ البَهِيمَةُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمَكْذُوبَةِ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ» (ص 120) أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أي: وَلَا يَصْحُحُ مَرْفُوعًا: ".
- (5) أخرجه البخاري (10) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومسلم (41) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- (6) أخرجه البخاري (481) ومسلم (2585) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وقال عيسى ابن مريم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بخيركم مجالسة؟ قالوا: بلى. قال: مَنْ تُذَكِّرُكُمْ بِاللَّهِ رُؤْيَتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عَمَلِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَيُشَوِّقُكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ عَمَلُهُ» (1).

وقال **عَلَيْهِ السَّلَامُ** لِلْحَوَارِيِّينَ: «عَجَبًا لَكُمْ! تَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا وَأَنْتُمْ تُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَلَا تَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ، وَأَنْتُمْ لَا تُرْزَقُونَ فِيهَا إِلَّا بِعَمَلٍ» (2).

وفي الحديث القدسي عن رَبِّ الْعِزَّةِ: «يَا بَنَ آدَمَ، لَا تَخَفْ مِنْ ذِي سُلْطَانٍ مَا دَامَ سُلْطَانِي بَاقِيًا، وَسُلْطَانِي لَا يَنْقُذُ أَبَدًا.

يَا بَنَ آدَمَ، لَا تَأْنَسْ بِغَيْرِي وَأَنَا لَكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ طَلَبْتَنِي وَجَدْتَنِي، وَإِنْ أَنْسْتَ بِغَيْرِي فُتِّكَ، وَفَاتَكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ.

يَا بَنَ آدَمَ خَلَقْتُكَ لِلْعِبَادَةِ فَلَا تَلْعَبْ، وَقَسَمْتُ لَكَ رِزْقَكَ فَلَا تَتَعَبْ، إِنْ كَثُرَ فَلَا تَفْرَحْ، وَإِنْ قَلَّ فَلَا تَحْزَنْ».

وفيه أيضًا: «عَبْدِي إِنْ رَضِيتَ بِمَا قَسَمْتُ لَكَ أَرَحْتُ نَفْسَكَ وَبَدَنَكَ، وَكَنتَ عِنْدِي مَحْمُودًا، وَإِنْ لَمْ تَرْضَ بِمَا قَسَمْتُ لَكَ سَلَطْتُ عَلَيْكَ الدُّنْيَا تَرْكُضُ فِيهَا رَكْضَ الْوَحْشِ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَلَا يَنَالُكَ مِنْهَا إِلَّا مَا قَسَمْتُ لَكَ، وَكَنتَ عِنْدِي مَذْمُومًا».

وفيه أيضًا: «أَحِبُّ ثَلَاثًا، وَحِبِّي لثَلَاثٍ أَشَدُّ: أَحِبُّ أَهْلَ السَّخَاءِ، وَحِبِّي

(1) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص 299)، وابن المبارك في «الزهد» (ص 121) بسندٍ واهٍ، وبلاغًا

عن عيسى ابن مريم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**.

(2) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (47/463)، وابن أبي الدنيا في «الزهد» (ص 485).

للفقير السخيّ أَشَدُّ، وأحبُّ المتواضعين، وحبِّي للغني المتواضع أَشَدُّ، وأحبُّ التائبين، وحبِّي للشَّابِّ التائبِ أَشَدُّ.

وأُبغضُ ثلاثًا، وبُغْضِي لثلاثٍ أَشَدُّ: أُبغضُ البخلاء، وبُغْضِي للغنيّ أَشَدُّ، وأُبغضُ المتكبرين، وبُغْضِي للفقير المتكبرِ أَشَدُّ، وأُبغضُ الفسَّاق، وبُغْضِي للشَّيخ الفاسق أَشَدُّ.

وفيه: «عَبْدِي أَخَذَكَ الشَّيْطَانُ مِنِّي، لا لعجزي، ولكن لِضَعْفِكَ أَنْتَ».

وفيه: «عَبْدِي كَمْ أَتَحَبَّبُ إِلَيْكَ بِالتَّعَمُّ، وَتَتَبَعُّضُ إِلَيَّ بِالْمَعَاصِي، خيري إليك نازلٌ، وشُرُّك إليَّ صاعدٌ».

وفيه: «يَا بَنَ آدَمَ، لَا تُطَالِبْنِي بِرِزْقِ غَدٍ، كَمَا لَا أَطَالِبُكَ بِعَمَلِهِ؛ فَإِنِّي لَمْ أَنْسَ مَنْ عَصَانِي فَكَيْفَ مَنْ أَطَاعَنِي»⁽¹⁾.

وأوحى الله إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا عِيسَى، إِذَا كُنْتَ وَحْدَكَ فَاحْفَظْ لِسَانَكَ، وَإِذَا كُنْتَ عَلَى الطَّرِيقِ فَاحْفَظْ بَصَرَكَ، وَإِذَا كُنْتَ عَلَى الطَّعَامِ فَاحْفَظْ بَطْنَكَ، فَهَذِهِ ثَوْرَتُكَ السَّلَامَةُ وَالصَّحَّةُ»⁽²⁾.

ومن دعاء نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَرْبَعًا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ

أربع:

(1) لا وجودَ له في كتب السُّنَّة، وإنما أورد بعضه الألبشيحي في «المُستطرف في كل فنٍّ مُستطرف» (ص 78) منسوبًا إلى كعب الأحمار: «أَنَّهُ وَجَدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مَكْتُوبَةً فِي التَّوْرَةِ»، ولا يُقْطَعُ بِصِحَّةِ نِسْبَتِهِ إِلَى كَعْبٍ أَيْضًا؛ لَعَدَمِ وَرُودِهِ بِالْإِسْنَادِ إِلَيْهِ.

(2) لم أقف عليه.



أَسْأَلُكَ قَلْبًا خَاشِعًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَبَدَنًا عَلَى الْبَلَايَا صَابِرًا، وَامْرَأَةً تُعِينُنِي فِي دُنْيَايَ وَآخِرَتِي.

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ وَلَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ سَيِّدًا، وَمِنْ مَالٍ يَكُونُ نَعِيمًا لغيري،
وَوَبَالًا عَلَيَّ، وَمِنْ امْرَأَةٍ تُشِيبُنِي قَبْلَ وَقْتِ الْمَشِيبِ، وَمِنْ جَارٍ سَوْءٍ إِنْ رَأَى مِنِّي
حَسَنَةً كَتَمَهَا، وَإِنْ رَأَى مِنِّي سَيِّئَةً أَشَاعَهَا»⁽¹⁾.



(1) أخرجه السمرقندي في «تنبيه الغافلين» (ص 445).

مواعظ الحكماء

قال ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «ما انتفعتُ بكلام أحد بعد رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ما انتفعتُ بكلام كتبه إليَّ عليُّ بن أبي طالب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، كتب إليَّ: «أما بعد، فإنَّ المرءَ يسُرُّه إدراك ما لم يكن ليفوته، ويسوءُه فوات ما لم يكن ليدركه، فليكن سُرورك بما نلتَ من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلتَ من أمر دنياك فلا تكن به فَرِحًا، وما فاتك مِنْهَا فلا تأس عليه جزعًا، وليكن هُمُّك ما بعد الموت»⁽¹⁾.

قال عليُّ بن أبي طالب **كَرَّمَهُ اللَّهُ وَجَّهَهُ**: «أوصيكم بخمسين لو ضُربت عليها أباط الإبل لكان قليلًا: لا يَرْجُونَ أَحَدُكُمْ إِلَّا رَبَّهُ، ولا يخافنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ، ولا يَسْتَحِي إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لا أعلم، وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلَّمه، واعلموا أنَّ الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأس ذهب الجسد»⁽²⁾.

وقال أيضًا: «مَنْ أَرَادَ الْغِنَى بِغَيْرِ مَالٍ وَالكَثْرَةَ بِلَا عَشِيرَةٍ، فَلْيَتَحَوَّلْ مِنْ

(1) انظر «العقد الفريد» (3/ 84)، و«نهج البلاغة» (8/ 285).

(2) أخرجه ابن رشيد السبتي في «ملء العيبة» (ص 385)، وانظر: «العقد الفريد»، لابن عبد ربه (3/ 90).



ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ إِلَى عَزِّ الطَّاعَةِ، أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ»⁽¹⁾.

قال العتيبي: «اجتمعت العربُ والعجمُ على أربع كلمات: «لا تَحْمِلَنَّ على قلبك ما لا تُطيق، ولا تَعْمَلَنَّ عملاً ليس لك فيه منفعة، ولا تَثِقَ بامرأة، ولا تَغْتَرَّ بمالٍ وإن كَثُرَ»⁽²⁾.

قال ابن شبرمة: «إذا كان البدنُ سَقِيمًا لم يَنْجِعْ فيه الطعامُ ولا الشرابُ، وإذا كان القلبُ مُغْرَمًا بِحَبِّ الدُّنْيَا لم تَنْجَحْ فيه الموعظة»⁽³⁾.

وقال هارونُ لابن السَّمَاكِ: «عِظْنِي!

قال: كَفَى بِالْقُرْآنِ واعِظًا؛ يقول الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ آلِي لَمٍ يُحَلِّقُ مِنْهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: 6-8] إلى قوله: ﴿لِيَالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: 6-14]»⁽⁴⁾.

قال ابنُ المُبَارَك: «كتب سلمانُ الفَارِسِيُّ إلى أَبِي الدَّرْدَاءِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكَ لَنْ تَنَالَ مَا تُرِيدُ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهِي، وَلَنْ تَنَالَ مَا تُؤْمَلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ، فليكن كَلَامُكَ ذِكْرًا، وَصَمْتُكَ فِكْرًا، وَنَظْرُكَ عِبْرًا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا تَتَقَلَّبُ، وَبَهْجَتُهَا تَتَغَيَّرُ، فَلَا تَغْتَرَّ بِهَا، وَلِيَكُنْ بَيْتُكَ الْمَسْجِدَ، وَالسَّلَامَ.

فأجابه أَبُو الدَّرْدَاءِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَنْ

(1) أخرجه البلاذري في «أنساب الأشراف» (2/ 113)، وانظر «العقد الفريد» (3/ 90).

(2) انظر «العقد الفريد» (2/ 120).

(3) انظر «سراج الملوك» للطرطوشي (ص 9).

(4) انظر «العقد الفريد» (3/ 93).

تأخذ من صِحَّتِكَ لِسَقَمِكَ، ومن شَبَابِكَ لِهَرَمِكَ، ومن فَرَاغِكَ لَشُغْلِكَ، ومن حياتك لموتك، ومن جَفَائِكَ لمودتك، واذكر حياة لا موت فيها في إحدى المنزلتين؛ إمَّا في الجنة، وإمَّا في النار؛ فإنك لا تدري إلى أيِّهما تصير»⁽¹⁾.

وَكَتَبَ عمرُ بن عبد العزيز إلى رَجَاء بن حَيَّوَه: «أَمَّا بعدُ: فإنه مَنْ أَكْثَرَ من ذكر الموت اكتفى باليسير، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الكلام مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كلامُهُ إلا فيما يَنْفَعُهُ»⁽²⁾.

وَكَتَبَ عمرُ بن عبد العزيز إلى الحسن: «اجمّع لي أَمْرَ الدُّنْيَا، وَصِفْ لي أَمْرَ الآخرة!

فَكَتَبَ إليه: «إِنَّمَا الدنيا حُلُمٌ، والآخرة يقظةٌ، والموت مُتَوَسِّطٌ، ونحن في أضغاثِ أحلام؛ مَنْ حاسبَ نفسه رَجِحَ، وَمَنْ غَفَلَ عنها خَسِرَ، ومن نَظَرَ إلى العواقب نَجَا، وَمَنْ أطاعَ هواه ضَلَّ، ومن حَلِمَ غَنِمَ، وَمَنْ خافَ سَلِمَ، وَمَنْ اعتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهَمَ، وَمَنْ فَهَمَ عَلِمَ، ومن عَلِمَ عَمِلَ، فإذا زِلْتَ فارْجِعْ، وإذا نَدِمْتَ فاقْلَعْ، وإذا جَهِلْتَ فاسألْ، وإذا غَضِبْتَ فامسك.

واعلم أَنَّ أَفْضَلَ الأعمال ما أُكْرِهْتَ التُّفُوسُ عليه»⁽³⁾.

يُشِيرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره، والنَّارُ

(1) انظر «العقد الفريد» (94 / 3).

(2) انظر «العقد الفريد» (95 / 3).

(3) «العقد الفريد» (95 / 3).



بالشَّهَوَات⁽¹⁾، أي: أن الطريق إلى الجنة احتمال المكروه في الدنيا، والطَّرِيق إلى النَّار ركوب الشَّهَوَات.



(1) أخرجه مسلم (2833) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مواعظ الآباء للأبناء⁽¹⁾

قال لقمان لابنه: «إذا أتيت مجلس قوم فارمهم بسهم السلام، ثم اجلس، فإن أفاضوا في ذكر الله فاجعل سهمك مع سهامهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فحلّ عنهم، وانفضّ ثوبك».

وقال: يا بُنيّ، استعذ بالله من شرار الناس، وكُن من خيارهم على حذر». ومثّل هذا قول أكرم بن صيفي: «احذر الأمين، ولا تأمن الخائن؛ فإن القلوب بيد غيرك».

وقال لقمان لابنه أيضًا: «لا تركز إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها؛ فإنك لم تُخلَقَ لها، وما خلَقَ الله خلقًا أهون عليه منها؛ فإنه لم يجعل نعيمها ثوابًا للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين».

يا بُنيّ، لا تضحك من غير عجبٍ، ولا تمش في غير أرب⁽²⁾، ولا تسأل عمّا لا يعينك.

يا بني، لا تُضَيِّع مَالَك، وتُضِلِّح مَالَ غيرك؛ فإنّ مَالَك ما قدّمت، ومال

(1) نقل المؤلف هذه المواعظ من «العقد الفريد» (3/ 96 - 101).

(2) حاجة.



غيرك ما تَرَكْتَ.

يا بُني، إنه مَنْ يَرْحَمَ يُرَحَّم، وَمَنْ يَصُمْتُ يَسَلَم، وَمَنْ يَقُلُ الْحَيَّرَ يَغْنَم،
وَمَنْ يَقُلُ الْبَاطِلَ يَأْثُم، وَمَنْ لَا يَمْلِكُ لِسَانَهُ يَنْدَم.

يا بني، زَاكِمُ الْعُلَمَاءِ بُرْكَبَتَيْكَ، وَأَنْصِتْ إِلَيْهِمْ بِأَذْنِكَ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ يَحْيَا
بِنُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا تَحْيَا الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ بِمَطَرِ السَّمَاءِ!.

وقال عليُّ بنُ الحُسَيْنِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** لابنه: «يا بُني، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَكَ لِي
فَأَوْصَاكَ بِي، وَرَضِيَنِي لَكَ فَحَدَّرَنِي مِنْكَ.

واعلم أَنَّ خَيْرَ الْأَبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ: مَنْ لَمْ تَدْعُهُ الْمَوَدَّةُ إِلَى التَّفْرِيطِ فِيهِ، وَخَيْرُ
الْأَبْنَاءِ لِلْأَبَاءِ مَنْ لَمْ يَدْعُهُ التَّقْصِيرُ إِلَى الْعُقُوقِ لَهُ».

وقال حَكِيمُ لَبْنِيهِ: «يا بُنَيَّ، إِيَّاكُمْ وَالْجَزَعُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ؛ فَإِنَّهُ مَجْلِبَةٌ
لِلْهَمِّ، وَسَوْءُ ظَنٍّ بِالرَّبِّ، وَشِمَاتَةٌ لِلْعَدُوِّ.

وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا بِالْأَحْدَاثِ مُعْطَرِبِينَ وَلَهَا آمِنِينَ⁽¹⁾؛ فَإِنِّي - وَاللَّهِ - مَا
سَخِرْتُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا نَزَلَ بِي مِثْلُهُ؛ فَاحْذَرُوهَا وَتَوَقَّعُوهَا، فَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا
غَرَضٌ تَتَعَاوَرُهُ السَّهَامُ، فَمُجَاوِزٌ لَهُ، وَمَقْصَرٌ عَنْهُ، وَوَاقِعٌ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ حَتَّى
يُصِيبَهُ بَعْضُهَا، وَاعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَزَاءً، وَلِكُلِّ عَمَلٍ ثَوَابًا، وَقَدْ قَالُوا: كَمَا
تُدِينُ ثَدَانٍ، وَمَنْ بَرَّ يَوْمًا بَرَّ بِهِ».

وقال حَكِيمُ لَبْنِيهِ: «يا بُنَيَّ، إِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَإِنْ لَمْ تَحْفَظْ وَصِيَّتِي عَنِّي

(1) هكذا، وفي بعض طبعات «العقد الفريد»: «آمِنين»، أي: قاصدين.

لَمْ تَحْفَظْهَا عَنْ غَيْرِي: اتَّقِ اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَإِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَكُونَ الْيَوْمَ خَيْرًا مِنْكَ أَمْسَ، وَغَدًا خَيْرًا مِنْكَ الْيَوْمَ فَافْعَلْ.

وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعِ؛ فَإِنَّهُ فَقَرَّ حَاضِرٌ.

وَعَلَيْكَ بِالْيَأْسِ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تَيَأَسَ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا أَغْنَاكَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَذِرَ مِنْ خَيْرٍ أَبَدًا، وَإِذَا عَثَرَ عَاثِرٌ فَاحْمَدِ اللَّهَ أَلَا تَكُونُ هُوَ.

يَا بُنَيَّ، خُذِ الْخَيْرَ عَنْ أَهْلِهِ، وَدَعْ الشَّرَّ لِأَهْلِهِ، وَإِذَا قَمْتَ إِلَى صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ، وَأَنْتَ تَرَى أَلَا تُصَلِّي بَعْدَهَا.

وكتب الإمام علي رضي الله عنه إلى ولده الحسن:

«مِنْ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، الْوَالِدِ الْفَانِي، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمَرِ، الْمُؤَمَّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَعَبْرِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَأَسِيرِ الْمَنَايَا، وَقَرِينِ الزَّوَايَا، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ، أَمَّا بَعْدُ:

يَا بُنَيَّ، فَإِنَّ فِيمَا تَفَكَّرْتَ فِيهِ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ عَلَيَّ، وَحَنُوِّ الدَّهْرِ عَلَيَّ مَا نَزَعَنِي عَنْ ذِكْرِ سَوَائِي، وَالْإِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنَّهُ حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي هُمٌّ نَفْسِي دُونَ هَمِّ النَّاسِ، وَصَدَقَنِي هَوَايَ، وَصَرَحَ بِي مُحْضُ رَأْيِي، فَأَفْضِي بِي إِلَى جِدٍّ لَا يُزِرِّي بِهِ لَعَبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشْوِيهِ كَذِبٌ - وَجَدْتُكَ يَا بُنَيَّ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَحَتَّى كَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ



أتاك أأتاني؛ فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني من أمر نفسي، كتبت إليك كتابي هذا، إن بقيت أو فنيت، فإني: مُوصيك بتقوى الله، وعمارَةَ قلبك بذكره، والاعتصام بحبله؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103]، وأُيِّ سبب - يا بُني - أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى.

أخي قلبك بالموعظة، ونوره بالحكمة، وقوه بالزهد، وذله بالموت، وقوه بالغنى عن الناس، وحذره صولة الدهر، وتقلب الأيام والليالي، واعرض عليه أخبار الماضين، وسر في ديارهم وآثارهم؛ فانظر ما فعلوا، وأين حلوا؟ فإنك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور، ونزلوا دار الغربة، وكأنتك عن قليل - يا بُني - قد صرت كأحدهم؛ فبِع دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ، ولا تَبِع آخِرَتِكَ بِدُنْيَاكَ، ودع القول فيما لا تعرف، والأمر فيما لا تُكَلِّف، وأمر بالمعروف، وأنه عن المنكر بيدك ولسانك، وبأين مَن فَعَلَهُ، وخُض العِمَرَات إلى الحق، ولا يأخذك في الله لومة لائم.

واحفظ وصيَّتي، ولا تذهب عنك صفحا؛ فلا خير في عِلْم لا يَنْفَع، واعلم أَنَّهُ لا غنى بك عن حُسْن الارتياح مع بلاغك مِنِّي الزَّاد، فإن أصبت من أهل الفاقة مَن يحمل عنك زادك، فيوافيك به في معادك فاغتنمه؛ فإنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةٌ كَوُودًا (1) لا يُجَاوِزُهَا إِلَّا أَخَفُ النَّاسِ حِمْلًا؛ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ، وَأَحْسِنْ

(1) صعب المرتقى.

المُكْتَسَب، قُرْبَ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ، وَإِنَّمَا الْمَحْرُومُ مِنْ حُرْمِ دِينِهِ،
وَالْمُسْلُوبُ مَنْ سُلِبَ يَقِينُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا غِنَى يَعْدِلُ الْجَنَّةَ، وَلَا فَقْرٌ يَعْدِلُ النَّارَ،
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ.





مقامات العباد عند الخلفاء (1)

قام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي، فقال له: «إنَّه لما سَهَّلَ علينا ما تَوَعَّرَ على غيرنا من الوصول إليك - قُمنَا مقامَ الأداء عنهم، وعن رسول الله ﷺ بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والتَّهي، بانقطاع عُذْرِ الكِتمان، ولا سِيما حين اتَّسمت بميسم التَّواضع، وعَبَدتَ الله، وحَمَلتَ كتابه إيثاراً للحقِّ على ما سواه، فجمعنا - وإيَّاكَ - مشهَدٌ من مشاهِدِ التَّمحيص.

وقد جاء في الأثر: «مَنْ حَجَبَ اللهُ عَنْهُ الْعِلْمَ عَذَّبَهُ عَلَى الْجَهْلِ» (2)، وأشدُّ منه عذاباً مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمُ فَأَدْبَرَ عَنْهُ.

فأقبل - يا أمير المؤمنين - ما أُهدي إليك مِنْ أَلْسِنَتِنَا قبولَ تحقيقٍ وعملٍ، لا قبولَ سُمْعَةٍ ورياءٍ، فإنَّما هو تنبيهٌ من غفلة، وتذكيرٌ من سهو، وقد وَظَنَ اللهُ نبيَّه على نزولهما؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا يَزْغَنكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200].

(1) نقل المؤلف هذه المقامات من «العقد الفريد» (3/ 103 - 110).

(2) ذكره ابن عبد البر عن بعض الحكماء في «جامع بيان أخذ العلم» برقم (1214). نشر دار الإمام البخاري - قطر.

كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك:

حَجَّ سليمانُ بن عبد الملك، فلَمَّا قَدِمَ المدينةَ للزَّيَّارة بَعَثَ إلى أبي حازم الأَعْرَج، وعنده ابن شهاب، فلما دخل قال: تَكَلَّم يا أبا حازم!

قال: فِيمَ أَتَكَلَّمُ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

قال: في المَخْرَج مِن هذا الأَمْرِ.

قال: يَسِيرُ إِنْ أَنْتَ فَعَلْتَهُ.

قال: وما ذاك؟

قال: لا تَأْخُذْ الأَشْيَاءَ إِلَّا مِنْ حِلِّهَا، ولا تَضَعُهَا إِلَّا فِي أَهْلِهَا.

قال: وَمَنْ يَفْوَى عَلَى ذلِكَ؟

قال: مَنْ قَلَّدَهُ اللهُ مِنْ أَمْرِ الرِّعيَةِ ما قَلَّدَكَ.

قال: عِظْني أبا حازم!

قال: اعْلَمْ أَنَّ هذا الأَمْرَ لَمْ يَصِرْ إِلَيْكَ إِلَّا بِمَوْتِ مَنْ كانَ قَبْلَكَ، وهو خَارِجٌ مِنْ يَدَيْكَ بِمِثْلِ ما صارَ إِلَيْكَ.

قال: يا أبا حازم، أَثِيرُ عَلَيَّ!

قال: إِنَّما أَنْتَ سَوْقٌ، فما نَفَقَ عِنْدَكَ حُمْلَ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَاخْتَرِ أَيَّهَما شِئْتَ!

قال: ما لَكَ لا تَأْتِينا؟



قال: وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني أخزيتني، وليس عندك ما أرجوك له، ولا عندي ما أخافك عليه.

قال: فارفع إلينا حاجتك.

قال: قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها، فما أعطاني منها قبلت، وما منعتني منها رضىت.

مقام ابن السمّك عند الرشيد:

دَخَلَ عليه، فلما وقف بين يديه قال له: «عِظْنِي يَا بْنَ السَّمَّكِ، وَأَوْجِزْ!

قال: كَفَى بِالْقُرْآنِ وَاِعْظَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ

﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: 1 - 6]، هذا - يا أمير المؤمنين - وَعِيدٌ لِمَنْ طَفَّفَ فِي الْكِيلِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ أَخَذَهُ كُلُّهُ؟!».

وَقَالَ لَهُ مَرَّةً: عِظْنِي، وَأُتِي بِمَاءٍ لِيَشْرَبَهُ!

فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ حُبِسَتْ عَنْكَ هَذِهِ الشَّرْبَةُ أَكُنْتَ تَفْدِيهَا بِمُلْكِكَ؟

قال: نعم، قال: فلو حُيسَ عَنْكَ خُرُوجُهَا أَكُنْتَ تَفْدِيهَا بِمُلْكِكَ؟

قال: نعم، قال فما خَيْرٌ فِي مُلْكٍ لَا يَسَاوِي شَرْبَةً وَلَا بَوْلَةً.

قال: يَا بْنَ السَّمَّكِ، مَا أَحْسَنَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ!

قال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ لِي عَيُوبًا لَوْ اطَّلَعَ النَّاسُ مِنْهَا عَلَى عَيْبٍ وَاحِدٍ مَا

ثَبَّتْ لي في قلبٍ أحدٍ مَوَدَّةً، وإني لخائف في الكلام الفتنة، وفي السرِّ الغرّة، وإني لخائف على نفسي من قلة خوفي عليها.

كلام عمرو بن عُبيد عند المنصور⁽¹⁾:

دخل عمرو بن عُبيد على المنصور- وعنده ابنه المهدي- فقال له أبو جعفر: هذا ابن أمير المؤمنين، ووليّ عهد المسلمين، ورجائي أن تدعوله، فقال: «أمير المؤمنين! أراك قد رضيت له أموراً يصيرُ إليها، وأنت عنه مشغولٌ.

فاستعبر أبو جعفر، وقال له: عِظني أبا عثمان!

(1) جاء في «سير أعلام النبلاء» (6/ 259، 260): «عمرو بن عُبيد: الزَّاهد، العابد، القَدري، كبير المُعتزلة وأوْلُهُم؛ أبو عثمان البَصري. قال ابن المبارك: دعا إلى القدر؛ فَتَرَكوهُ. قال ابن عليّة: أوَّل مَنْ تكلم في الاعتزال واصلُ الغَزَّال؛ فدخل معه عمرو بن عُبيد فأعجب به، ورَوَّجه أخته. وقد كان المنصور يُعَظِّم ابنَ عُبيد، ويقول:

كُلُّكُمْ يَمْشِي رَوِيًّا
كُلُّكُمْ يَطْلُبُ صَبِيًّا
غَيْرَ عَمْرٍو بِنِ عُبَيْدٍ

اغتر بزهده وإخلاصه، وأَعْقَلَ بدعته.

قال الخطيب: مات بطريق مكة سنة ثلاث. وقيل: سنة أربع وأربعين ومائة.

قال أحمد بن أبي خيثمة في «تاريخه»: «سمعت ابنَ مَعِين يقول: كان عمرو بن عبيد من الدَّهْرية».

وقال سَلَام بن أبي مطيع: «أنا للحَجَّاجِ أَرْجَى مِنِّي لعمرو بن عُبيد».



قال: يا أمير المؤمنين، إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا، فَاشْتَرِ نَفْسَكَ مِنْهُ بِبَعْضِهَا، هَذَا الَّذِي أَصْبَحَ فِي يَدَيْكَ لَوْ بَقِيَ فِي يَدِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ.

قال: أبا عثمان، أَعِنِّي بِأَصْحَابِكَ!

قال: ارفع عِلْمَ الْحَقِّ يَتَّبِعَكَ أَهْلُهُ.

ثم خرج، فَاتَّبَعَهُ أَبُو جَعْفَرٍ بَصْرَةَ، فَلَمْ يَقْبَلْهَا.

خبر سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ مع أَبِي جَعْفَرٍ

لَقِيَ أَبُو جَعْفَرٍ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ فِي الطَّوَافِ - وَسُفْيَانُ لَا يَعْرِفُهُ - فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى عَاتِقِهِ، وَقَالَ: أَتَعْرِفُنِي؟

قال: لا، وَلَكِنَّكَ قَبَضْتَ عَلَيَّ قَبْضَةَ جَبَّارٍ.

قال: عِظْنِي أبا عَبْدِ اللَّهِ.

قال: وَمَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؛ فَأَعْظُكَ فِيمَا جَهِلْتَ؟!

قال: فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَأْتِيَنَا؟

قال: إِنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْكُمْ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا

فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: 113].

فَمَسَحَ أَبُو جَعْفَرٍ يَدَهُ بِهِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَلَقَيْنَا الْحَبَّ إِلَى الْعُلَمَاءِ فَلَقِطُوا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سُفْيَانَ؛ فَإِنَّهُ أَعْيَانَا فِرَارًا.

دخل أعرابيٌّ على سليمان بن عبد الملك فقال: «يا أمير المؤمنين، إني

مُكَلِّمَك بِكَلَامٍ فَاحْتَمِلْهُ إِنْ كَرِهْتَهُ؛ فَإِنْ وُورَاهُ مَا تُحِبُّ إِنْ قَبِلْتَهُ.

قال: هاتِ يا أعرابي.

قال: إني سأُطْلِقُ لِسَانِي بِمَا خَرَسَتْ عَنْهُ الْأَلْسُنُ مِنْ عِظَمِكَ؛ تَأْدِيَةِ لِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَقِّ إِمَامَتِكَ: إِنَّهُ قَدْ اكْتَنَفَكَ رَجَالُ أَسَاءُوا الْاِخْتِيَارَ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فابْتَاعُوا دُنْيَاكَ بِدِينِهِمْ، وَرِضَاكَ بِسَخَطِ رَبِّهِمْ؛ خَافُوكَ فِي اللَّهِ، وَلَمْ يَخَافُوا اللَّهَ فِيكَ، فَهُمْ حَرْبٌ لِلْآخِرَةِ، سِلْمٌ لِلدُّنْيَا؛ فَلَا تَأْمَنُهُمْ عَلَى مَا اتَّيَمَنَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَأْلُونَكَ خَبَالًا، وَالْأَمَانَةَ تَضِييعًا، وَالْأُمَّةَ عَسْفًا وَخُسْفًا، وَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَمَّا اجْتَرَحُوا، وَلَيْسَ مَسْئُولِينَ عَمَّا اجْتَرَحْتَ، فَلَا تُصْلِحْ دُنْيَاهُمْ بِفُسَادِ آخِرَتِكَ؛ فَإِنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْظَمَهُمْ غُبْنًا مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ.

قال سليمان: أمّا أنت يا أعرابي فقد سللت لسانك وهو أحد سيفيك.

قال: أَجَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَكَ، لَا عَلَيْكَ» (1).



جَعَلْنَا اللَّهُ مِمَّنْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وَوَفَّقْنَا لِلْعِلْمِ مَعَ الْعَمَلِ فِي الْمَبْدَأِ وَالْخِتَامِ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْبَرَّةِ الْكِرَامِ.

وكان الفراغ من تأليفه وترتيبه وتنقيحه وتهذيبه في نهاية ربيع الأول،

(1) انظر «العقد الفريد» (3 / 110).



سنة اثنتين وأربعين بعد ثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضّل
الصلاة وأزكى التحية.



مكتب طريق الهجرتين للتحقيق والبحث العلمي

erakyhamed55@hotmail.com

00201023101278 - 00201126436147